الشيخ منصور الرفاعي عبيد
وكيل وزارة الأوقاف الأسبق

المرأة

مَاضيهَا وَحَاضِرُهَا

الدار المصرية

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ . ٢٠٠٠ م

دار اوراق شرقية

للطباعة والنشر والتوزيع

كورنيش بشارة الخوري - بناية تمارا - ص. ب.: ١٤/٥٢٧٦ - بيروت - لبنان

هاتف: ٦٥٦٦٥٧ - ٦٥٦٦٥٨ - فاكس:

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الأم، والأخت، والزوجة، والابنة، والعمة، والخالة.. إلى كل أنثى فى أى مكان. ليكون هذا السفر بين يديها نبراساً ينير لها الطريق الصحيح، ويهديها إلى الصراط المستقيم.

منصور الرفاعى عبيد
عضو اتحاد الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، الذى خلق الإنسان فى أحسن صورة وأجمل هيئة، وعلَّمه البيان، بعد أن نفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، ثم فضَّله على كثير من خلقه، واستخلفه فى الأرض، وأسبغ عليه نِعَمه ظاهرة وباطنة. . أحمده ـ سبحانه وتعالى ـ حمداً أستديم به جليل نعمائه، وأستدفع به أليم بلائه. . وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الحمد فى الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون. . وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله، بعثه الله رحمة للعالمين، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه المصطفين الأخيار، وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين. . وبعد:

فإن الإسلام ينظر إلى المرأة على أنها «إنسان»، وهذه الكلمة وردت فى اللغة العربية على أنها للذكر والأنثى. . وقد وردت كلمة «إنسان» فى القرآن أكثر من خمس وستين مرة، فى حين لم تَرِدْ كلمة «إنسانة» ولا مرة واحدة، وهذا من باب التأكيد على أن الإسلام خاطب الإنسان بصفة عامة، حتى لا يستشعر أحد أن الإسلام وضع فارقاً بين الذكر والأنثى، حيث إن كل ما تضمَّنه الإسلام من عقائد، وعبادات، وأخلاق، ومعاملات، تتعلق بالإنسان ـ أى بكل فرد ـ وإن كان هناك بعض الاختلافات فى التطبيق فذلك بحسب التكوين الجسمانى لكل من الرجل والمرأة. . وعلى هذا الأساس، فإنه ليس هناك مشكلة للمرأة فى ظل تطبيق النظم الدينية والأسس الإسلامية. ثم إنه لم يرد فى القرآن أو السُّنَّة النبوية إشارة إلى مشكلة خاصة بالرجل أو المرأة وعاش المجتمع الإسلامى فى هذا المناخ الكريم ولم تظهر أى إشارة إلى ما يسمى بالمشكلة، إلى أن خضع الشرق لسيطرة الغرب

فطرح هذه المشكلة ليجرّ المجتمع الإسلامى إلى دوّامة من المشاكل، خاصة ما أثاره من موضوع الميراث، وحق العمل، والمساواة فيه، وتنظيم الأسرة، وغير ذلك من المشاكل التى خطط لها الاستعمار وأعداء الإسلام بمهارة ودقّة، ومع ذلك فكلها لها حلول واضحة لا لَبْسَ فيها ولا غموض.

وإذا كان الغرب الآن يطرح قضية المساواة بين الرجل والمرأة، ومعاملتهما على قدم المساواة، فإننا نقول: إن هذا يتنافى مع تعاليم الإسلام، حيث خلق الله الذكر والأنثى وهما متساويان فى الحقوق الدينية والواجبات الإسلامية، أمّا الوظائف الاجتماعية فإن الله منح كل نوع خصائص يتميز بها عن النوع الآخر، وكل نوع له وظائف مكلَّف بها تتفق والخصائص التى بنى الله عليها جسمه وتمّ تكوينه، فقد خصّ الله المرأة برسالة الأمومة، وخص الرجل برسالة الأُبوّة، ثم إن كل نوع له فضائل وخصائص لا ينبغى أن يتمنى أحدهما ما للآخر، لأن العلاقة تكاملية بين الاثنين وليست علاقة تصارعية. وإذا كانت المرأة لها استثناءات من حيث الشهادة والميراث وغير ذلك فهى مُسَبَّبَة، ولها شروطها وقواعدها المقررة فى كتب الفقه وشروح السنَّة النبوية. لهذا نقول للعالم: ليس عندنا مشكلة للمرأة أو صراع بين الجنسين، وأنهما جميعاً من نَفْسٍ واحدة، وصدق الله العظيم إذ يقول فى أول سورة النساء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾، ويقول سبحانه فى السورة نفسها: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[1].

والإسلام منح المرأة نصيبها من الحياة الكريمة عندما أشرق نوره وأسفر عن جو مشرق بالحياة الطيبة، وبالأمل المشحون بالخير، وبالأسلوب العظيم المتّسم بالأدب والاحترام فى الحياة الجديدة. ذلك حكم للحقيقة وللتاريخ، وليس لعاطفة الدين. ثم إن طبيعة المرأة الكامنة فى نفسها إن وُفِّقت إلى من يتعهّدها ويصلح شأنها ويزيل العوائق من أمامها كانت سبيل الكمال والنهوض بالأمة، إذ هى الخير

---

(١) سورة النساء، الآية ٣٢.

كل الخير، وهى الأستاذة الكبيرة للأجيال.. وإنْ هى مُنِيَت بمن يُمَوِّه لها الباطل ويُزَيِّن لها الشر ويغويها ويدفع بها إلى الفساد والانحراف، انعكست آيتها، وانتكست حالتها، وأهدرت كرامتها. وإن هى تُرِكَتْ وأمرها وخُلِّيَت وسبيلها كان شأنها كشأن دقائق الكنوز فى قفر الأرض، تتحول الأزمنة وتتبدل الأمم وهى على حالها، لا خير فيها، ولا أثر لها، لذلك طرح المصلحون سؤالاً: أى طرق التربية أصلح للمرأة وآثر فى حياتها؟ وكانت الإجابة: الدين.. فهو الكفيل بإصلاح حال المرأة.

لقد نهض الإسلام بالمرأة ورفع من شأنها، وكان أثرها فى تكوين الرجال وتصريف حوادثه أشبه ما يكون بأثر الغدير الهادئ الفيَّاض فى زهر الحدائق والبساتين. وتعالوا بنا نطالع صفحة من تاريخنا الذى نعتزّ به ونطرب له، فسنجد أن المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها سجَّلت أروع الصفحات بعظائم الأمور مع مشاركتها للرجل فى سياسة الأمة، وولاية الأمر، وجدِّ العمل، ومختلف شئون الحياة.. وكانت مع ذلك تستقبل الوجود بعواطف فيَّاضة، يظهر أثر ذلك فى قلبها الخفَّاق الذى يفهم ويعى ويدرك الأمور بذكاء وشفافية.

لقد رفع الله مكانة المرأة إلى المنزلة السامية ليَكِلَ إليها أشرف منازل الحياة، لأنها أستاذة الأساتذة فى التربية والتنشئة، والتعليم والتوجيه، لذلك فهى ليست بالمخلوق الضعيف، فلقد احتملت على مر العصور الكثير من عَنَت الأيام، وظُلم الأهل والعشيرة، وتكبُّر الرَّجُل وتجبُّره، ومشقَّة الحَمْل، ووصب الوضع، وسهر الليالى بجوار الطفل، وما تعانيه من قيام بحقوقه ورعايته بنفس راضية، وعاطفة جيَّاشة، وقلب عطوف، لذلك فهى دعامة الكون الذى لا يزال ناهضاً قويًّا، ما نهضت هى به، فإن هى ضعفت وتخاذلت تهاوت عُمُده، وتصدَّع بُنيانه، ومن هنا قيل عنها:

الأم مدرسة إذا أَعْدَدْتَها   أعددتَ شعباً طيب الأعراق

كانت المرأة شريكة فى حياة الرجل، فقد أوصى الأصمعىُّ من يريد الزواج بقوله: «إذا هممت بالزواج وأخذت فى الاختيار فإيَّاكَ أن يغلبك هواكَ على

عقلك، فتؤثر بريق الجمال العارى من الكمال على كريم الخلال، وشريف الخصال، فأنت إنما تختار شريكة العمر، وعشيرة الدهر، ولست تختار اليوم لتتحلَّلَ غداً، وإذاً فمن الخير تغليب العقل على الهوى. فمن صواب الرأى استعمال الأَنَاة والتَّؤدة إلى أن تظفر بذات الدين والخُلُق فتؤثرها بالاختيار على غيرها من سائر النساء. وفى ذلك السعادة الزوجية التى لا تكلفك من أمرها عُسْراً، ولا تطلب ما لا قُدْرَةَ لك عليه، ترضى بالمقسوم وتكون معك على الأيام، ولا تكون مع الأيام عليك. . لا تتشكَّى ولا تتسخَّط، إنْ وَجَدَتْ حَمِدَتْ، وإن لم تَجِدْ صَبرتْ. . تملأ دارها أمناً ورضًى واطمئناناً. . زوجها منها فى يسر ومسرة، وولدها معها فى خير. هى خير النساء جميعاً».

ويقول ابن عمر رضى الله عنهما: «النساء ثلاثة: هَيِّنَةٌ لَيِّنَةٌ مسلمة، تُعين أهلها على العيش ولا تعين العيش على أهلها. . والثانية: وعاء للولد، وَلُودٌ تنجب. . والثالثة: غُلٌّ يضعه الله فى عُنق من يشاء».

وسُئل خالد بن صفوان: أىّ الزوجات أفضل؟؟ قال: «التى تطيع زوجها، وتلزم بيتها. . إذا غضبتْ حلُمت، وإذا ضحكت تبسَّمت، وإن صنعت شيئاً جَوَّدَت، وإنْ قالَتْ صَدَقَتْ. . العزيزةُ فى قومها، الذليلة فى نفسها، الودود الولود التى كل أمرها محمود».

وقال بعض العرب: «إيَّاك وكُل امرأة كلامها وعيد، وصوتها شديد، تدفن الحسنات، وتُفشى السيئات. . تعين الزمان على بَعْلها، ولا تعين بعلها على الزمان. . ليس فى قلبها رأفة، ولا عليها منه مخافة، إنْ دَخَلَ خرجتْ، وإن خَرَجَ دَخَلَتْ. . إن ضحك بكت، وإنْ بكى ضحكت. . كثيرة الادِّعاء، قليلة الارعواء، تأكل لمًّا (أى: تأكل الطعام كله دون أن تترك منه شيئاً دون تفرقة بين حلاله وحرامه)، وتوسع الحمى ذمًّا. . صخوب غضوب، بذيَّة دنِيَّة. لا تطفأ نارها ولا يهدأ إعصارها. صبيُّها مهزولٌ، وبيتها مزبول (أى مملوء بالقمامة). . إنْ حدَّثَتْ تشير بالأصابع، وتبكى فى المجامع وهى ظالمة، وتشهد وهى غائبة».

وبعد: فإن هذا الكتاب يحوى بين دفّتيه موضوعات متعددة عن المرأة منذ

حواء أم البشر إلى المرأة فى عالمنا المعاصر.. ولم يغفل الكتاب تاريخ المرأة فى العالم الغربى والعالم العربى والإسلامى ـ قديماً وحديثاً ـ وذلك من بعض الجوانب الدينية والاجتماعية، والعادات والتقاليد التى كانت تخضع لها فى تلك الأزمنة، وتلك المجتمعات.

كما حلَّينا كتابنا هذا بالقصص التاريخية الواقعية التى لها صلة بالمرأة لتكون خير شاهد على ما نريد أن نقوله، ولتعرف المرأة من خلاله أن محرر المرأة بحق هو الذى رَفَعَ شأنها، وأعلى قَدْرها، كأم وأخت وعمَّة وخالة وزوجة وإنسانة... إنه سيدنا «محمد» ﷺ... لذلك نقول لكل أنثى اقرأى تاريخ هذا النبى العظيم وتعرَّفى من خلال حياته كيف أمر باحترام المرأة ورفع الضَّيْم عنها، ونَهَى عن الإساءة إليها.. ثم اقرأى ما كتبه المصلحون والمنادون بحرية المرأة.. إنكِ ستجدين أن الفرق كبير جداً بين ما قاله نبى الإسلام وطبَّقه، وبين ما يقوله هؤلاء، وسوف تتضح لك الحقيقة بأن سيدنا محمداً ﷺ هو الذى أنصف المرأة. فالعاقلة تسير على هَدْيه، لأن الذى خَلَّصَ حواء من الظلم والاضطهاد.. وهذا ما سوف نوضحه فيما بين يديك.

وإنى أضرع إلى الله أن يتقبل هذا العمل، وأن يرزقنا الإخلاص فى حياتنا، وأن يوفقنا إلى عمل الخير. إن ربى على ما يشاء قدير..

ربَّنا تَقَبَّلْ منا إنك أنت السميع العليم.

منصور الرفاعى عبيد

عضو اتحاد الكتاب

سراى القبة ـ القاهرة

فى شهر رمضان ١٤٢٠ هـ

الموافق شهر ديسمبر ١٩٩٩ م

هل صحيح أن تفاحة حواء
هي التي أخرجت آدم من الجنة؟

لحظة تأمُّل

وقفنا على حافة نهر نقلِّب النظر فيما حولنا: هذه الأرض قد غطى وجهها بساط أخضر جميل من نبات شَتَّى، وأشجار أثقلت أغصانها هذه الثمار المتنوعة. جو جميل بديع يسرُّ النفس، وتتمتع العين برؤيته، من منظر هذه الأزهار المتعددة الألوان، لقد صاغت يد القدرة الإلٰهية هذا المنظر الرائع الجميل وهذا الجو البديع، ليكون بهجة لعيون الناظرين، مما دفعنى لأجلس فأفكر، هذه الشمس التى كانت ترسل بأشعتها المحرقة ها هى الآن وقد قلَّت حرارتها، ثم ها هى ذى تختفى وراء الأفق بعد أن سبحت فى هذا الكون الواسع وسارت فى فلكها المحدد لها، وطريقها المرسوم، وكانت للكون مصباحاً منيراً، وسراجاً وهَّاجاً. . وإذا كانت الشمس قد أذنت بالغروب بعد أن أدَّت مهمتها، يكون هذا السؤال الذى يطرح نفسه، ويلح على الإنسان: أين تذهب الشمس فى الليل الطويل؟ ويكون الجواب، إنها لا تغيب، لأنها أدَّت رسالتها فى منطقة وهى ذاهبة إلى منطقة أخرى، تؤدى رسالتها المكلَّفة بها مِنَ الذى سَخَّرَها، وهو الله ـ جلَّ وعلا ـ خالق كل شىء.

إن الأرض التى نعيش عليها، وهى تلك الكتلة الضخمة العظيمة بما فيها من جبال وأنهار وسهول ووديان شاسعة مع تعدد القارات والبلدان، هذه الأرض محمولة فى الفضاء، سابحة فى ذلك الخِضَمِّ غير المتناهى، والشمس لا تغرب أبداً، فهى تغرب عن قوم من سكان الأرض لتشرق على سكان آخرين، والقرآن عندما تحدث عن غروب الشمس فلأنه شىء مُشاهَد لكل ناظر، فالشمس تشرق فى الصباح، وتغرب فى المساء، ويخيل للإنسان المُشاهِد أنها تختفى وتسقط فى

اللانهائى. ولكن الواقع غيرُ ذلك، فهنا نهار وهناك ليل، لأن الشمس كوكب يدور حول نفسه، وهكذا إن غابت عن قارات أشرقت على قارات أخرى.

وها هو ذا الكون بدأت تسرى فيه ظلمة الليل الخفيفة حتى لا ينزعج الشخص، ويستطيع أن يرتِّب أعماله، إنها ظلمة تتزايد شيئاً فشيئاً، حتى لا يضطرب الكون، لأن الانسجام بين الليل والنهار قائم على نسق عظيم، فالظلام يسرى سرياناً خفيفاً فى أول الليل، فى هذه اللحظات كان التأمل بالنظر، لتتجلى أمام الإنسان قدرة الله التى لا حدود لها، ولا يعجزها شىء، وبهذا المنظر الفريد تظهر النفس على حقيقتها، ويتحقق لها أن الله العظيم القادر هو الذى أبدع هذا الكون على نَسَق فريد غير مسبوق، واقرأ معى ما قاله الحق فى سورة النحل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

ليس من يواجه الحقيقة بذاتها ويعاينها بنفسه كمن يسمع بها من الآخرين.

إن المعرفة المتفجرة فى القلب لتجعل المرء يشهد على صفحات نفسه من آيات الجلال والجمال والعظمة والقدرة والإبداع والحكمة ما لا يستطيع أن يشهده لو قرأ آلاف الكتب ومئات المجلدات. إن النفس البشرية فى حالة التأمل تشهد فى علنها ما يؤثر فى نفسها، فتخر ساجدة لعظمة خالقها، خاضعة لجلاله وكبريائه، مُقرَّة بعظيم قدرته، وبالغ حكمته، وإبداع صنعه، فتبارك الله أحسن الخالقين.

إن هذا الكون يسير وفق قوانين محكمة، وسنن ثابتة، وكل ما فيه يشير إلى

دقة التنظيم، وإبداع التدبير، وإحكام الصنعة، إن الأرض التى نشاهدها عندما تغيب الشمس عنها، ويبدأ الليل يزحف عليها ليكون ستراً للناس، ولباساً فهذا من تدبير الله عَزَّ وجَلَّ، حتى تكون عند الإنسان فرصة ليمنح جسده راحة بعد عناء، وسكناً بعد حركة، ليحدث التوازن بين القوى الكامنة فى الإنسان، وليكون التزاوج بين الروح والجسد. والنوم فى الليل فيه استجمام للنفس، واسترجاع لما فقده الإنسان من الطاقة طوال النهار، لهذا قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ ﴾[1] والنوم هو صورة مصغرة من الموت، وانطلاق الروح فى حال النوم وسياحتها ورحلتها المنطلقة بعيداً عن الجسد هو أشبه بانطلاقها انطلاقاً مطلقاً بعد الموت، وارتحالها الأبدى فيما وراء المادة، وهذا ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾[2].

لقد كنت أتابع هذا المنظر البديع الخلاب الذى يبدو للعين عند غروب الشمس، لأنك تجد تناسق الألوان فى هذه التركيبة الفنية المتفردة التى لا يستطيع أى فنان ـ مهما أُوتِىَ من قوة الرسم بالريشة ـ أن يأتى بجزئيٍّ من الميون من هذا المنظر الرائع، الذى يقول لك مَنْ نظَّمه سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ﴾[3]، ويقول: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾[4].

ولقد رجعت ببصرى إلى جهة الشرق فرأيت هذا المنظر الجميل الذى صاغته يد القدرة الإلٰهية، فها هو ذا القمر بدأ يظهر متربِّعاً على بساط أزرق، تتلألأ حوله النجوم لامعات، تظهر وهى مختلفات فى الضوء واللمعان، منثورات هنا وهناك،

---

(١) سورة النبأ.
(٢) سورة الأنعام، الآية ٦٠.
(٣) سورة المُلك.
(٤) سورة «قٓ».

منظر رائع حُرِمَ منه مَنْ عاش فى نور الكهرباء، فحجبت عنه هذه الرؤية التى تنبّه فى الإنسان مشاعر الإحساس بالجمال فيتحلّى بالذوق والأدب، لأنه يعايش الجمال الطبيعى، الذى صاغته يد القدرة، وأبدعت هذا الانسجام فى الكون حتى يتذوق الإنسان هذا الجمال، فيجعله أسلوب حياة يتعايش مع غيره بجمال الروح، وهدوء الأعصاب، حتى يسرى الانسجام بين الكون والإنسان.

ولا شك أن الإنسان يأنس بالقمر، ويسرُّ به، خاصة عندما يكتمل فى الليلة الرابعة عشرة من الشهر. ومن جمال القمر وسحر منظره لم يجد صحابة رسول الله ﷺ غيره يستعيرون صورته ليصفوا به الرسول العظيم، والسيد الكريم، وذلك عندما استقبلوه عند قدومه للمدينة فقالوا:

طلع البَدْرُ علينا من ثنيّات الوداع
وجبَ الشكر علينا ما دعا لله داع

وإنك لتجد فى تقلُّب منظر القمر خلال الشهر الواحد ـ من هلال إلى بدر، ثم من بدر إلى هلال، ثم انمحاق، وظلام ـ تجد فى ذلك متعة للنفس، حيث يذكِّرنا بأيام الطفولة والشباب والشيخوخة والكهولة وانتهاء العمر. إن مشاعر الإنسان تكون مع القمر مرهفة، والعواطف جيَّاشة، حيث يسبح الإنسان فى جمال الكون، وينطلق فكره فى اللانهائى، وتسمو نفسه، وعندئذ يصحو القلب الغافل، وينتبه إلى يد القدرة وهى تنبِّهنا إلى العظمة فى الإبداع، فيقول لنا الحق سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾[1]. إن القمر مع كونه ضياء للسائرين، فهو مؤنس للذين أصابهم الأَرَق ولم يستطيعوا النوم لهموم تسيطر على نفوسهم، أو أمراض تؤرق أجسامهم، فإذا كانت الشمس سراجاً وهَّاجاً، فإن القمر يسطع بنوره اللطيف وشعاعه الهادئ، وفى ضوئه تستريح النفس وتهدأ، حيث يتطلع الإنسان إلى الراحة، وينشد الهدوء والطمأنينة.

فى هذا الجو الرائع الذى يعيش الإنسان فيه وهو يسبح بروحه لتتمتع بهذا

---

(١) سورة الذاريات.

الجمال الإلٰهى، وكأن الإنسان يشرب كأس الرضا والسعادة، سمعتُ صوتاً يقترب من مجلسى، حيث كنت قد أسندت ظهرى إلى شجرة عالية وفى مجلسى هذا لا ترانى العين، لأن الأشجار حجبت ضوء القمر عنى، فالتفتُّ فرأيت «فتى» و«فتاة» يهمس الفتى بكلمات لم أسمعها فى أُذن الفتاة، فتضحك، ولقد رأيتها سبحت بفكرها، وشردت بعقلها فى هذا المنظر الفريد، والفتى يصفِّق ويلوِّح بيده فى نشوة، والفتاة ليست معه بروحها، لأنها شاردة، فرفعتُ صوتى بقولى: «الحمد لله»، وقد انزعج الاثنان، لكنى عرفتهما، فأقبلا إلىَّ، وجلسا بجوارى، فقلت: «يا. . . أنت حَبِّيب؟». . فاستحيا ونظر إلى الأرض وقد بدا عليه الخجل، فقلت له: لا عليك، أَمَا سمعت قولَ الشاعر:

إذا أنتَ لم تعشقْ ولم تعرف الهَوَى فأنت وعِيرٌ فى الفلاة سواء؟

ولقد ظهر الحب العذرى فى الجزيرة العربية حتى ظهر هناك امرؤ القيس، وكُثَيِّر عَزَّة، وعمرو بن أبى ربيعة، وغيرهم كثير، حتى قال أحدهم فى تذكرة لحبيبته:

أُصَلِّى فلا أدرى إذا ما ذكرتُها أإثنين صليتُ العِشَا أم ثمانيا

لهذا يا بنى إن الحب ليس عيباً، لكن عليكَ أن تذكر لو أنك فى مكانى هذا ورأيت شابًّا مع أختك ماذا تفعل؟ على ضوء إجابك حَدِّدْ موقفك، المهم أن يكون غرضك شريفاً وتذهب إلى بيت حبيبتك، وتطرق الباب فيفتح لك، واعمل بتوصية الإسلام، حيث لا تنفرد بخطيبتك إلا بعد القران الشرعى، لأن البنت هى شرف الأب، وكرامة الأخ، وعز الخال، فلا تَخُنْ هؤلاء، ولا تلوِّثْ شرفَهم وتهدر كرامتهم، لأن أى شخص عندما يزوِّج أخته أو ابنته تجده من أسعد الناس، ولك أن تتأمل عندما يظهر الحمل على المرأة من زواج صحيح، تجد الأب سعيداً، والأم فَرِحة، والخال مبسوطاً، والفتاة نفسها تزهو وتفتخر بما تحمله فى أحشائها، أما إذا كان الحمل من سفاح، فالويل للأسرة، والقضاء على الفتاة، والعار لكل من يحيط بها.

وكنت أرقب الفتاة فإذا بجسدها يهتز، ودموعها تنهمر من عينيها، فاتجهتُ

إليها، وقلت لها: يا بنيتى، أنتِ تهوين هذا النوع من الممارسة الشبابية؟ قالت: لا، لكنه هو الذى أغوانى. قلت لها: لا تعلقى أخطاءك عليه، فأنت شريكته، بل أنت السبب. فازداد بكاؤها، فقال هو: إن الحب حلال، قلت له: «نعم لكنه الحب المؤسَّس على القيم الدينية والأخلاق الاجتماعية، والعادات البيئية، ولا شك أن هذا النوع من الخروج وحدكما فيه مخالفة للآداب الإسلامية، وفساد للأخلاق الاجتماعية، وإهدار للعادات البيئية، بدليل لو رآكما أحد من أهلها لقامت الدنيا ولم تقعد، حتى تُراقَ فى الطرق الدماء ويكون بالمستشفى البعض، وبالمقابر البعض. فتنهَّد الشاب وقال: الهوى هو السبب، فقلت له ما قاله الشاعر:

إن الهَـوَى لَهُـوَ الهـوان بعينـه فإذا هَوَيْتَ فقد لقيت هوانا

ثم قلت للفتاة: إن الإسلام رسم لكِ أفضلَ منهج لتفرحى بشبابك، وتهنئى بأيامك، وبَيَّنَ أن مرحلة الشباب أحسن مرحلة فى تاريخ الإنسان، ومَنْ حافظ على نفسه فى أيام شبابه سَعِدَ بصحته فى كبره، ومن ضَيَّعَ أيام شبابه هلك وأُصيب بالضياع.

وهنا انبرى الشاب وقال لى: إن المرأة هى السبب فى كل المصائب، فقلت له: لا، هذا فهم خاطئ، فقال الشاب: إن المرأة هى السبب، لأنها هى التى أغوت آدم، وزيَّنَتْ له الأكل من الشجرة، وكانت هى الساعد الأيمن لإبليس، فقلت له: هذا أيضاً فهم خاطئ. فقال: نحن نعلم أن أول معصية وقعت فى السماء كانت من إبليس عندما تكبَّر ولم يطع الأمر الإلٰهى. والمعصية الثانية هى من المرأة عندما أغوت آدم وزيَّنت له الأكل من الشجرة. والمعصية الثالثة كانت بسبب المرأة كذلك، لأن أول دم سُفك على الأرض كان بسببها، لهذا وصف الله كيد الشيطان بأنه ضعيف، أما كيد النساء فعظيم، وإلى هذا تشير الآية فى حق الشيطان: ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾[1]. وعن كيد النساء يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[2]. فقلت له: كيد الشيطان ضعيف لأن الله ينصر المؤمن

---

(١) سورة النساء.

(٢) سورة يوسف.

ويؤيده ويعينه على الشيطان، لأنه خَنَّاس، أما المرأة فهى تُعايشك، وتلحُّ على أذنك، وتغويك، فإن كان الإيمان قويًا تنتصر على غرائزك، وتحمى نفسك، وتتسلح بقوة الإرادة.. وتعالَ معى يا بنى لنزيد الأمور وضوحاً: ألا ترى معى أن الليل قارَبَ على الانتصاف، ونحن معنا جوهرة غالية يجب أن نعيدها إلى أهلها، فإن الله يأمر بأداء الأمانة إلى أصحابها. فقالت الفتاة: شكراً، قلت: لا شكر على واجب، لكن لى معكما عودة فى الغد، ولتكن الجلسة على المصطبة، لعل بعض الصحب يجلس معنا ونتحدث فى موضوع المرأة، وهل التى أغوت آدم حقًّا؟ أو هذا كلام لا أساس له؟.

وانطلقنا إلى القرية وقد أُغلقت أبواب المنازل، وقُفلت الشبابيك، وليس هناك من صوت إلا نقيق الضفادع أو نباح الكلاب يأتى من بعيد. وعند منزل أسرة الفتاة وجدت أمها تقف على باب المنزل ملهوفة، وعندما رأتها أقبلت عليها قائلة بلهفة: الحمد لله، أين كنت؟؟ قلتُ لها: جلسنا وطال بنا الحديث. فقالت الأم: سأقول لأبيها إنها كانت بصحبتك، وأنت الذى أوصلتها. قلت: نعم.

وفى اليوم التالى بعد أن فرغ الناس من صلاة العشاء تحلقنا على المصطبة التى تقع أمام المسجد فى ميدان فسيح، وجاء جَمْعٌ من الشباب، همس أحدهم فى أُذن الآخر ببعض الأُطروحات، فقلت لهم: دعونا من هذه الأُطروحات وتعالوا نتحدث فى شىء مهم يؤصل فينا المعارف العلمية، وينمِّى القيم الأخلاقية، لأن الفرد منا قيمته فيما يتعلمه ويعلِّمه، فالعائلة الحقيقية للفرد هى علمه، والأُسرة هى على قدر ما تعرف من علم، لأن الناس مَوْتَى وأهل العلم أحياء، وقد قيل:

بالعلم والمال يبنى الناس مُلْكَهُمُو لـم يُبْـنَ مُلْـكٌ على جهـلٍ وإقـلال

وكما تحرص على العلم واكتسابه وتحصيله فيجب عليك أيضاً أن تتمسك بالمروءة والشهامة، والكرم والعفو، والتسامح والتعاون، والأخلاق الحسنة النبيلة، وتأمَّل قول الشاعر:

وإنما الأُمَمُ الأخلاقُ ما بقيتْ فإنْ هُمُو ذهبت أخلاقُهم ذهبوا

وآخر يقول:

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم   فـأَقِـمْ عليهـم مـأتمـاً وعـويـلا

فانبرى الشخص الذى كان معى أمس وقال: يا شيخنا، لقد دعوت الصحب لنتحدث معاً عن قضية المرأة، وخاصة أنها سبب شقاء المجتمع الإنسانى ومصدر تعاسته، ذلك لأنها هى التى أغوت آدم بالأكل من الشجرة التى نَهَى الله عن الأكل منها، عندما أسكنهما الجنة، وأصبحت البشرية منذ هذا الإغواء وهى تعانى من الشر والانقسام فى الرأى، والتشتُّت الفكرى، والأصل فى ذلك والسبب هو إغواء حواء لآدم، وتزيين الخطأ له، حتى وقع فى المحظور وحدث ما كان، وما هو قائم، ولهذا نجد أن أى مشكلة تقع فى المجتمع الإنسانى يقولون: «فتش عن المرأة»، فهى سبب النكد والهمّ والمشاجرات، والسبب «تفاحة حواء». فقال آخر: نعم صحيح.. تفاحة حواء هى التى أخرجت آدم من الجنة.

فرفعت صوتى وقلت: كفى ذلك وتعالوا نتدارس القضية لنستبين الحقيقة أمامنا، إننا ـ والحمد لله ـ من المسلمين الموحِّدين، وعندنا كتاب مقدس طاهر لا تحريف فيه، ولا اضطراب فى آياته، ولا غموض فى معانيه، وإنما القرآن الكريم كتاب يسَّره الله للقارئين، فماذا يقول القرآن عن قضية آدم وحواء؟ ومن أجل الوصول إلى الحقيقة الناصعة التى لا غموض فيها لا بد إذن من أن نرجع إلى القرآن، نستلهم آياته ونتعرف على الحقيقة.

البـدايـة

هذا الكون الذى نعيش فيه كيف خُلِق؟ وماذا كان قبل ذلك؟ من المعلوم أنه كان الله ولا شىء معه، لأن الله سبحانه وتعالى هو الأول بلا ابتداء، ولهذا فهو صاحب الأمر، وهو القادر على كل شىء، لهذا فإننا نؤمن بأن الله بقدرته وإرادته وعِلْمه خلق الأرض فى يومين، ثم قَدَّرَ لكل كائن حىّ رزقه، وقدَّر ذلك بموازين دقيقة، ثم خلق الجبال والأنهار، ونظم على ذلك كميات الهواء، وما يحمله من الأوكسجين، وقدَّره تقديراً، لأنه لو زادت نسبة الأوكسجين عن مُعدِّلها المضبوط لاحترق الأحياء، ولو نقصت كميته ونسبته لاختنق الناسُ، وكُلُّ ما على ظَهْر

الأرض، وقد قَدَّر ذلك فى يومين، فتكون الأرض بما عليها وما فى باطنها مما ينتفع الناس به فى معاشهم، ويسهِّل لهم الحياة بكل ما يحتاجون إليه من حيوان، وزرع، ومياه، وهواء، وكل ما يصلح للانتفاع به، خلقه الله تعالى فى أربعة أيام، والأيام هى من أيام الله، وما يحويها ذلك الوجود، لأنه لكل ذلك زمن معلوم تتم فيه دورته، وتلك الدورة هى يوم، فإذا قلنا إن الله سبحانه، وله العظمة والمجد، خَلَقَ الأرض ثم قَدَّرَ فيها أقواتها فى أربعة أيام، فلا يعلم إلا الله قدر هذه الأيام، ثم بعد أن تهيأت الأرض لاستقبال الحياة عليها، نظر الحق سبحانه إلى السماء، وكانت السماء عندئذٍ دخاناً، فتماسكت بقدرة الله وإرادته، فقال الحق عندئذٍ بعد أن استوت السماء وأصبحت كالسقف للأرض والغطاء عليها، وبعد أن تماسكت السماء وأصبحت كأنها بناء لا ينفكّ وأصبحت بقدرته تعالى سبع سمٰوات رتَّب فى كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وعددهم، وما فيها من أشياء لا يعلمها إلا العليم الحكيم، بعد ذلك قال الله للسمٰوات والأرض ستطيعان أمرى رغبة منكما أو رغماً عنكما. قالتا: أتيناك طائعين منقادين لأمرك، فَلَكَ الأمرُ وعلينا الطاعة، وأنت القوى الكبير المتعال.

فأمر الله السماءَ الدنيا التى يراها أهل الأرض أن تتزين بمصابيح: الشمس، والقمر، والنجوم، وكل الكواكب المنيرة المشرقة لأهل الأرض، وقال للأرض: شُقِّى أنهارك، وأَخْرِجى ثمارك. قال الحسن البصرى: «إن السماء والأرض لو أَبَيا أمر الله ولم يستجيبا لَعَذَّبَهُما عذاباً أليماً يجدان ألمه، لأنه سبحانه خاطَبهما مخاطبة مَنْ يعقل». ثم بعد أن اكتلمت السمٰوات سبعاً ومن الأرض مثلهن، عرض الحق سبحانه على السمٰوات والأراضين تصريف شئونهن بإرادتهم، فأَبَيْنَ ذلك وأَسْلَمْنَ الأمر لله، فهو سبحانه المحيط بكل شىء، القادر على كل شىء، نقرأ ذلك فى القرآن الكريم فى قول الحق سبحانه: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ

وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾[1]. وكذلك قوله: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[2]. وكذلك قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[3].

وأريد أن أوضح لكم شيئاً مهمًّا يا أبنائى: هذه النجوم التى زينت بها السماء الأولى، مع أنها زينة للسماء فهى للإنسان استرشاد يهتدى بها فى الظلام وهو يسير بالبواخر فى البحار، ويمشى بين الجبال فى الصحراء، أو يطير فى الهواء على متن الطائرات، فيقول الله تعالى: ﴿ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[4]، ويقول سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾[5]. ثم إن الحق سبحانه وتعالى اقتضت مشيئته فخلق الملائكة من نور وجعلهم أجساماً نورانية لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون، يُسبِّحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون به من تكاليف يُكلَّفون بها من قِبَلِ الحق، وقد أسكنهم السمٰوات، وكُلٌّ على حسب مكانه المخصص له، ولهم فى السماء السابعة البيت المعمور يشبه البيت الحرام على الأرض يحجّون إليه ويطوفون به ليروا عظمة الله وبهاءه وجماله وقدرته وإرادته.

وإذا كانت الملائكة مسكنها السماء فإنه سبحانه خلق الجانَّ من نار السموم، وجعل مساكنهم فى الوديان والجبال وشواطئ البحار والأنهار، والأماكن الخربة. ثم اقتضت حكمته أن يخلق الإنسان، فأرسل مَلَكاً إلى الأرض، فقبض قبضة منها شَكَّلَ منها الإنسان، فجاء بَنُو آدم من جنس الأرض، منها السهل ومنها الحَزَن، منها الطيب ومنها الصعب، فلما خلق الله آدم وصَوَّر جسمه كان هذا الهيكل من تراب، ثم نفخ فيه من روحه، وبهذه الروح صار الإنسان إنساناً مكوّناً من شيئين،

---

(١) سورة فُصّلت.
(٢) سورة الحِجْر.
(٣) سورة الأحزاب.
(٤) سورة النحل.
(٥) سورة الأنعام، الآية ٩٧.

جسد من تراب، وروح من الله سبحانه، فمن ناحية الجسد يحن الإنسان إلى الأرض لأنها أصله، وهو من ترابها، وسوف يرجع الإنسان بجسده إلى الأرض، لأنها أمه انفصل عنها، ولا بد للجزء أن يعود يوماً إلى كُلِّه الذى انفصل عنه، ثم يعود مرة أخرى للحساب والجزاء، ثم الخلود، إمَّا فى جنة وإما فى نار، وصدق الله العظيم إذْ يقول: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾[1]. ويقول فى حق الخلود الأبدى بعد القيام من القبور والحساب: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾[2].

ولما اكتمل تصوير الإنسان وسُوِّىَ على أجمل صورة وأحسن هيئة نَفَخَ الله فى هذا الجسد من روحه، وبهذه النفخة نَوَّرَ باطنه وأَذْهَبَ عنه حمأة الطين وظُلمته، ثم جمع الله ملائكته ـ وكان معهم إبليس زعيم الجان ورئيسهم ـ فقال لهعم جميعاً: انظروا هذا خلقى الذى سيكون خليفة عنى فى الأرض، لأن مشيئتى اقتضت أن يكون هذا هو خليفتى فى الأرض. فقالت الملائكة: «إلٰهنا وسيدنا، أتجعل فى الأرض مَنْ يُفسد فيها ويسفك الدماء؟»، وهذا الاستفهام إنما جاء عن شىء سَبَقَ لهم معرفته، لأن البعض يقول إنه كان يسكن الأرض الجن، وقد أفسدوا فى الأرض، فأرسل الله إليهم جماعة من الملائكة أبادوهم، وأن الشيطان انضم إلى الملائكة، فلما صدت الملائكة إلى الملأ الأعلى صحبهم إبليس وأصبح يقلدهم فى العبادة، لكن الطبع يغلب التطبع، ولم يستطيع إبليس أن يبعد عنه الشر وأن يكون كالملائكة، لذلك عندما جمع الله الملائكة حضر فى صحبتهم، فلما استفهموا كان الرد عليهم من رب العزة: ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[3]، أى إنه سبق فى علمى أن

---

(١) سورة طه.

(٢) سورة البيِّنة.

(٣) سورة البقرة.

هذا الإنسان سيكون له شأن، حيث يعمِّر الأرض ويستخرج ما فى بطنها، ويكون هذا من دلائل قدرتى وإظهار مشيئتى، حيث إن الكون بما حَوَى، تحت أمرى يسير حسبما أريد، وليس معى إله آخر، فأنا الواحد الأحد، القوى الكبير المتعال، إذا أردتُ شيئاً أقول له «كن» فيكون.

وهنا استجابت الملائكة ووقفت تنتظر نفخ الروح فى هذا الإنسان، فلما نفخ الله فيه تَثاءَبَ، فعلَّمه الله أن يلقى السلام على الملائكة، فلما سلَّم ردوا عليه السلام، فقيل له: هذه تحيتك وتحية بَنِيكَ مِنْ بعدك. ولما اكتمل آدم عَلَّمَهُ الله أسماءَ الأشياء، كالشجر، والشمس، والقمر، والنجوم، وبعض مظاهر الكون البارزة أمام آدم والملائكة، ثم قال الله للملائكة: أنبئونى بأسماء هذه الأشياء. قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علَّمتنا إنك أنت العليم الحكيم. ثم وجَّه الله الخطاب إلى آدم وقال: أنبئهم بأسماء هذه الأشياء. فقال: هذه شجرة كذا، وهذه الشمس، وهذا القمر، وتلك النجوم، وبدأ يعدِّد ما هو مُتاح لرؤيته. فقال الله للملائكة: ألم أَقُلْ لكم إنى أعلم غيب السمٰوات والأرض، وما فيهما وما بينهما، وما تحت الثرى، وكل شىء فى الوجود عندى عِلْمُه وخبره.

تقرأ هذا فى كتابه الكريم حيث يقول: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1]. ثم قال الله للملائكة: ها هو ذا آدم قد اكتمل أماكم، وأخبركم بأسماء الأشياء التى لم تستطيعوا معرفتها كما عرفها هو، إذن فَقَعُوا له ساجدين. والسجود هنا ليس سجود عبادة، وإنما هو تحية وتقدير لشخصه، لأنه دليل على قُدرة الله وإبداعه، يقول الله تعالى مبيناً ذلك:

---

(١) سورة البقرة.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[1]، فقال الله لإبليس: لماذا لم تسجد وأنا الذى خَلَقْتُ هذا بيدى وقدرتي؟ كان رد إبليس أسوأ ردّ، نقرأ هذا فى قول الله تعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾[2].

واستمر إبليس فى تعنُّته وتكبُّره، يقول إبليس لله: سوف ترى أن آدم الذى كرَّمته وأمرت الملائكة أن تحييه وتحترمه، سوف أستولى عليه وأغويه وأجعله وذريته معى. يقول الله سبحانه وتعالى مبيناً قول إبليس كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾[3]. وقال الحق سبحانه وهو يبين لنا ما قاله الشيطان بعد طرده من الملأ الأعلى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[4].

وهكذا نستخلص من هذا الحوار الذى دار فى الملأ الأعلى وانتهى بطرد الشيطان لينزل إلى الأرض، ويعيش فى وديانها، وعلى شواطئ الأنهار، وفى الأماكن الخربة، وفى نفس الوقت هو مطرود من رحمة الله، إلاَّ مَنْ آمن من ذريته، كما حدث مع سيدنا محمد ﷺ عندما صرف الله إليه نفراً من الجن واستمعوه وهو يقرأ القرآن فآمنوا برسالته، واعترفوا بأن القرآن يهدى للتى هى أقوم، بل دَعُوا قومهم كذلك إلى الإيمان به.. نقرأ فى هذا سورة الجن بأكملها. ثم ما قاله الحق جلَّ وعلا فى سورة الأحقاف: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟

---

(١) سورة البقرة.
(٢) سورة «صٓ».
(٣) سورة الإسراء.
(٤) سورة «صٓ».

بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾[1].

من نفس واحدة

آدم هو أبو البشر، وعندما وجَّه الله الأمر للملائكة بالسجود لآدم وحدث ما حدث من إبليس لم يكن هناك أحد يشهد هذا الحَدَث وما دار فيه، إلاَّ من حَدَّثَنا الله عنهم، ولم يشهد وقائع هذه الأحداث أحد، بل الحق سبحانه هو الذى أخبرنا وقصَّ ذلك فى القرآن، وأنت عندما تقرؤه كأنك تشاهد ما كان، وترى بنور بصيرتك الملائكة وهم يسجدون لآدم سجود تحية، كما أشار الحق إلى إخوة يوسف وأبويه عندما دخلوا عليه فى مصر وهو على كرسى الرئاسة، وقصَّ الله علينا ما حدث فقال: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾[2]. ثم يقول الحق: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾[3]. ويقول الحق سبحانه: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾[4].

وفى سياق الأحداث التى حدثت من خلق آدم وتصويره، ونفخ الروح وتعليمه الأسماء، وردّه على الملائكة بأنْ أنبأهم بأسمائهم، لم ترد الإشارة إلى حواء «زوج آدم» لا تلميحاً ولا تصريحاً، ولكن جاء ذكر زوج آدم عندما أمره الله أن يسكن الجنة ويدخلها مع زوجه، يقول الله فى بيان هذا: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾[5].

---

(١) سورة الأحقاف.

(٢) سورة يوسف، الآيتان ٩٩ ـ ١٠٠.

(٣) سورة يوسف، الآية ١٠٢.

(٤) سورة «صّ».

(٥) سورة البقرة.

كما جاء في سورة الأعراف: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[1] فيدل ذلك على أن آدم خُلق أولاً ثم خُلقت حواء وسكنت معه الجنة، وأن التوجيه والإرشاد وُجِّه إليهما معاً ألّا يقربا شجرةً حدَّد الله لهما مكانها وصفتها، لكن الشيطان كان يترصد لآدم وحواء، لأنه يشعر ـ بعد طرده من رحمة الله وغضبه عليه ـ أن ذلك كان بسبب آدم، لذلك أضمر الشيطان العداوة لآدم وحواء وذريتهما ومن يتناسل منهما، وإلى هذا أشار الحق، مبيناً هذه العداوة وتأصُّلها في نفس الشيطان الملعون عندما قال: ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾[2]. ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾[3].

ويقول سبحانه: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[4].

كل هذا يبيِّن لنا عداوة الشيطان لآدم، وأنه يتربص لنا ويغوينا ليبعدنا عن طريق الحق والعدل والجمال، ويقودنا إلى طريق الغواية والهلاك والفساد. ولما كانت حواء مخلوقة من ضلع آدم والضلع بطبيعته فيه اعوجاج، لذلك نشأ فيها تعقيد طبيعي، لكنها خُلقت من الضلع لتكون مصدر حنان وعطف على الرجل،

---

(١) سورة الأعراف.

(٢) سورة النساء.

(٣) سورة فاطر.

(٤) سورة الأعراف.

كما أن الأضلاع تحنو على الصدر فتحمى القلب، وهذه حكمة تدق على الأفهام ونحن لا نستطيع التوصل إلى مغزاها، لكن يُفهم من سياق الآية: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[1]. ويقول الرسول ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخِرِ فلا يُؤْذِ جارَه، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خُلِقْنَ من ضلع أعوج، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه، فإنْ ذَهَبْتَ تُقيمه كَسَرْتَه، وإن تركته لم يزل أعْوَجَ، فاستوصوا بالنساء خيراً»[2]. نعم، إن المرأة خُلقت من ضلع آدم والضلع فيه اعوجاج، وتلك حكمة الله.

إن المرأة فى ذلك لا ذَنْبَ لها، حيث خلقها الله من ضلع آدم، وهى بدورها ـ وفى مراحل التاريخ ـ تتعقد طبيعتها، فكانت تتمرد، ولكن فى أشكال الدلال والمكر، فلا يتماسك الرجل أمامها، فتخمد عزيمته، فتتدخَّل هى فى شئونه، لهذا كانتِ عندما تحين لها الفرصة تُتَوَّجُ ملكة ـ مثل بلقيس، وحتشبسوت، ونفرتيتى، وشجرة الدر، إلى غير ذلك ممن لهن فى التاريخ ذكر وخبر ـ لكن لا تنسى أن المرأة نشأت تحت سيطرة الرجل وغطرسته، يطوف بها حيثما أراد، ويلقى عليها كل الواجبات فى الحقل والمنزل، علاوة على الحمل والإرضاع ورعاية المولود، ثم لا يعترف لها بعد ذلك بحق، لكن عندما جاء عصر الاستقرار تمثَّلت زعامة الرجل فى الاستحواذ عليها والاستئثار بها، وكان أحياناً يحتقرها هى وأولادها ويتَّخذهم عبيداً، وهذا الأمر ما زال سائداً فى بعض الجهات الاستوائية وجبال الهملايا.

مَنِ السبب؟

سكن آدم ومعه زوجته الجنة، لكن الشيطان الذى حُرِمَ منها وطُرد من رحمة الله وأحاطت به خطيئته، كان يترصد لآدم وزوجته ليغويهما حتى يخرجا من الجنة، وحتى يكون صراع يؤدى الشيطان فيه دوره لعله يصل إلى هدفه وغايته من إضلال

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٨٩.

(٢) حديث متفق عليه.

آدم وذريته، لذلك تحايَلَ حتى دخل الجنة، ووسوس لهما بأن الله ما منعهما من الأكل من الشجرة إلا ليبعدهما عن أمرين، أولهما: أن يكونا مَلَكَيْن، وكان يُهيّج فيهما عاطفة هما فى حاجة إليها، لأن المَلَك فى طاعة الله ومسكنه السماء، فكان الشيطان يوسوس لآدم وزوجته بهذا الموضوع حتى يأكلا من الشجرة. الأمر الثانى: الخلود، فمن أكل من هذه الشجرة لا يموت أبداً ويبقى مُخَلَّداً، وهذه عاطفة تميل إليها النفس، لأن الموت له مذاق كله آلام، لذلك وسوس الشيطان بهذا، وإلى هذا يشير الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾[1].

إن المؤمن صافى النفس نقى القلب إذا أقسم عليه أحد بالله خدعه، لذلك خُدع آدم وزوجته فى الشيطان عندما أقسم لهما بالله أنه صادق، ووقع المحظور، يقول الله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾[2]. وباستعراض الآيات من القرآن الكريم، لأنه أصدق كتاب وأوثق مصدر، فليس هناك من هو أصدق من الله حديثاً، لهذا نؤمن بما جاء فيه ونقبله ولا نتردد فيه، لأنه الوحى المُنَزَّل من عند الله بواسطة أمين الوحى جبريل على نبى عظيم، لم يقل فيه كلمة من عند نفسه، ولم يزد آية فيه، وإنما بلَّغ ما نزل عليه من رب العالمين، لهذا كل ما جاء عن قصة آدم وغيره حق وواقع وصدق، ويجب الإيمان به، لأنه من عند رب العالمين. إن الشيطان وسوس لهما فَمَنْ أَغْرَى مَنْ؟ لم يبيِّن القرآن ذلك، وإنما جاءت روايات إسرائيلية تتَّهم حواء، من ذلك ما ذكره الإمام القرطبى فى كتابه «الجامع لأحكام القرآن» رواية ساقها مُرْسَلَةٌ من غير إسناد عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[3]، وهى عن وهب بن منبه، قال: «إن إبليس دخل الجنة فى

---

(١) سورة الأعراف.

(٢) سورة البقرة، الآية ٣٦.

(٣) سورة البقرة، الآية ٣٥.

فم حية وهى ذات أربع، وكانت من أحسن الدواب التى خلقها الله، وكان إبليس قد عرض نفسه على كثير غيرها من الحيوان فلم يدخله الجنة إلا الحية، فلما دخلت به الجنة خرج إبليس من جوفها، فأخذ من الشجرة التى نَهَى الله آدم وزوجته عنها، فجاء إلى حواء وقال لها: انظرى إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها وطعمها! وما أحسن لونها! فلم يزل يغويها حتى أخذتها فأكلتها، ثم أغوت آدم بأن قالت له حواء: كُلْ، فإنى أكلتُ فلم يضرنى. فأَكَلَ منها، ودخل آدم فى جوف الشجرة، فناداه ربه: أين أنت؟ ألا تخرج؟ قال: أستحى منك يا رب! قال: اهبط إلى الأرض التى خلقتُك منها، ولعنتُ الحية وجعلتُ العداوة بينها وبين بنى آدم. ولذلك أُمِرْنا بقتلها. وقيل لحواء: كما أدميتِ الشجرة فكذلك يصيبك الدم كل شهر وتحميلن وتضعين كرهاً تشرفين به على الموت».

هذا ما ساقه القرطبى، وعندما نحلِّل هذا النص يتبين الخلل واضحاً فيه، لأنه ينسب إلى الله عدم معرفته مكان آدم، ولذلك سأله عن مكانه، وهذا لا يليق أبداً، فالله سبحانه لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، لكن هكذا يحب اليهود دائماً أن يغمزوا ويلمزوا، فهم القائلون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[1]، كما جاء ذلك فى القرآن الكريم حكاية عنهم، وقالوا كذلك: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[2]، وقد لعنهم الله بسبب افتراءاتهم وتمرُّدهم على الحق.

ثم قال القائلون: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[3]، وهم يعلمون كغيرهم أن الله ما اتَّخذ ولداً، وما كان له شريك فى المُلك، ولم يتَّخذ صاحبة، فأنَّى يكون له الولد؟ لكنهم قتلة الأنبياء، ولصوص الفضيلة، وأساتذة الإجرام الدينى والدنيوى، لهذا نكَّل الله بهم فى الدنيا وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَة الطاغوت، وأضلَّهم، وبسبب كفرهم وعنادهم تاهوا فى الأرض أربعين سنة، وكانوا من أحطِّ الناس، فلا

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨١.

(٢) سورة المائدة، الآية ٦٤.

(٣) سورة المائدة، الآية ١٨.

يستبعد منهم أن يقولوا ما قالوا، حتى إنهم قالوا فى «مريم» إثماً عظيماً، وهى الطاهرة العفيفة، لكن اليهود طبعهم التزييف والتحريف.

لهذا لا يستبعد أن يقولوا على حواء ظلماً وبهتاناً بأنها هى التى أغوت آدم، لذلك قالوا: إن أول من أكل من الشجرة حواء بإغواء إبليس إيَّاها، وإن أول كلامه كان معها، لذلك وسوست لآدم حتى أكل من الشجرة، فلُقِّبت حواء بعد ذلك «بوسواس المخدّة»، وإن أول فتنة دخلت على الرجال من النساء، حيث إن إبليس قال لها: «ما منعكما ربكما عن هذه الشجرة إلا لأنها شجرة الخلد»، أى مَنْ أكل منها يخلد ولا يموت، فآتاها من حيث تحب، وحُبُّكَ الشيءَ يُعْمِى ويصمّ، فلما قالت حواء لآدم ذلك أنكر عليها، وذكَّرها بالعهد، لكن إبليس ألَحَّ علىها، وهى ألَحّتْ على آدم، إلى أن قالت له: أنا آكل قبلك حتى إذا أصابنى شىء سلمت أنت، فأكلت فلم يضرها شىء، فأتت آدم فقالت له: «كُلْ، فإنى أكلت فلم يضرنى شىء»، فأكل فبدت لهما سوآتهما حيث اقترفا الذنب.

هذا ما ردَّده الإسرائيليون وكتبوه فى كتبهم وسجَّلوه بأيديهم، لكن حديث القرآن يكذِّب مزاعمهم، ويردّ إفْكَهُم، فقد أخبرنا القرآن أن الله عَهِدَ إلى آدم فنسى، ومن فضل الله علينا أن رفع عنا الحَرَجَ إذا نسينا، لأن الإنسان سُمِّىَ إنساناً لنسيانه، إذ النسيان من طبعه، وقد علَّمنا ربنا أن نقول هذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[1]. إن القرآن يؤكد على أن آدم أكل من الشجرة بوسوسة الشيطان وإغوائه، يقول ربنا: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾[2]. بل يوضح القرآن أن الوسوسة كانت لآدم وليست لحواء، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾[3]. وإذا كان النسيان من آدم وأنه قبل وسوسة الشيطان فإن ذلك تمّ قبل أن يكون نبياً، لذلك قال الله مبيِّناً أنه سبحانه قَبِلَ توبته عندما ندم على فعلته وأعلن

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

(٢) سورة طه.

(٣) سورة طه.

توبته لله الذى قال لنا: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾[1]. لكن هل يُعَدُّ النسيان معصية من آدم؟ قال بعض العلماء: كان العصيان من آدم قبل النبوة، ثم كان الاجتباء والهداية، وإذا كانت المعصية قبل النبوّة فذلك من الصغائر، وجائز وقوع الصغائر من الأنبياء قبل نزول الرسالة عليهم، لأنه قبل النبوّة لا شَرْعَ علينا فى تصديقهم، فإذا بعثهم الله تعالى إلى خلقه كانوا مأمورين بالأداء، معصومين، ولم يضرهم ما سلف من صغائر الذنوب.

ولقد أخبرنا الحق سبحانه أن مثل هذه الأمور حدثت من أنبياء، وأن الله قد تجاوز عنها بفضله وإحسانه، من ذلك ما حدث من موسى عليه السلام، ونقرأ ذلك فى الحوار الذى بين موسى وفرعون، قال فرعون لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٩﴾[2]، وفرعون يريد أن يوقع موسى فى الحَرَج ويعلن على الدنيا أن هذا الذى يدعو للإيمان هو قاتل وكافر بنعمة فرعون التى أسبغها على موسى من قبل، فكان رد موسى أن اعترف بما كان منه، فقال لفرعون: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾[3].

إن موسى اعترف بأنَّ ما حدث منه كان قبل نزول الرسالة عليه، وأن الله غفر له ومنحه شرف حمل الرسالة وتبليغها، وأنه لم يكفر بنعمة فرعون وإنّ ما أخذه موسى هو جزء من ملايين الأجزاء التى أخذها فرعون من بنى إسرائيل عندما استعبدهم واستغلَّهم فى منافعه ومزارعه. لهذا فإن ما حدث من آدم وغيره من الأنبياء قبل الرسالة أشياء معفوّ عنها، لأن الله أعلم حيث يجعل رسالته، فهو يصطفى لها الأطهار الأخيار والأتقياء الأصفياء. هذا ولقد روى الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «**احتجَّ آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم، أنت أبونا خيَّبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال آدم: يا موسى، اصطفاك الله عز**

---

(١) سورة طه.

(٢) سورة الشعراء.

(٣) سورة الشعراء.

وجل بكلامه، أتلومنى على أمر قَدَّرَهُ الله عليَّ قبل أن يخلقني؟ فحجَّ آدم موسى»».

قال شُرَّاح الحديث: غلبه بالحجة، وإنما صحَّت الحُجَّة لآدم على موسى عليهما السلام من أجل أن الله قد غفر لآدم خطيئته وتاب عليه، فلم يكن لموسى أن يعيره بخطيئة قد غفرها الله، ثم إن الحكمة فى إخراج آدم من الجنة إنما هى لعمارة الكون، حيث أخبر الله سبحانه الملائكة - على جهة الإعلام - أنه سيخلق آدم ويجعله فى الأرض خليفة، لكن الحكمة أن الله جعل لكل شىء سبباً، وذلك مكتوب على آدم قبل أن يُخلق.

إن الإنصاف العلمى والبحث المتأنى يجعلنا نقرر أن الله - جلَّت حكمته - اقتضت مشيئته أن يخلق آدم لغاية عظيمة، هى أن يسكنه الأرض ليعمِّرها، حيث يستخلفه فيها ليستخرج كنوزها، وتظهر قدرة الله ومشيئته من خلق آدم وتفضيله على كثير من خلقه، وإذا كان قد حدث ما حدث فإن الأم حواء بريئة، ولا نسير مع ما ردَّده الإسرائيليون حيث لم يقم دليل على ذلك. كما أن آدم نَسِيَ وقد عفا الله عن النسيان الذى يقع من الشخص، وأن ما وقع من الأنبياء إنما ذلك قبل أن يُكلَّفوا بالرسالة، وأنها أخطاء غير مقصودة، لأن الأنبياء معصومون، فلهم العصمة والمنزلة السامية والمكانة العالية، لأنهم نماذج طيبة، وعناصر صالحة، ولأنهم قدوة للبشرية، ودعاة إلى كل خير، وحُماة الفضيلة، لأن الله اختارهم لحمل وحيه وتبليغه إلى الناس، والله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، فهم صفوة الخَلْق، وهُداة البشر إلى مكارم الأخلاق العالية، ومحاسن الصفات الكريمة، وآدم أبو البشر، وحواء زوجته أُمّ البشرية.

إن الحقائق المؤكدة من قِبَلِ وحى الله سبحانه وتعالى لَتَدُلُّ دلالة أكيدة على:

١ - أن الله سبحانه أخبر الملائكة أنه سيجعل فى الأرض خليفة هو «آدم».

٢ - أن الله سبحانه وتعالى خلق حواء من آدم لتحقيق الخلافة فى الأرض، وليجعل منهما الذرية والنسل، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ

رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾[1]. وفى قوله سبحانه: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾[2].

٣ ـ أسكن الله آدم وحواء الجنة، وهى مكان فيه نعيم ورزق وخير كثير، ومن باب الاختبار نهاهما عن الأكل من شجرة معينة، وهذا من باب التدريب والتعرُّف على قوة العزيمة، ويقظة الضمير، وصحوة الإرادة، ليكون الإنسان منتبهاً يقظاً، فكان هذا التدريب.

٤ ـ هناك صراع بين آدم رمز الخير، والشيطان رمز الشر، وقد تحايل الشيطان حتى دخل على آدم وحواء فى مكان النعيم والترف والراحة والهدوء.

٥ ـ أقسم إبليس ـ وهو الشيطان رمز الشر ـ لآدم أنه ناصح أمين، ومن أقسم علينا بالله خدعنا، لذلك خدع آدم وانخدع، لأنه يعرف أن القَسَم بالله شىء عظيم، وعندما سمع القَسَم نسى العهد، وذلك حتى تتحقق مشيئة الله، لينزل آدم إلى الأرض يعمِّرها ويشقى فى رحابها بالعمل والتعب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾[3]. والحق سبحانه خلق آدم ذلك، حيث قال: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾[4].

٦ ـ حواء مع آدم، وهى تعمل كما يعمل، وآدم عندما نسى العهد كما جاء النص صريحاً بذلك فى قول الله: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾[5] أَكَلَ من الشجرة، وهذا النسيان لا يُقلِّل من قَدْر آدم أبداً، لأنه إذا جاء القَدَرُ عَمِىَ البصرُ، فآدم سمع القَسَم من الشيطان فخُدع بهذا القَسَم، ثم هناك حكمة إلٰهية مِنْ خلق آدم، وهى الاستخلاف فى الأرض. إن الإنسان عليه أن يسعى

---

(١) سورة النساء، الآية ١.
(٢) سورة الأعراف.
(٣) سورة الانشقاق.
(٤) سورة البقرة، الآية ٣٠.
(٥) سورة طٰه.

ويتخذ كافة الأسباب التى توصل إلى نجاحه فى عمله، فإذا كانت النتائج لا ترضى الإنسان فعليه أن يرضى ويفوض أمره لله الذى لا يُضيع أجر مَنْ أحسن عملًا، والشخص يردد: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾[1].

٧ ـ أن تفاحة حواء هى التى أخرجت آدم من الجنة مقولة لا أساس لها من الصحة، وكذلك المقولة التى تُقال فى كل مصيبة تقع: «فتِّش عن المرأة»، فهى لا إرادة لها فيما يقع بين الناس، فالرجل شريك فى التخطيط والتنفيذ كالمرأة تماماً، تخطط وتنفذ ما دام الجو مهيئاً أمامها، والتربية لم تصقل نفسها، إن المجتمع بعقلائه عليه أن يخطط لنجاح المجتمع بجناحيه: «الرجل والمرأة»، فهما أمام المسئولية الدينية سواء، وأمام القانون كذلك، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾[2].

٨ ـ والعجب أن إبليس أغوى آدم من ناحية الراحة الأبدية والخلود والنعمة الدائمة فى قول إبليس، كما حكى القرآن: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾[3]. وكان اتجاه آدم لذلك، وهذا ما كان من توجيه الله له، حيث قال الله لآدم عندما أسكنه الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾[4] والفرق بين الاثنين أن الله سبحانه قال لآدم: عِشْ فى الجنة كما تشاء، كُلْ من كل شىء، واهنأ بكل شىء إلاّ هذه الشجرة، وهى التى وجَّه إبليسُ آدمَ للأكل منها.

٩ ـ عجيب أمر ابن آدم، إنه يقرأ كل يوم قصة الصراع بين آدم والشيطان، أو يستمع إلى القرآن الكريم، وهو الذى نتعبَّد بتلاوته ونقرؤه فى صلواتنا، ونحفِّظه لأولادنا، ونهتم به فى كل شئون حياتنا، وأصبح الحلال بَيِّناً والحرام بيِّناً، والله قال

---

(١) سورة التوبة، الآية ٥١.

(٢) سورة النساء.

(٣) سورة طه.

(٤) سورة طه.

لنا: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾[1]، ومع ذلك فالبشر لا يتَّعظون، فوسوسة إبليس لهم تجعلهم يتفنَّنون فى الشر، ومسالكهم مع بعضهم البعض بالتربُّص والإضلال، والشيطان بذلك فرح مسرور، لأنه أخذ على نفسه عهداً بإضلال آدم وذريته، وهو القائل: ﴿ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[2]، فهم يعرفون أن الشيطان عدوُّهم ويسمعون لوسوسته، ويعرفون أنه يدعوهم إلى الشر، ويوسوس للنفس، ويستحوذ عليها إذا كانت ضعيفة الإرادة، خالية من العقيدة، لم تتأثر بالعبادة، ولم تنتفع بهدى الله، لذلك فهى أمَّارة بالسوء، وعندئذ يصبح الجو المحيط بالإنسان يغرى بالجريمة، حيث يزيِّنها هواة الشر، ونقول لشبابنا: إن البُعد عن القيم الأخلاقية والتخلى عن أركان الإسلام وعدم قراءة القرآن والتنكُّر للمبادئ والعادات الدينية، والتخلى عن السلوك الحسن، كل ذلك يمثل الشجرة المنهى عنا، والتى حَذَّرَ الله آدم من الأكل منها، فيقول الله سبحانه: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[3].

١٠ ـ إننا نهيب بالمرأة ونقول لها: لا تكونى عوناً للشيطان على أولاد آدم لأنهم أولادك، وسعادتهم سعادتك، فكونى قائدة لكل خير، وتذكرى المقولة التى قيلت عنك وألصقت بك تهمة الإغراء الأولى، والتى كانت سبباً فى شقاء الإنسانية، وكان من جراء ذلك ما سوف تطالعينه من ظلم الرجل لك عبر التاريخ، وجاء الإسلام فكرَّمك، ورفع قَدْرَك، وأبعد التهمة عنك، وجعل لك خصائص متميزة من العطف والحنان لتكونى للرجل جنة فى الدنيا ينعم فى ظلالها، ويحيا سعيداً بين أبنائها، فكونى قدوة حسنة، وعلِّمى أولادك الرضا، ليعيش زوجك سعيداً فى دنياه تحت ظلال الجنة التى غرست أشجارها الوارفة.

---

(١) سورة فاطر.
(٢) سورة الأعراف.
(٣) سورة الأعراف.

إن الله سبحانه هو الذى خلق آدم وحواء وجعل منهما الذرية، وهو يعلم أن هذا الإنسان بكل ملكاته ومكوِّناته ضعيف، وهذا أمر لا حيلة لابن آدم فيه، فالله سبحانه يقول: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴿٢٨﴾﴾[1] لذلك أقام فى ابن آدم رقابة ذاتية فيه وعليه، إنه «الضمير» والإنسان قد يتنكب الطريق وينزلق فى الخطيئة، فهل يُطْرَدُ من رحمة الله أم هناك أمل؟ إن الطمع فى رحمة الله أمل موجود لا يغيب عن بال الإنسان، وباب التوبة مفتوح، فإذا نسى الإنسان أو زَلَّ وأخطأ وفعل الموبقات فإن باب الله مفتوح، ونداءه مستمر ودائم: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴿٥٣﴾﴾[2].

والله سبحانه يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده فى النهار ليتوب مسىء الليل، وينادى على عباده: «مَنْ أقبلَ عَلَىَّ منكم تلقَّيتُه من بعيد، ومن أعرض عنى ناديته من قريب». وإذا كان الله سبحانه ذكَّرنا بنعمته ونبَّهنا إلى رحمته فإنه فى الوقت نفسه حَذَّرَنا من نقمته، وقال لنا: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴿١٢﴾﴾[3]. وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴿١٤﴾﴾[4].

إن رحمة الله تشمل كل الوجود، وهو أرحم بعباده، فهو الرحمٰن الرحيم، ورحمة الله واسعة، وكل ذلك لمن رحم نفسه وابتعد عن المعاصى، واتخذ إبليس عدوًّا، وَفَرَّ من الشيطان كما يفر من المرض. والدنيا متاعها زائل، ونعيمها إلى فناء، وكل مَنْ عليها هالك، والباقى هو الله ـ جَلَّ وعَلَا ـ الذى يرث الأرض ومَنْ عليها، وكل الناس يأتون إليه للحساب والمساءلة: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴿٩٥﴾﴾[5].

---

(١) سورة النساء.
(٢) سورة الزمر.
(٣) سورة البروج، الآية ١٢.
(٤) سورة الفجر.
(٥) سورة مريم.

فيا أختاه، إن باب الله مفتوح يوصل إلى سعادة الدنيا والفلاح فى الآخرة، والدخول إليه ومنه بشروط: أن يكون بيدك جواز سفر مدوَّن به العمل الصالح، وطهارة النفس، والإخلاص، والوفاء، والأمانة والصدق، والمروءة، وحين الرعاية لمن هم فى ولايتك وتحت يدك، والالتزام، وحسن العِشْرة، وكرم المودَّة، والشهامة، وغير ذلك مما نجده فى القرآن الكريم، ومن جاء بغير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه، فالله سبحانه أرسل الرسل وأنزل الكتب وبيَّن أن الصلة بين الله والناس هى العمل، ثم قال لنا مبيِّناً ذلك: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) ﴾[1]. وقال: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) ﴾[2].

إن آدم بعد أن أحسّ بالذنب الذى اقترفه، والمعصية التى وقع فيها، نَدِمَ وأعلن مع زوجته حواء اعترافهما بأنهما ارتكبا خطيئة، فقرَّرا التوبة: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾[3]. إن الشيطان عندما ترصَّد لهما وأغواهما كما يقول ربنا: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) ﴾[4]، تابا إلى الله وندما: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾[5]. وقَبِلَ الله توبة آدم وحواء، لكن بدأت مرحلة من الصراع مع الشيطان الرجيم الذى يترصد لأولاد آدم ويقودهم للهلاك عند اتِّباعه، ثم الابتعاد عن هدى الله وهدى رسله الكرام الذين ترادفوا للإنسانية من قِبَلِ الله لتصحيح المفاهيم وضبط حركة الحياة، حتى يكون الإنسان أهلًا للخلافة عن الله فى الأرض، حسبما اقتضت مشيئة الله عز وجل: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾[6].

---

(١) سورة الحِجْر.
(٢) سورة النازعات.
(٣) سورة الأعراف.
(٤) سورة البقرة.
(٥) سورة البقرة، الآية ٣٧.
(٦) سورة البقرة، الآية ٣٠.

أول دمٍ سُفك على الأرض

إن إبليس استكبر وقال لرب العزة عندما أمره بالسجود لآدم: أنا لن أسجد لهذا الذى خلقته من تراب، فأنا خير منه، لأنك خلقتنى من نار وخلقته من طين، وفى زعم إبليس أن النار أزكى جوهراً من التراب، ولما عرف إبليس أنه ضَلَّ ولم يعرف قدره طرده الله من رحمته لتمرده وعناده واستكباره، فقال إبليس: أرأيت هذا الذى كَرَّمْتَ عَلَيَّ، لئن أخَّرتنى إلى يوم القيامة لأُضِلَّنَه ومن يتناسل منه. قال الله له: اذهبْ وامضِ فى سبيل الندامة وطريق الغواية، واستفزز من استطعت منهم بصوتك، وأَجْلب عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهم فى الأموال والأولاد، وأنت تفعل ذلك تصول وتجول فلن يتبعك منهم إلاَّ الغاوون، أمَّا أصحاب القلوب الطاهرة والعزيمة القوية فلن تستطيع أن تغويهم أبداً مهما كانت حيلك وألاعيبك، ومع ذلك فإن من يتبعك له فى الحياة الدنيا معيشة ضنكاً، وفى الآخرة ناراً وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم به من تعذيبكم وإهانتكم جزاءً وفاقاً، لأننى لن أترك آدم وذريته بلا ضوابط، بل جعلتُ العقل فيهم ميزان المعرفة، وأُغذِّيه بهدى السماء والوحى الذى ينزل عليهم، والأنبياء الذين يبعثون منهم وفيهم، ولن أعذب أحداً حتى أبعث إليه رسولاً.. وابن آدم أمامه كتاب مفتوح، إنه الكون، فيه دلائل قدرتى واضحة بالآيات الناطقة بعظمتى أمام عينيه فى غُدوِّه ورَواحه، وكتاب مقروء فيه منهج حياة الإنسان، ليحيا على بيِّنة من أمره، وحتى لا يكون لأحد على الله حجة.

وطرد إبليس ولعن، ونسى آدم العهد وأكل من الشجرة المحرَّمة، وأمر الله آدم وزوجته أن يهبطا إلى الأرض ليحتدم الصراع مع إبليس اللعين المحروم من الرحمة، يشير إلى ذلك ما جاء فى القرآن الكريم: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾[١]، ويقول: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[٢]. وهبط إلى

---

(١) سورة البقرة.

(٢) سورة الأعراف.

الأرض آدم وزوجه، وسيكون منهما الذرية، وكذلك هبط الشيطان، وله ذريته الذين يعاونوه فى الإضلال والإفساد والإغواء، وهنا تبدأ قصة الصراع على الأرض.

ويحلو للبعض أن يجعل من المرأة محور الشر دائماً، فعندما تقع أى مشكلة يقولون: «فتش عن المرأة».. إن هذا آتٍ من كون المرأة نفثت فى الكون سحر الجنة الذى اقتبسته حواء من أنفاس الحور العين، فأثارت العواطف، وحرَّكت المشاعر، لكن أى ذنب لحواء فى ذلك، إن المرأة لا ذنب لها، لأن الله سبحانه خلقها من الرجل، ومن ضلع أعوج، وقلنا بأن ذلك هو مصدر الحنان الذى فيها، لأنها تحنو على الرجل كما يحنو الضلع على الصدر والقلب، لهذا كانت تتمرد فى شكل من الدلال على الرجل، الذى لا يتماسك أمام هذا الدلال، فتخمد عزيمته، وتفتر همَّته، فتتدخل هى فى شئونه. إن من المعروف أن المرأة نشأت تحت سيطرة الرجل وغطرسته، يطوف بها حيثما أراد، ويلقى عليها كل الواجبات، فى الحقل، وفى المنزل، وهى راضية، علاوة على ما يعتريها من الإرهاق بسبب الحمل والوضع. إن المرأة شقيقة الرجل، فلها من الحقوق كما للرجل تماماً فى ظل القواعد الدينية والعُرف الاجتماعى، ولا شك أنها تريد أن تنشر دفء العاطفة وحنان القلب على الرجل لتهدأ نفسه ويؤدى واجبه الاجتماعى، وتتعايش هى معه فى أُلفة ومَوَدَّة، لكن الرجل يقلب الحقائق، ويميل مع الهوى، ثم يرمى عليها باللوم بعد ذلك.. وتعالوا بنا لنتعرف على القصة التى بسببها سُفك أول دم على الأرض، ومن لحظتها والعنف هنا وهناك، وينسبونه لولدى آدم، كما أن أسلوب الإرهاب والتصفية الجسدية بدأت تُعرف على الأرض، وأصبح لإبليس مدرسة ولها رُوَّاد، وكل يوم يُزاد فيها درس، وتُوضع خطة، وذلك بسبب واحد، هو (الحسد)، فأول جريمة من الشيطان كانت بسبب (الكِبْر)، لأن إبليس انتفخت أوداجه وقال لرب العزة: أنا خير من آدم الذى خُلق من طين، أما أنا فخُلِقْتُ من النار، وهذه نظرية التفاضل التى نادى بها بعض السفهاء، وردَّدها بعض الشعراء حيث قال:

إبليسُ خير من أبيكم آدم ... فتذكروا يا معشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينة ... والطين لا يسمو سُمُوّ النار

هكذا وبكل بساطة، ومثل هؤلاء كمن يقرأ قول الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ويقف عليها، ويدلل على عدم الصلاة، ونحن نقول: أكْمِل الآية، لأنه لا يصح الوقف هنا، فإن بعدها كما يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾[1]. ويقرأ أحدهم: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ﴾ ونقول له: أكْمِل: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾[2].

قصة ولدى آدم

منذ بدأ الفساد والانحراف، وكُلٌّ يعلِّق أخطاءه على شمَّاعة الآخرين، فلنتنبَّه إلى عناصر الفساد، وناشرى الإرهاب، ومؤسِّسى مدارس الانحراف، لأن أستاذهم الشيطان طريد الحق وملعون على كل لسان.. فهيا بنا لنتعرَّف على قصة وَلَدَىْ آدم:

عندما هبط آدم وزوجته إلى الأرض هبط معهما الشيطان، والعداوة بينهما متأصِّلة، والشر فى قلب الشيطان متجسِّد، وآدم تاب الله عليه وقَبِلَ توبته، وهذا من فضل الله الذى فتح باب التوبة أمام كل شخص تزل قدمه أو ينحرف أو يضل، فإن عاد تائباً نادماً مستغفراً فتح الله له باب التوبة، وإن كان صادقاً بَدَّل الله سيئاته حسنات، وهذا فضلٌ من الله لكل من يتوب توبة صادقة، وإلى هذا أشار الحق سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾﴾[3]. لهذا قَبِلَ الله توبة آدم وحواء، وقد بدءا يمارسان حياتهما المعيشية والأسرية، وبدأت حواء تحمل وتلد، فولدت تَوْأماً «ذكراً وأنثى»، وهكذا فى كل

---

(١) سورة النساء، الآية ٤٣.
(٢) سورة الماعون.
(٣) سورة الفرقان.

حمل، وأوحى الله إلى آدم أن يزوِّج ولد البطن الأولى لأنثى البطن الثانية[1] وكذا، وقد تم ذلك نظراً لأنه ليس على وجه الأرض إلاَّ هما «آدم وحواء»، ومن أجل إيجاد الجنس البشرى فلا بد أن يتم التزاوج، وقد قال آدم لأولاده ذلك ليعلمهما، كى يتواجد البشر، وتتكون المجتمعات، وكانت شقيقة قابيل التى وُلدت معه تتميز بجمال باهر، وجسم رشيق، فأراد أن يتزوجها، فأفهمه والده «آدم» بأن ذلك لا يجوز، لأنها شقيقته، وعليه أن يتزوج بشقيقة هابيل.

كان قابيل يتخذ الزراعة مهنته، أمَّا هابيل فقد أصبح راعياً للأغنام، وأما البنتان فهما مع حواء فى المنزل، كان السلام يرفرف على الأسرة، وآدم وحواء سعيدان بزهرات الحياة ـ أولادهما ـ وهى تتفتح فى رياض الكون وهم أول نفحات الخير فى تكوين البشرية.

كان الشيطان يتربص لهذه الأسرة ويخطط لضربها بقوة ليصل إلى مأربه، وهو يتسمع لأحاديث الأسرة دون أن يراه أحد، لأنه لا يراه الإنسان، والشيطان هو الذى يرى الإنسان، مصداقاً لما قاله ربنا جل جلاله: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[2]، وها هى ذى الفرصة أمامه، «آدم» يعرض على أولاده الزواج، وقابيل يرغب الزواج من أخته التى وُلدت معه فى بطن واحدة لجمالها الباهر وقَدّها الرشيق. وتربَّص الشيطان لقابيل واتخده أولَ تلميذ فى مدرسة الفساد والإجرام، وأفهمه بأنَّ أباه يحب «هابيل» ويريد أن يزوِّجه الجميلة، أما أنت فسوف تتزوج الدميمة القبيحة، فتمرد قابيل على أبيه ورفض الانصياع له، وقال له: لن أتزوج إلا شقيقتى. وكان الشيطان يغريه ويغويه. وأُلهم آدم أن يقترح على وَلَدَيْه بأن يُقدِّما قرباناً لله، فمن قُبِلَ قربانه فهو الذى يتزوج بالجميلة، ومن لم يُقْبَل قربانه فعليه الرضا بالأمر الواقع، لأنه لو اطَّلَعَ الإنسان على الغيب لاختار الواقع.

ذهب هابيل وجاء بقربانه من أفضل وأحسن ما عنده، لأنه يتقدم به إلى الله

---

(١) البطن: ضد الظهر وهو مُذَكَّر، وتأنيثه لغة [انظر: مختار الصحاح ـ مادة: بطن].
(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٧.

تعالى، وهو يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1]. ونظراً لأنه كان يرعى الغنم والجمال فجاء بجمل عظيم، أمّا قابيل، فنظراً لأنه كان زارعاً فجاء بقمح من أردأ ما عنده، حسبما زَيَّنَ له الشيطان، وكان كل واحد يتمنى أن يُقبَل قربانه ويفوز بقصب السبق. وتقدم كل واحد بقربانه، فقبل الله قربان هابيل، لأنه يتميز بصفاء النفس، وطيب القلب، وحب الناس من حوله ـ إخوته الصغار ـ أما قابيل فقد انطفأ الأمل فى قلبه، وانبعث الشر من عينيه، علماً بأنه لم ينزل على حُكم أبيه، ولم يرضَ بحكم الله. ثار الدم فى عروقه وتدفق مع الشر الذى انبعث من نفسه، لذلك قال قابيل لهابيل: لأقتلنك حتى لا تتمتع بهذا الجمال وأعيش أنا مضطهداً محرومَ العاطفة، قليلَ الرجاء. كان هابيل رجلًا مهذباً، فردَّ على أخيه قائلًا: ارضَ بأمر أبيك وانزل على حُكم الله وطَهِّرْ قلبك، والجمال جمال الروح والنفس، جمال الخُلق والأدب. لكن قابيل أصمّ أذنيه ولم يسمع إلا صوت الشيطان الذى زيَّن له الجريمة ورسم له الخطة وبدأ يمد يده إلى أخيه، فقال هابيل: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾[2]. وكان المفروض أن يتراجع قابيل ويحافظ على أخيه ويرضى أباه ويحفظ للأسرة كيانها الاجتماعى، لكن:

لقد أسْمعت لو ناديتَ حَيًّا ولكن لا حياةَ لمن تنادي

لقد كان قابيل ميتَ العاطفة، متبلدَ الأحاسيس، متحجر القلب، لا تسمع أذنه إلا ما يريد، لذلك مد قابيل يده إلى هابيل وقتله، ووقع هابيل على الأرض أول قتيل، ولم يعرف قابيل كيف يتصرف فى جثته، فوضعها فى جراب وحملها على ظهره وهو مضطرب الفكر، قلق النفس، أحاط به الهم، حيث دَنَّسَ يديه بالقتل، وباء بالعار، وأصبح لا يدرى كيف يتصرف؟ ولا يعرف كيف يوارى سوأة أخيه؟ خاصة أن رائحة الجثة بدأت تفوح، والحق سبحانه أرحم بعباده، فتدخلت العناية الإلٰهية لتعلِّم هذا الغبى الأحمق كيف يتصرف.. ولما كان قابيل ليس أهلًا

(١) سورة آل عمران، الآية ٩٢.
(٢) سورة المائدة.

لأن يُلْهَم من الله بعث له مَنْ يعلِّمه، وأستاذه هنا يليق به، إنه الغراب، فبعث الله أمام عينيه بغرابين تنازعا، فقتل أحدهما الآخر، فأخذ الغراب القاتل يحفر بمنقاره في الأرض حتى عمق الحفرة ودفن الغراب المقتول، ثم أهال عليه التراب، فصاح قابيل وقال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى﴾[1]. بدأ قابيل بالندم والحسرة بعد مقتل أخيه، وبعد أن تلقَّى الدرس على يد الغراب أستاذه. . إن هذا أول حَدَث وقع على الأرض، وأول معصية ارتُكبت فوقها، ومع ذلك لم يتزوج بشقيقته، لأن الطبع السليم لا يقبل ذلك أبداً. هذه هي القصة ونرى من سياقها أنه لا دخل للمرأة فيها من قريب أو بعيد، وإنما يحلو للبعض عندما تقتل امرأة زوجها يقولون: «ألم يقتل قابيل هابيل بسببها»، فهي التي تخطط، وقد تنفذ، ونحن نقول لهم ما قاله ربنا: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2]. ويقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾[3].

إن آدم كان كلما سأل قابيل عن أخيه تهرَّب من الإجابة، وقد شعر آدم بما حدث، وحزن، ولأول مرة تعرف الأسرة الحزن يخيم عليها لغياب ولد شهم يتَّسم بالمروءة ويُعْرَفُ بالهمة والنجدة وأداء الواجب وحُب من يحيط به.

أمَّا إبليس ففرح، لأن مدرسته بدأت تتكوَّن، وتلاميذها شخصيات مهزوزة، يتَّسمون بالقلق والاضطراب، وعدم التركيز والحقد والحسد.

وقابيل ندم، لكن بعد فوات الأوان لأنه لم يستعمل عقله، ومن أجل تصرفه الأحمق جاء الحكم الإلهي الذي حَدَّدَهُ الله وفَصَّلَهُ وهو: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[4]. ثم إن ساحة المرأة بريئة، لأن البنت

---

(١) سورة المائدة، الآية ٣١.

(٢) سورة الإسراء، الآية ١٥.

(٣) سورة المدثر.

(٤) سورة المائدة، الآية ٣٢.

لم تسهم برأى، ولم تشارك بفعل، فإذا جاء المجرمون وتعلَّلوا بأن المرأة هى السبب نقول لهم: أين الدليل؟.

إن القرآن وَضَّحَ الأمور، وأزالَ اللبس، وأبعد الغبن عن المرأة ليقول للرجال: «بعضكم من بعض». وجاء على لسان رسول الله ﷺ: **«النساء شقائق الرجال»**، فليكن الرجل فى عرض القضية منصفاً ولا يُعلِّق أخطاءه على شمَّاعة المرأة، لأنها خُلقت منه، فهى تحنو عليه، وتكمل معه مسيرة الحياة، وإن كان لكل إنسان دوره، فإن المجتمع فى حاجة إلى دور كل فرد فى مكان أدائه، وكل شخص يُحاسَب على عمله، كما يقول ربنا: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾[1].

---

(١) سورة الزلزلة.

هل الذكر كالأنثى؟

فى ليلة رطبة الهواء، خفيفة النسمة بعد نهار شديد الحر، وقد غاب الشفق الأحمر، جلست على شاطئ نهر، وأسندت ظهرى إلى شجرة الصفصاف أتأمل الكون الذى يحوى الكثير من الأسرار، وبينما أنا سابح بفكرى فى اللانهائى، وصل إلى مسامعى صوت فتاة من فتيات الريف تقول لفتى بالقرب منها: إن الله بنا رحيم، فبعد حر الشمس اللافح تكون هذه النسمة الرطبة التى تنعش النفس وترطب الجسد وتحرك المشاعر الدافئة فى الإنسان. . . بعد ذلك سمعت صرخة من الفتاة مع ارتطام شىء على الأرض، فتحركت إلى هناك فإذا بالفتى يضرب الفتاة، وقد تبين لى أنها شقيقته، فقلت له: لِمَ تضربها؟ فقال: لأنها تقول كلاماً هو من كلام الرجال. . لكن الفتاة ردَّت قائلة: ولِمَ تعيب علىَّ؟ أليس الذكر كالأنثى؟ وهنا صدرت منى ضحكة عالية، وأمسكت بهما وأجلستهما وقلت: هذه قضية نريد أن نتحدث فيها تلك الليلة وندعو إلى مجلسنا العديد من الرجال والنساء. . وقد حضر العديد من الذين يتعلَّمون فى الجامعات إلى القرية حيث يعملون فى الصيف مع أهليهم فى الحقول، وقلت لهم: الموضوع الآن ينقسم إلى شقَّين، هما: الحرية وأليس الذكر كالأنثى؟.

الحرية: كل إنسان حر، له أن يفعل ما يشاء، لكن هذه الحرية لها ضوابط تضبط حركة الإنسان حتى لا تكون فوضى وعبثاً بحياة الآخرين. . الحرية التى لا يكون معها قيد يوفر الحق والكرامة للناس الذين يعيشون معك فى المجتمع ليست بحرية، وإنما هى فوضى وتخبُّط فى ظلام الفكر، لأنه ليس من المصلحة أن يُقال للرجل: انطلق كما شئت فأنت حر ولو داست على أقدامك فلذات الأكباد، وهتكت حرمة البيوت، نقول هذه ليست حرية، وإنما ذلك اعتداء صارخ على حرية

الآخرين.. إن من حقك أن تلوح بيدك فى الفصاء وأنت حر ولكن لا تمس بيدك أنف الآخرين.. من حقك أن تتكلم لكن لا تتلفظ بألفاظ تخدش حياء الآخرين.. وما يقال للرجل هنا يقال للمرأة، لا نقول لها: انطلقى كما شئتِ فأنت حرة ولو سفكت عفة الأحرار واعتديت بما صنعت على حياة الآمنين، ولوّثت شرف الأسرة، وأهدرت كرامة الأب والعم والخال.. إن المناخ الاجتماعى فى كل بلد، والتقاليد الموروثة من الآباء والأجداد لا بد أن يكون لها احترام، فلا يليق بنا أن نسفِّه رأى الآخرين ولا نتطاول على معتقداتهم الدينية ولو كانت خاطئة، وإنما علينا أن نلتزم بالأدب أولاً فى أنفسنا، ونحترم غيرنا، ولا نسفِّه رأى أحد، وإنما نناقش بالحجة والدليل والمنطق، وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1]. وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2]. هذا هو الأدب الذى يجب أن نلتزم به فى حريتنا وتصرفاتنا. حافِظْ على حقوق الآخرين ليحافظوا على حقوقك، هذه هى الحرية، انضباط على القيم، واحترام لحقوق الآخرين، وغير ذلك تكون فوضًى واضطراباً وخلخلة فى المجتمع، وتصدعاً للقيم، وانهياراً للمبادئ، وهذا لا يقره دين ولا يرضى به عُرْف اجتماعى ولا تقاليد بيئة، لأن ذلك يؤدى إلى فساد، لذلك كانت الحرية الممنوحة لك فى نفس الوقت محافظة على حقوق الآخرين.

أما كون كلمتك يا فتاتى: «أليس الذكر كالأنثى؟»: فلا، لأن لكل منهما خصائص، فالذكر يختلف عن الأنثى فى أصل التكوين الجسمانى، ولكل منهما فطرة، فلا نحاول الخروج على مقتضى هذه الفطرة، لأنها أصيلة لا تتغير: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[3].

ولقد أثبتت البحوث الفسيولوجية أن يد القدرة الإلٰهية والعناية الربّانية قد كوّنت كُلًّا من الرجل والمرأة تكويناً يختلف عن الآخر، فمن الناحية الجسمية:

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٠٨.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٦.

(٣) سورة الروم، الآية ٣٠.

جعلت هيكل المرأة العظمى دقيقاً خفيفاً، وجمجمتها تشبه وجوه الأطفال، وسعة صدرها أضيق من الرجل، والعمود الفقرى أقل طولاً، وأطرافها أخفّ وزناً، كما جعلت عضلاتها أقل نموًا من عضلات الرجل، وكميات الدهن فى المرأة أكثر، وبخاصة فى الصدر والفخذين. . وجلدها رقيق، وتحتوى على سائلات مائية أكثر، وشعرها على الجسم قليل جداً، بل يكاد يكون معدوماً، ولذلك يقال عنها: الجنس الناعم، ومخّها أصغر وأخفُّ وزناً من مخّ الرجل.

إذا كان هذا الاختلاف فى الناحية الفسيولوجية، فهناك اختلاف فى الوظائف العضوية: فهى مصابة بالطمث، والحمل، والوضع، والإرضاع، كما أن الرجل أقوى منها فى سير الدورة الدموية فى جسمه، لذا فهو قوى التنفس، ويفرز كمية من العرق أكثر منها. إن المرأة منذ سن المراهقة يتغير شكلها، وتظهر المعالم الدالَّة على أُنوثتها، لأن غذاءها يُصرف إلى تكوين لحم وشحم، فيستدير وسطها، وينهد ثدياها، ويتّسع حوضها، وقلَّما يطرأ تغيير على تكوين مخّها وأعصابها، فى حين أن الفتى ينصرف غذاؤه إلى تكوين الأعصاب، ونمو المخ وكثرة تلافيفه، ولذلك هناك اختلاف من الوجهة العقلية، فالمرأة تدرك الأفكار الواضحة المختصرة، وتنقصها الدقة فى إدراك الكليات، وذلك لعدم اهتمامها بالموازنة والتدقيق، لأنها عاطفية فى تصرفاتها، يتحكم فيها الشعور والإحساس أكثر من تحكُّم الرأى والتدبير، لذلك فهى كثيرة الانفعالات، حادة المزاج، كما تقول الكاتبة (جينا لمبروزو) فى كتابها «نفسية المرأة»: «إن هذا التكوين الذى أبدعته يد القدرة الإلٰهية ـ وليس لأحد التدخل فيه ـ ينشر على الفتاة الأنوثة الساحرة فى دور المراهقة (ولذلك قالوا عنها: الجنس اللطيف)، فى حين ينمى فى الفتى مخّه وتُكوّن أعصابه. إن هذه الفوارق تُساير الفتى والفتاة وهما يتقدمان فى سلَّم الرقىّ الاجتماعى، لكن قد يتدخل التثقيف والترويض البدنى فى تهذيب هذا الاختلاف بالتعديل، لكنه لا يتغير ولا يُمْحَى، ولذا قالوا: (الطبع يغلب التطبُّع)، وبمقتضى هذه الفوارق سنَّت الأديان السماوية شرائعها متمشية مع الحالة الخلقية والاجتماعية للعصور التى ظهرت فيها، فاليهودية مثلًا فرَّقت بين الرجل والمرأة، معتبرة الرجل كل شىء والمرأة صفراً على الشمال، لذلك لا تبيح لها الوظائف العامة،

والمسيحية كذلك جعلت الرجل هو الرأس، ويتبيَّن هذا من رسالة (بولس) إلى أهل (أفسس) إذ يقول فيها: «يا أيها النساء، أخفضن لرجالكن كما للرب، لأن الرجل هو الرأس للمرأة كما أن المسيح هو رأس الكنيسة، وكما تخضع الكنيسة للمسيح، كذلك النساء لرجالهن».

أَسَمِعْتِ أيتها الفتاة أن الذكر ليس كالأنثى فى الخَلْق والتكوين، والاستعداد والمواهب، وعلى الفتاة أن تعرف أن لها فطرة لا تخالفها، ولا تبعدها الحضارة الحديثة عن الوظيفة الأصلية التى خُلِقت لها ولا يخرج بها العلم إلى دعوى المشاركة فى كل شىء، لأن داعى الفطرة فى نفسها ونداء الطبيعة من بين جوانحها أقوى من كل شىء، وهذه هى القاعدة الأصيلة، ومما لا شك فيه أن كل قاعدة لها شواذ، فقد يكون من النساء من يتفوّقْنَ على الرجال، لكن ليس غالباً، ونقرأ فى ذلك قول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[1]. ونبَّهنا ربنا إلى أن كل مخلوق يرضى بوضعه ولا يتطلع إلى وضع الآخرين، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[2].

إن أعداء الإسلام قالوا: لا فرق بين الرجل والمرأة، وتعالوا إلى بلادنا فانظروا، فالمرأة تعيش حياتها كالرجل تماماً. ونقول لعلماء الغرب الذين يردِّدون هذه الفكرة: إن ما يتفق عندكم لا يتفق عندنا، فأنتم لكم تقاليد تخصّكم لأنكم لم تلتزموا بتعاليم الله وهدى الأنبياء، أما المناخ الاجتماعى عندنا فى الشرق فهو محكوم بقيم الأديان السماوية، خاصة أننا نعتنق ونؤمن بأن القيود التى وُضعت حول المرأة هى لصيانة إنسانيتها، وحماية كرامتها ووضعها فى المكان اللائق بها، لأنها خُلقت لتكون قائدة بيت، ومعلِّمة أجيال. إن المرأة عندنا حماها الإسلام من الانزلاق فى مهاوى الفساد، ذلك لأنها أم الأبطال، يشرفون بمكانتها، ويعتزون بالانتساب إليها، والإسلام جعلها أُمًّا لها مكانتها، وأختاً لها منزلتها، وزوجة لها عزَّتها، وبنتاً لها كل الحب والإعزاز، فالمرأة فى الأساس كُوِّنت تكويناً عقليًّا

---

(١) سورة النساء، الآية ٣٤.

(٢) سورة النساء، الآية ٣٢.

وذهنيًا يناسب وظيفتها الأصلية التى خُلقت من أجلها، وهى أن تُكوِّن أسرة، وتبذل جهدها لإسعادها، مع الحفاظ على ترابطها، والاهتمام بتعليمها، وأنها إذا خرجت على هذه الفطرة فقدت مكانتها السامية وابتعدت عن حدود وظيفتها.

وتعالوا بنا نقرأ ما تعانيه المرأة فى الغرب من متاعب، وأنها حطَّمت نفسها لبُعدها عن هدى الله وخروجها على مقتضى الفطرة، فقد نشرت جريدة «الأهرام» فى ١٩٦١/٥/٢٩ تحت عنوان: (أستاذة جامعية تنصح طالباتها بالزواج)، قالت الأهرام: أستاذة جامعية فى إنكلترا وقفت هذا الأسبوع أمام مئات من طلبتها وطالباتها تلقى خطبة الوداع بمناسبة تقديم استقالتها من التدريس، قالت الأستاذة: «ها أنذا قد بلغت الستين من عمرى وصلت فيها إلى أعلى المراكز، نجحت وتقدمت فى كل سنة من سنوات عمرى، وحققت عملًا كبيراً فى المجتمع، كل دقيقة من يومى كانت تأتى علىّ بالربح، حصلت على مال كثير، وشهرة كبيرة. أُتيحت لى الفرصة أن أزور العالم كله، ولكن هل أنا سعيدة الآن بعد أن حققت كل هذه الانتصارات؟ لقد نسيت فى غمرة انشغالى بالتعليم والتدريس والسفر والشهرة أن أفعل ما هو أهم من ذلك كله بالنسبة للمرأة، نسيت أن أتزوج، وأن أنجب أطفالاً، وأن أستقر، إننى لم أتذكر ذلك إلا عندما جئتُ لأُقدِّم استقالتى، شعرت فى هذه اللحظة أننى لم أفعل شيئاً فى حياتى، وأن كل الجهد الذى بذلته طوال هذه السنوات قد ضاع هباءً، فسوف أستقيل ويمر عام أو اثنان على استقالتى وبعدها ينسانى الجميع فى غمرة شغلهم بالحياة، ولكن لو كنت تزوجت وكوَّنت أسرة كبيرة لتركت أثراً أكبر وأحسن فى الحياة. إن وظيفة المرأة الوحيدة هى أن تتزوج وتُكوِّن أسرة، وأى مجهود تبذله فى غير ذلك لا قيمة له فى حياتها هى بالذات. إننى أنصح كل طالبة تسمعنى أن تضع هذه المهام أولاً فى تقديرها، وبعدها تفكر فى العمل والشهرة».

أَسَمِعْتِ حديث المرأة المجرِّبة؟ أرأيتِ نداء الفطرة فى أعماقها؟ فبرغم تفوُّقها وشهرتها تقول: «ما نلتُ من العِلْم والثراء شيئاً»، لأنها آمنت أن وظيفة المرأة الحقيقية ورسالتها الأصلية هى أن تعشش على بيت تنشر فيه دفء العاطفة، وتُظلِّله

بالسعادة، وتحميه بالحب، وتقود سفينته بحسن استعدادها الفطرى وتكوينها البيئى، وقيمها الدينية، وعاداتها الاجتماعية، بهذا تسعد بها الدنيا وتنجح المجتمعات.

قالت الفتاة: كيف تحكم علينا بهذا ونحن نعلم أن الله جَلَّتْ قدرته ركَّبَ فى كل من الرجل والمرأة قوة السير والعمل؟ فإن جمد أحدهما فى مكانه فقد عطَّل القوة التى رُكِّبت فيه، فإذا حَزَبَه أمر أو أَلَمَّتْ به ضائقة ضاع فى الحياة، لأن موكبها ينطلق فى عنف وقوة ولا يعترف بالعجزة والكسالى، ولا بالمتواكلين النائمين، كما أنه لا يفرِّق بين رجل وامرأة، ولا صغير أو كبير؟ إذن على المرأة أن تكون من نفسها قوة تستقل بها عن الرجل وتُبَوِّئ نفسها مكانة العزة ولا تترك نفسها لرحمة المقادير تحت سيطرة الرجل.

ونظرت إليها طويلًا، وقلت لها: شىء جميل جدًّا يا فتاتى أن تعمل المرأة، وأن تُكوِّن من نفسها قوة تحميها عند الضائقة، لكن لا تستطيع أن تستقل بنفسها عن الرجل، لأنها خُلقت له وهو خُلق لها، فليس هناك استغناء لأحدهما عن الآخر، ومن فضل الله ورحمته أنه جَعَل لكلٍّ ميداناً، فميدان المرأة البيت والأسرة، ولو أحسنت القيام عليهما لعمّ الخير، وانتشر الأمن والاستقرار، ورفرفت السعادة بأجنحتها على الإنسانية بأسرها. وميدان الرجل الشارع والحقل والمصنع والتجارة وغير ذلك من فنون الحياة.. لكن أليس لأحدهما أن يشارك الآخر؟ نعم، ولكن بحدود وضوابط حتى لا يكون هناك إهمال للوظيفة الأصلية، كما أن الأولى بالرجل ألَّا يكلِّف المرأة بأى عمل يُدْمى بَنانَها الناعم (العمل الثقيل)، وكذلك لا يكلِّفها بما يضنى كيانها الرقيق بالإجهاد فى العمل، لتظل من مهدها إلى لحدها (ريحانة غير قهرمانة)، ونحن ندرك أن الحياة تمر بالناس وهم فى غفلة لا يحسون بالواقع، وإذا بهم بعد لحظات وقد تبدلت الأحوال وانقلبت الأوضاع النائمة، فتستيقظ حواسهم على هذه الأحداث المفجعة، فإن لم يكن لهم مع هذا الإحساس والصدمة العنيفة عمل وحركة كان الموت الأدبى للرجال، وتُمتهن المرأة فى كرامتها، خاصة إذا كان الموقف فيه احتياج، ولا يغيب عن بالنا أن الإيثار أصبح

الآن نادراً فى مجتمعاتنا بعد أن طغت الأنانية، لذلك نحن لا نفصل أنفسنا عن الواقع، بل نعايشه ونتعايش معه.

والمرأة عليها أن تشارك الرجل، لكن بما يتفق مع كيانها وتكوينها وفطرتها، وأهم ما نوجِّه إليه هو أن تتعلم التدبير المنزلى، وهو فن لو تعلمون عظيم، كما تدرس شيئاً عن التمريض، وتتعلم الحلال والحرام، والخياطة والتطريز. ولعلنا نلحظ أن دولاً أنشأت مدارس لهذا الغرض، كاليابان مثلًا، فهناك مدارس الخطيبات مهمتها إعداد الفتيات لحياة زوجية فى بيت يغلِّفه دفء العاطفة، وتَفْهِيمِهِنَّ كيفية إعداد المنازل، وذلك حتى يعددن للوطن شباباً وشابات يغرسن فيهن الحرص على رقى المجتمع، والتمسك بالنظام العام، والحرص على طلب العلم. وللفتاة إنْ شاءت دراسة غير ذلك ـ بشرط الحفاظ على الآداب العامة، والأخلاق الفاضلة، والقيم الموروثة من الدين والبيئة والأسرة ـ وبذلك يكون ميدان الفتاة أشرف ميدان، ورسالتها فى الوجود أسمى الرسالات.

قالت الفتاة: إن ما قلته عن تفوُّق الرجل على المرأة ليس قاعدة دائمة، لأننا نلحظ تفوق البنات على البنين فى الوقت الحاضر فى امتحان نهاية العام، ولعل ذلك يرجع إلى قوة الطاقة الذهنية عند البنات. قلت لها: لا، فإن هذا التفوق فى امتحان الشهادات وظاهرة تفوق البنات فيه، مردُّه إلى:

١ ـ البيئة الاجتماعية التى تمنع البنات عن اللعب فى الشوارع كالبنين.

٢ ـ الفتاة فى الفصل الدراسى تراجع دروسها أولاً بأول، وتصغى جيداً إلى المدرِّس ولا تعانده كما يفعل الشباب.

٣ ـ جلوسها فى البيت وعناية الأهل بها، ورعايتهم لها، ومتابعتهم معها، وعدم السماح لها باللعب فى الشارع كما هو الحال مع البنين، كل ذلك جعل الفتاة تتقدم على الفتى فى الامتحانات وتتفوق عليه.

قالت محدِّثتى: شىء جميل جدًّا، ونحن لا نختلف، لكن ماذا تقول فى ذاكرة التاريخ التى سجَّلت لنا ما للمرأة من باع طويل فى علم القضاء، أو الكيمياء، أو الاجتماع، أو السياسة، وكم كان لها من تأثير بالغ حفظته ذاكرة التاريخ، ونذكر

فى هذا المجال إمبراطورة روسيا «كاترينا الثانية» التى كان يلقِّبها «فولتير» برجل أوربا العظيم، ومثل «جان دارك» التى أنقذت وطنها من الاحتلال الأجنبى برغم أنها أُعدمت حرقاً بعد أن تحكم الأعداء فى وطنها، كذلك «شارلوت كورديه» الفرنسية التى قادت ثورة ضد الطغاة، والسيدة العظيمة «مدام دوستال» وما تكبَّدته من حرارة النفى لدفاعها عن الحرية فى عهد نابليون، والكاتبة السويدية «فريدريك بريمور» التى وجَّهت نداءً إلى نساء العالم طالبت فيه بتكوين اتحاد عالمى للسلام، والسيدة «جوليا وردهو» التى طلبت أن تلقى كلمة فى مؤتمر السلام المنعقد فى باريس عام ١٨٧٨ ميلادية.

كذلك فى سنة ١٨٨٩ م ألَّفت مدام «برنافون سوتنتر» كتاباً بعنوان: «ألقوا السلاح»، وهذه المرأة بهذا الكتاب خدمت قضية السلام، وفى سنة ١٨٨٨ تأسس فى أوربا المجلس النسائى الدولى، وكان شعار هذا المجلس «عامِلِ الناسَ بما تُحب أن يُعاملوك به»، وظهر فيه العديد من نوابغ الخطيبات، ودعوتهن إلى تقوية حركة السلام العالمية. وهذا المجلس لا يبث دعوة سياسية معينة لصالح دولة، بل الكل يبذل جهده لنشر العدالة الاجتماعية فى المجتمع الإنسانى. والتاريخ لا ينسى أنه فى سنة ١٩١٥ م تأسست فى أمريكا أول جمعية نسائية غرضها الدعوة إلى السلام، كما أن نساء هولندا عقدن مؤتمراً فى «لاهاى» حضره نساء الدول المتحاربة من اثنتى عشرة دولة، وإنْ تعجب من أنه كيف يجتمع هذا العدد من دول متحاربة فى مكان واحد، وعلى منبر واحد، هو الدعوة إلى السلام، فلأن هذا العدد من النساء أرهقتهن الحرب كما أرهقت الأطفال والشيوخ. إن هذه التجمُّعات النسائية لم تكن لها صبغة سياسية، وإنما العمل فى حد ذاته لنشر الغايات الاجتماعية النبيلة، وفى مقدمة ذلك تكوين الأمهات تكويناً يجعلهن يفضن إحساساً بالوطنية والتمسك بالقومية، والعناية بالطفل، لأنه رجل المستقبل، ترعاه الأم، كما أن عليها أن تضفى على المنزل جوًّا من السعادة، ليجد الرجل فيه أمنه وراحته، ويتزود فيه بأطيب زاد ليخرج إلى العمل وهو مستقر الفكر، هادئ النفس، مستريح البال، مطمئن على أولاده وعشّه، حيث الزوجة الحانية الأمينة، والأم الرَّؤوم.

وإذا كنا نضرب أمثلة على مكانة المرأة فى التاريخ فلا يفوتنا أن ننوّه (بمدام كوري) التى تُعَدُّ حياتها درساً عظيماً للعمل العظيم، والكفاح الشريف، والجهاد المستمر فى سبيل العلم لتحقيق حياة أفضل، مع تقديم خدمة للإنسانية.. هذه المرأة التى شاطرت زوجها فى بحوثه العلمية وأنجبت طفلين لم تهمل بيتها، ولم تتخلّف عن العمل، ولما مات زوجها عرضت عليها الحكومة معاشاً لكنها رفضت، وأصرت على الرفض وقالت: إنِّى لم أزل أعمل، وأنا صغيرة. ولما اكتشفت «الراديوم» واشتهرت توافَدَ عليها الزوار، فكانت تنزوى فى البيت وتقول: لقد أفسد علينا الصيت حياة العمل والعلم التى كنا نحياها.. كذلك بزغ نجم «سيزبتشر ستو» الأمريكية التى ألّفت كتابها «كوخ العم توم» شارحة فيه كل ما يقاسيه الأَرِقَّاء من ظلم صارخ، وقد نبَّهت الشعور الإنسانى إلى ما يلاقيه أولئك البؤساء التعساء، فغزت بفكرها أنحاء العالم المتمدِّن، وبهذا تيقَّظ الضمير العام وعطف على العبيد الذين جُلبوا من إفريقيا، وكانت ثورة «إبراهام لينكولن»، وقام بثورة تحرير العبيد وإلغاء النخاسة، وسجَّل التاريخ بمداد من الفخر والاعتزاز هذا الجهد المبذول لخدمة الإنسانية المعذَّبة.

قلت لمحدثتى: رويدك يا فتاة، إن ما تتحدثين عنه من نبوغ المرأة الغربية وقيادتها لكثير من الأمور كل ذلك أخذته من نهضة المرأة العربية إبَّان حُكم المسلمين لبلاد الأندلس، لأن الحضارة دخلت أوربا منها، وإذا كنت تتحدثين عن الغرب فَلِمَ لا تتعرضين للمرأة فى الشرق؟ أما سمعتِ عن اليابان وحركة النساء فيها؟ والصين التى بدأت النهضة النسائية فيها حوالى سنة ١٨٩٤ م، لأن التقاليد لم تكن تسمح للمرأة بمزاولة أى شىء، ولا تعترف لها بشخصية ولا إرادة، وفى عام ١٩١٤ م دخلت الفتاة الصينية الجامعة، وفى عام ١٩٢٢ م طالبت بحقها فى الانتخابات، وأصدر النساء جريدة «مملكة السماء» كل من فيها نساء، كما تأسس مصرف للنساء نجح تماماً.. وما دمنا عَرَّجنا على بلاد الشرق فلا بد أن نزور الهند، لأن بها تأسست جمعية نسائية سنة ١٩١٩ م، ولها ثمانون فرعاً فى أنحاء الهند، وهدف هذه الجمعية بفروعها محاربة «البغاء» وتعدد الزوجات، والزواج

المبكر، وكانت الجمعية تشمل جميع النساء، بغضّ النظر عن اختلاف أجناسهن وعقائدهن وعاداتهن، كما حاربت الجمعية مبدأ حرق المرأة مع زوجها إذا مات، وأباحوا لها أن تتزوج بعد وفاته، وكان لذلك أثره فى نهضة المرأة المسلمة وظهور شخصيتها، حيث مارست الطب وعملت طبيبة ومُدرِّسة، ثم شاركت فى حركة التحرير التى قادها «محمد على جناح»، فاستنهضت الهمم، ولن ينسى التاريخ موقفها، لأنها أنشأت جمعية «العصبة المسلمة» للدفاع عن حقوق المسلمين فى الهند، ولقد برزت شخصيات ولمعت أسماء للدور العظيم الذى أدَّته على مسرح الحياة، ومن هؤلاء السيدة «فيروز خان»، والسيدة «بيكم شاه فواز»، والسيدة «فاطمة بيكم»، وغيرهن كثيرات، بل لقد دخل السجن منهن كثيرات، علاوة على من استشهد منهن، ونتيجة لذلك تحررت باكستان، وكان ذلك من عام ١٩٣٧ إلى عام ١٩٤٧ م. ولقد أثَّر ذلك فى أندونيسيا، حيث قامت نهضة نسائية، وقامت السيدة «أجنيج كاريتينى» بنشر عدة مقالات بعنوان: (من الظلمات إلى النور)، وكان لذلك أثره فى نهضة المرأة هناك، وتمّ فتح مدرسة عام ١٨٩٥ م.

فإذا ما انطلقنا إلى فارس فى منتصف القرن التاسع عشر فإننا نجد المرأة حاولت أن تتحرر من تقاليد الجمود الذى خيَّم على جوّ البلاد، وكان لشخصية «رزين تاج» الملقَّبة بقرة العيون أثر فى تحرير المرأة، إلا أنها كانت تؤمن بالبهائية وتدعو إليها، لذلك قضى عليها ملك الفرس «شاه محمد شاه»، وقادت الحركة بعدها الآنسة «شمس المعالى» التى كانت تتَّسم بالشجاعة، ولقد تأزمت الأمور فى البلاد بسبب ضعف الحكومة فلم يكن أمامها إلا أن دخلت المسجد وصعدت المنبر واحتجَّت باسم نساء فارس على ضعف برلمان بلادها أمام التهديدات الروسية، ولم تكتفِ بذلك، بل قادت مظاهرة نسائية من ثلاثمائة امرأة خرجن من بيوتهن وتوجهن إلى البرلمان وهن يخفين المسدسات في طيات ثيابهن، وكانت لهن وقفة مشرفة أجبرت البرلمان على أن يقف ضد أطماع روسيا. وفى سنة ١٩٣٢ م عقد مؤتمر للنساء المسلمات تحت رعاية إحدى أميرات الأسرة المالكة الفارسية للبحث فى الشئون المختلفة. كذلك أفغانستان، قامت فيها نهضة نسائية، لكن كان الغرض

منها هو قلب نظام الحكم بقيادة الملكة «ثريا» التى ثارت عليها البلاد وخلعتها مع زوجها أمان اللّه خان».

من هنا يا فتاتى يتبين أن المرأة لم يَخْبُ ضوؤها، ولم تتكسر رايتها، ولم تتوقف حركتها إلا إذا عاقتها الظروف الاجتماعية والتقاليد البيئية، وبرغم ما مر بها من استبداد الرجل بشخصيتها واستهانته بها والتحكم فى مصيرها فإنها قاومت وصمدت، وتحركت على مسرح الحياة لتثبت وجودها كلما سنحت الظروف لها، لأنه من المعلوم ـ كما قلنا ـ أن المرأة جناح المجتمع الثانى لا ينهض الأول إلا به، فإذا كانت المرأة لاقت صنوف الاضطهاد فإن ذلك ليس لعيب فيها، ولا انتقاص من قدرها، ولا إهدار لكرامتها، وإنما مردُّ ذلك إلى عُرْفٍ اجتماعى خاطئ، أو تقليد أعمى، أو جهل بحقائق الأشياء.

قال أحد الجالسين ممن يدرسون فى كلية الآداب: إن تركيا اتجه الرأى العام فيها على يد السلطان محمود إلى إصلاح حال النساء والنهوض بهن، وفتح مدارس لهن، وعندما تولى «كمال أتاتورك» حكم البلاد كانت نهضة النساء سريعة، وعليها مآخذ: لأنه ساوى فى الميراث بين الرجل والمرأة، ومنع تعدد الزوجات، وأباح لها أن تتولى القضاء، وتعمل فى النيابة والمحاماة والبوليس، واشتغلت بالهندسة، وعملت عمدة فى القرى. لكن فى العراق أُنشئ ناد نسائى عام ١٩٢٥ م وركز نشاطه على محو الأمية فى البلاد، ويماثل ذلك فى سوريا ولبنان وفلسطين، وكانت هذه الجمعيات والأندية تقيم مؤتمراً سنويًا وتدرس فيه حقوق المرأة.

لكنَّ زميلًا رفع صوته قائلًا: لماذا لا تتحدثون عن إفريقيا، لأن فى شمالها تونس والجزائر ومراكش وقد تأخرت النهضة النسائية فيها عَمَّن سواها من بلاد الغرب، وذلك لشدة الوطأة العتيقة الناشئة من التمسك بالتقاليد من جهة، ومن ضغط الاستعمار من جهة أخرى، لكن الحرب العالمية نبهت الأذهان، وأثرت فى شرائح المجتمع، فهبت تلك الشعوب مطالبة بحقها، وفى مقدمتها المرأة، حيث قامت بمظاهرات نسائية يطالبن بما لهن من حقوق ضائعة. أمَّا فى أواسط إفريقيا فالطبيعة فيها قاسية، والحيوانات المفترسة كثيرة، والمرأة تحتمى بالرجل الذى

يحميها من الوحوش الضارية، لذا فالمرأة تعيش على الجهل والتخلف.

عند هذا الحديث توقفنا قليلًا وقلت لهم: سبحان الله مُقَلِّب الأمور، وخالق القضاء والقدر، جعل المرأة تعيش هكذا وهكذا، شأنها شأن التطور والرقى الذى يصيب البشرية بين حين وحين، أو بين مَدٍّ وجَزْر! لكن آخر انبرى بالحديث وقال: لماذا لا تتحدثون عن المرأة المصرية وأنتم تعلمون أن بعض العرب كانوا يدفنون البنات أحياء؟ إننا نجد هنا ـ فى مصر ـ أن فرعونها أمر بقتل الذكور وإحياء الإناث، أليس فى ذلك ما يوجب علينا أن نلقى عليها نظرة، خاصة فى أيام الحاكم بأمر الله الذى كان مصاباً بالاضطراب النفسى، لذلك أمر بمنع خروج النساء إلاَّ بالنقاب، ثم غَالَى فى استبداده ومنع المرأة من الخروج نهائيًا، ثم منع صُنع الأحذية للنساء حتى لا يستطعن الخروج من بيوتهن، ولما غضب التجار أمر بإغلاق مَحَالِّهم. كما أنه فى عهد المماليك كان محجوراً على المرأة ومُضَيَّقاً عليها، فما كان يجوز لها أن تظهر أمام الرجال، حتى ولو كان الطبيب، مهما بلغ بها المرض، فتسلم نفسها للقبر ولا تُعْرَض على الطبيب. ولما دخل نابليون مصر حمل شعاعاً من المدنية، وفى طيات ذلك بصيص من الحرية للمرأة، لكن مع الأسف، كانت حرية نجسة، لأنه أباح البغاء ونظم شئونه، وكان ذلك منزلقاً من مزالق الشر نصبه الغرب فى مصر الإسلامية، بل زعيمة العالم الإسلامى (بلد الأزهر الشريف).

وفى عهد محمد على أنشأ أول مدرسة للبنات (خاصة أنه تعلم القراءة والكتابة على يد سيدة فى القصر) كما يقول الكاتب الفرنسى «إدوارد جوان» مؤلف كتاب تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر. وفى عهد إسماعيل باشا، بَنَتْ زوجته مدرسة السنية بالسيدة زينب، وقادت النهضة النسائية وقتها، ثم جاء الشيخ رفاعة الطهطاوى فنادى بتعليمها، ولما أُنشئت دار الأوبرا خصص بها مكان للمرأة، وهذا اعتراف بمكانتها، ثم وفد على مصر جمال الدين الأفغانى، وكان لتوجيهاته أثر فى النهضة الفكرية، وقد استفادت منها المرأة، وظهر فى سماء الأدب «عائشة التيمورية» التى كانت تجيد اللغة العربية والتركية والفارسية، كما كانت على دارية

كبيرة بالأدب واتجاهاته ومدارسه. كما أن السيدة «زينب فواز» نبغت في الشعر، ولها آثار أدبية رائعة.

وبرز دور المرأة جليًا فى الصالونات الأدبية التى بدأت فى الظهور والانتشار وأدَّت المرأة فيها دوراً أثَّرَ فى فكرها الاجتماعى، لذلك رأينا البرنسيسة «عين الحياة أحمد» تنشئ مبرة محمد على، والسيدة «فاطمة هانم إسماعيل» كان لها الفضل فى إنشاء الجامعة المصرية، حيث أوقفت ٨٠٠ فدان، وتبرعت بحليها ومجوهراتها لهذا العمل الرائد الجليل، ثم ظهر على الساحة «قاسم أمين» الذى دعا إلى تحرير المرأة، وثار عليه الرأى العام، ورفض «عباس حلمى الثانى» أن يقبل منه كتاب «تحرير المرأة» الذى يقول فيه: «لست أقصد من تحرير المرأة خروجها على العادات والتقاليد، بل إننى أطالب أن تتمسك بعوائدنا الإسلامية وتحترمها، فهى مزاج الأمة، تتماسك به أعضاؤها، ولست ممن ينظر إليها نظرته إلى الملابس، تخلع ثوباً كل يوم لتلبس غيره، بل أريد أن تتحرر من حجابها المصطنع، لأننى أعتقد أن لردّ الحجاب إلى أصله الشرعى مدخلًا عظيماً فى حياتها المعيشية»، والذى نتبيَّنه أن دعوته كانت لتخليص المرأة من ظلم خاطئ، حاق بها، وكان يريد لها أن تُساير التطور الاجتماعى فى حدود الدين، لكن مع الأسف خرجت المرأة مبتذلة، واتهمه الناس بأنه السبب، لذلك نراه يقول: «إن الناس يتهموننى بأننى أتيتُ ببدعة، وفى أن ما أدعو إليه بدعة، لكن فى العادات لا فى الدين».

والعادة قوية التأثير تتغلب على كل شيء ، حتى الفضيلة والدين، والعلم هو الذى يستطيع فضح العادات السيئة وردها إلى الحق، والإسلام وحده هو الذى وعد المرأة بتحقيق حريتها، لكن المسلمين فى عصور الاستبداد ساء فهمهم للدين وللمرأة ولحقائق الحياة، ألم تسمع أن العمدة فى مصر فى عهد الاستبداد كان إذا ضاع منه عشرة جنيهات أخذ بدلاً منها مائة جنيه من الفلاحين، وإذا ضربه المدير «علقة» يعود إلى بلده فيضرب مائة فلاح، وفى هذه الآونة دوَّى صوت نسائى جديد، هو صوت السيدة «ملك ناصف» والمعروفة باسم «باحثة البادية» وكانت فى دعوتها الإصلاحية تعالج المشاكل بحكمة وروية، تأخذ من عبرة الماضى وأثره فى

حركة الحياة لتربطه بالحاضر، فهى تتبع السبيل الأمثل فى علاج مشكلة المرأة، ولقد طالبت بدخول النساء للمساجد ليتعلمن الدين، ويحضرن صلاة الجماعات، كما طالبت بجعل التعليم الابتدائى إلزاميًا للبنين والبنات، كما طالبت بتحديد حقوق تعدد الزوجات، لأنه انتشر بلا مبرر، وفيه سعة لواحدة وظلم لأخرى، والدِّين أَمَرَ بالعدل، وعدم صحة الطلاق فى غياب المرأة. وكانت قدوة فى ملبسها، حيث كانت ترتدى العباءة الفضفاضة مع غطاء الشعر.

ثم ظهرت السيدة «نبوية موسى» وكانت مدرِّسة فى وزارة المعارف، ونادت بالفصل بين الجنسين فى ميدانى العلم والتعليم، والمهنة والعمل، وإذا كان التعليم حقًّا للفتاة فعلى شرط احترام العادات والعُرْف وقيم الدين. لقد كانت مربية فاضلة، أسست مدارس بالإسكندرية، وبنت بها مساجد، وكانت شاعرة رقيقة العبارة. وهكذا كان الفضل للرائدات فى نشر هذه النهضة التى أخذت تنمو وتترعرع، واندفع فكر المرأة المصرية من عقاله، مما دفع بها أن تسهم فى مجال السياسة والاجتماع وغير ذلك، مما يتطلبه الوضع الاجتماعى فى هذه الحقبة من الزمن، وكان نتيجة ذلك أن شاركت المرأة فى ثورة ١٩١٩ م عندما ثارت مصر من أقصاها إلى أقصاها، ونزلت المرأة الميدان تجاهد وتجالد، وكان لربات البيوت والكريمات العفيفات دور كبير فى مشاركة الرجال واجباتهم الوطنية.

لقد أصرت المرأة أن تحضر الاجتماعات السياسية، وتشارك فى اللجان القومية، وتتردد على المساجد والكنائس لتقوية الحماس الوطنى فى نفوس الجماهير، ولقد شهد مسجد السيدة زينب أول اجتماع لهن حضرته حرم عمر سلطان باشا، وحرم راتب بك، وحرم خياط بك، وحرم رفيق بك، وغير ذلك كثيرات، على رأسهن السيدة «هدى شعراوى»، وكان الحماس يأخذهن فيقفن أمام مدافع الإنجليز فى المظاهرات الحماسية عندما نُفِىَ سعد زغلول وصحبه إلى مالطة، وتقدمت أم المصريين «صفية زغلول» هذه المظاهرات وقد أسدل النساء على وجوههن النُّقُب، وعلى أجسامهن الخُمُر، رافعات علم الوادى فوق رءوسهن وشارة سوداء كُتب عليها باللون الأبيض الاحتجاج على نفى سعد زغلول وصحبه،

وسارت هذه المظاهرة إلى أن وصلت إلى قنصلية أمريكا، لكن جنود الإنجليز اعترضوا مسيرة النساء، وصَوَّبُوا المدافع إليهن فما جَبُنَّ ولا انْثَنَيْنَ عن وِجهتهن، بل ظهرت الشجاعة عليهن. وقد وقعت السيدة «شفيقة محمد» شهيدةً سنة ١٩١٩ م، وكانت وحيدة أبويها، كما أن النساء اتفقن على مقاطعة الإنجليز وعدم شراء أى شىء له صلة بهم، وفى ٣١ ديسمبر ١٩٢١ أذاعت السيدة «صفية زغلول» بياناً على الشعب جاء فيه: «ضُمُّوا صفوفكم، وقَوُّوا أفئدتكم، وتجاهلوا الإنجليز، فلا معاونة ولا مساعدة، ولتكن جاليتهم بيننا كالجزيرة المنقطعة يفصلها عنا بحر من مَظالِمهم» إلى آخر ما جاء فى البيان.

وبسبب هذا البيان أقبل المصريون على بنوك الإنجليز يسحبون جميع أموالهم، كما وقف الطلبة أمامَ المحالِّ التجارية يمنعون الدخول إليها، لذلك أفلس عدد كبير من البنوك، وأغلقت بعض الشركات أبوابها، فأرسل اللورد «لوبى» إلى وزارة الخارجية البريطانية يوم ٥/ ١/ ١٩٢٢ يقول لهم: «التجار الإنجليز فى قلق. . المقاطعة تشتد. . مدام زغلول نشرت بياناً من نار على الشعب».

لقد كان لذلك أثره الطبيعى فى إشعال روح النهضة النسائية، خاصة بعد الحرب التى أحدثت اتجاهاً فى نفسية المرأة، فاندفعت إلى الحياة العامة، لكن أهل الرأى توجسوا خيفة من الرَّجَّات الاجتماعية التى تعقب الحروب، لذلك رفعوا لها رايات الإصلاح، وفتحوا لها الباب لتكوين الجمعيات، وإنشاء المستشفيات، وإعداد المشاغل للفتيات. وكان مِمَّا يُثلج الصدر ظهور جماعات نسائية تهدف إلى غايات نبيلة، وسائلها تكوين المرأة المسلمة المحتشمة والبيت المسلم المتمسك بالقيم الدينية والبيئة الإسلامية النظيفة الطاهرة مع الأخذ فى الاعتبار أنه إبَّان هذه الحركة كانت أعاصير المدنية الغربية تهبُّ على مصر وهناك موجة من التبرج والانحلال، ولكلٍّ أبواقه ومناصروه، وأصبح الوقت عصيباً، لكن ظهرت جماعة «الأخوات التيجانية» وكان لها أثر عظيم فى نشر روح الفضيلة والنقاء والصفاء، والتمسك بأهداب الشريعة. كذلك ظهرت جماعات «الأخوات المسلمات» التى تدعو إلى الالتزام بقيم الإسلام والعمل الاجتماعى المنظم. وأُنشئت جمعية الهلال

الأحمر، وغايتها مواساة الضعفاء والأرامل وذوى الحاجة، وجمعية الأميرة فريال، ثُمَّ أُسِّست «جمعية سيدات العشيرة المحمدية» وقامت بدور رائد عظيم فى المجتمع، ونهضت فى تحفيظ النساء القرآن الكريم، مع إعطائهن جرعة من الشريعة ومعرفة الحلال والحرام، وجماعة «السيدات المؤمنات» بمصر الجديدة، و«جمعية السيدات المسلمات» سنة ١٩٣٧ م، وكان لهن جهد عظيم فى إنشاء المعهد الدينى للفتيات، كما أَسَّسْنَ مشغلاً لتعليم الخياطة والتطريز، وصناعة السجاد.

وبجوار هذه الجمعيات الدينية كانت هناك اتحادات نسائية غلبت عليها السياسة، كالاتحاد النسائى، والحزب النسائى، وحزب بنت النيل، وكان الهدف منها هو إعطاء المرأة حق الانتخاب، والمشاركة فى العمل السياسى.

إنه من المعلوم أن نابليون ترك وصمة عار عندما أباح البغاء، والحرب خلَّفت وراءها المآسى الكثيرة، لذلك كان لوجود هذه الجمعيات والاتحادات أثر عظيم فى فتح آفاق اجتماعية أمام المرأة لتمتص الفراغ من حياتها، وحتى لا تنزلق فى أى شيء يهدر كرامتها، ويحطم إنسانيتها، ويتركها فريسة للهمّ والأحزان.

لكن الفتاة قالت: هل سمعتُم قول الشاعر الذى يقول:

مَجْدُ الفتاةِ مقامُها فى البيتِ لا فى العَمَلِ
والمرءُ يعمل فى الحقولِ وعرسُه فى المنزلِ
مَنْ للوليدِ يُعينُه فى لُبْسِهِ والمأكل
مَنْ للرِّضاعةِ والحَضانَةِ والنِّظام وما يلي
لكنْ إذا دَعَتِ الضَّرُورةُ للخروجِ فَحَيَّهَل
لا تنكسى أرضُ الشوارع بالإزار المُبْتَلِ
أمَّا الشُّعورُ فحُكْمُه فى الشَّرْعِ ليس بِمُعْضِلِ

قلت لها: يا فتاتى، لقد أصاب هذ الشاعر فيما قال، لكننا لا ننكر أن الجمعيات عندما قامت كان الوطن فى حاجة إلى هذا النوع من الخدمة، فليكن من المعلوم لنا أن العمل فى هذه الجمعيات تطوع وإسهام فى الخدمة الاجتماعية لله

وفى سبيل الوطن، خاصة عند الحروب أو الأزمات الاقتصادية أو الكوارث، ولكلٍّ مقامٍ مقالٌ.

ثم استطردت قائلًا:

إن هذه ليلة من ليالى العمر عظيمة، قضيناها نقلب فى صفحات التاريخ، وانتقلنا فى العديد من القارات، وعشنا فى تاريخ أولئك النسوة، ومجمل القول أن الكل أجمع على أن المرأة هى عماد الأسرة وقوامها وراعية البيت، وإذا كان لظهور أولئك السيدات ظروف خاصة دفعتهن إلى العمل فَكُنَّ كخوارق الطبيعة ومعجزاتها، وَكُنَّ كالأنجم الزهر تخترق أضواؤها الآفاق الملبّدة بالغيوم يبزغن فى أوقات الفتن والاضطرابات، ولا يغيب عن بالنا أن الحكومة الروسية التى نادت بالمساواة المطلقة بين الجنسين تراجعت عن ذلك، كما جاء ذلك فى بحث نُشر عام ١٩٤٤ م فى مجلة «الرسالة» بقلم الأستاذ عباس العقاد يقول فيه: «إن الحكومة الروسية أمرت بالفصل بين الجنسين فى دور التعليم بعد أن مزجت هذا التعليم سنوات متتالية على أساس المبدأ الشيوعى القائل بمساواة الرجل والمرأة فى الملكات العقلية والنفسية، وبَنَتْ هذه التفرقة على تحقق الفروق بينهما مع اتحاد السن والمجهود فيهما، وربما كان لهذا النهج الذى انتهجته روسيا أخيراً أثر فى اتجاهات التربية الجديدة وما تصدره من قرارات..»، ثم ختم كلامه منددًا بطُلّاب المساواة من الجنسين حيث يقول: «هذه هى الحقيقة التى ينبغى أن يتلقفها ببغاوات الصيحات الجديدة فى هذا الشرق المسكين، تلك الصيحات التى لا يصلح أن تتردد إلا فى الأقفاص التى تليق بها ولا تتجاوزها إلى حقائق الحياة وقواعد الآراء التى تُناط بها مصائر الأجيال».

ولعلَّ من المفيد أن ننقل هنا ما قاله الزعيم السوفيتى «ميخائيل جورباتشوف» فى كتابه «البروسترويكا»: «وغالباً ما ينظر إلى درجة تحرير المرأة كمقياس للحُكم على المستوى الاجتماعى والسياسى للمجتمع، لقد وضعت الدولة السوفيتية حدًّا للتميّز ـ ضد المرأة ـ الذى كان سائداً فى روسيا القيصرية بتصميم وبدون مساومة، وكسبت المرأة مكانة اجتماعية يضمنها القانون، وتتساوى مع مكانة الرجل، ونحن

نفخر بما قدمته الحكومة السوفيتية للمرأة، نفس الحق فى العمل كالرجل، والأجر المتساوى للعمل المتساوى، والضمان الاجتماعى، وأتيحت للمرأة كل فرصة للحصول على التعليم لبناء مستقبلها، وللمشاركة فى النشاط الاجتماعى والسياسى، وبدون إسهام المرأة وعملها المتفانى ما كان بمقدورنا أن نبنى مجتمعاً جديداً أو نكسب الحرب ضد الفاشية، ولكن طوال سنوات تاريخنا البطولى والشاق عجزنا عن أن نولى اهتماماً لحقوق المرأة الخاصة واحتياجاتها الناشئة عن دورها كأم وربّة منزل، ووظيفتها التعليمية التى لا غنى عنها بالنسبة للأطفال. إن المرأة غدت تعمل فى مجال البحث العلمى، وفى مواقع البناء وفى الإنتاج والخدمات، وتشارك فى النشاط الإبداعى، لم يعد لها وقت للقيام بواجباتها اليومية فى المنزل والعمل فيه، وتربية الأطفال، وإقامة جو أسرى طيب.. لقد اكتشفنا أن كثيراً من مشاكلنا فى سلوك الأطفال والشباب وفى معنوياتنا وثقافتنا وفى الإنتاج تعود جزئيًّا إلى تدهور العلاقات الأُسَرية، والموقف المتراخى من المسئوليات الأُسرية، وهذه نتيجة متناقضة لرغبتنا المخلصة والمُبَرَّرَة سياسيًّا لمساواة الرجل بالمرأة فى كل شىء. والآن فى مجرى البروسترويكا بدأنا نتغلب على هذا الوضع، ولهذا السبب فإننا نجرى الآن مناقشات حادة فى الصحافة، وفى المنظمات العامة، وفى العمل، وفى المنزل بخصوص ما يجب أن نفعله لنسهل على المرأة العودة إلى رسالتها النسائية البحتة».

هذا كلام رجل حَكَمَ ثانى دولة فى العالم، وهى التى تزعمت العالم فى النداء بالمساواة بين الرجل والمرأة، ودفعت بها إلى أن تنزل إلى كل مواقع العمل والإنتاج، وفى سبيل ذلك تفككت الأسرة وضاعت وانهارت.

وإذا أُصيب القومُ فى أخلاقهم   فَـأَقِـمْ عليهـم مـأتمـاً وعـويـلا

ولقد أقيم المأتم، وانتهت الشيوعية إلى غير رجعة، وتفككت أكبر دولة فى العالم، ذلك لأنه لا يصح إلاَّ الصحيح، ومن هنا بدأ أكبر مسئول فى الدولة ينادى بأن على المرأة أن تعود إلى المنزل، وترتب بيتها، وتحتضن أطفالها، وتؤصل فيهم قيم الحياة، وتغرس فيهم مبادئ المجتمع، وتلقِّنهم مبادئ الدين. هذا هو

نداء الفطرة، وهذا هو الحق الذى لا خلاف فيه. ولعل مَنْ يُخادع نفسه ويضلل فكره يثوب إلى رشده، ويستمع إلى هتاف ضميره ونداء الفطرة من أعماقه ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾[1]، وليس هناك داعٍ أن نغمض أعيننا عن الحق وننكر ضوء الشمس، بل علينا أن نقول: إن الرجوع إلى الحق فضيلة.

تلك ليلة كانت من أمتع الليالى، حيث قَلَّبْنا صفحات التاريخ، وصلينا الفجر بوضوء العشاء فى خير صُحبة من الشباب وبعض الفتيات. وهذه دروس مُسْتَفَادة نأمل أن تكون زاداً لشباب أُمَّتنا، وذكرى فى ضمير الأمة التى تتمسك بالدين، وتحافظ على القيم والتقاليد، وتعيش بروحٍ وثَّابة، وهِمَّة عالية، لتبنى فى صرح المجتمع الذى وَضَعَ له السابقون اللَّبِنات القوية فى كيان اجتماعى ترجو له التقدم والازدهار.

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٨٨.

المرأة في ذاكرة التاريخ

الكون فى سكون وخشوع، لأن القمر لفّه بملاءته البيضاء، وزاد من روعة الجلال والبهاء هذا الصحب الذى اجتمع ليتحدث عن خيل الليل وهى تعدو مسرعة من وادٍ إلى واد مُقْبِلةً من الشرق، حيث القمر يطوى مُلاءَته البيضاء ويلفّها فى الغرب، لأن جيش الظلام الزاحف من قِبَلِ المشرق يغطى الكون بملاءته السوداء. قال صاحبى: تَطَلَّعْ وانظُرْ معى إلى هذا القمر، إنه هو الذى أشرق لآدم وحواء ليلة هبوطهما من الجنة، فكافأه بكل ما قدرا عليه، حيث تبادلا معه الابتسام الذى بقى إلى يومنا هذا فى مسحة الجمال وجاذبية الحب!.

قلتُ له: الكون كله خاشع لله الواحد الأحد، وكل شىء فى الوجود له لغة يخاطب بها نظيره، والإنسانية لو تأملت هذا الجمال الإلٰهى المبثوث فى الكون لاستقامت على الجادَّة واهتدت إلى الصراط المستقيم، وأَمِنَ البعضُ من الكُلِّ، واستراحَ الكُلُّ من البعض، وعندئذ تتآلف البشرية، لأنها تشرب كئوس الحب طاهرة صافية، وكل واحد يعيش فى الدنيا يأخذ ما لَهُ ويعطى ما عليه بلا غشّ ولا خداع ولا مكر ولا خيانة، فى مجتمع متآلف متعاون، لا حقد فيه ولا حسد. لكنَّ زميلًا قطع هذا الحوار وقال: وماذا فى جعبة التاريخ عن حواء؟.

قال أحد الزملاء ردًّا عليه: إنها مظلومة ظُلْم الذئب فى دم ابن يعقوب.

قالَ آخر: تعالوا بنا نتعرف على ما كان يفعله المصريون مع المرأة. كان الرجل إذا أعجبته ابنته تزوجها، كما أن الأخ كان يتزوج بأخته، وليس هناك عقود موثقة، وإنما يتم ذلك بالتراضى بين الطرفين. وزاد الطين بلَّة أن اليونانيين عندما حكموا مصر منعوا المرأة من التصرف فى مالها، ولم يجعلوا لها حقًّا فى التملك، وصار كل شىء للرجل، لأنه مصدر الثروة وصاحبها، والمرأة فى نظرهم دون

الرجل، حتى وإن جلست على العرش. وفى بلاد فارس كانت المرأة حقًّا من حقوق الرجل، له قَتْلُها ـ ولا يُسْأل لِمَ فعلَ ذلك ـ والحُكْم عليها بما يشاء، لأنها فى نظرهم سلعة يتصرف فيها كما يتصرف فى أى شىء من متاعه، ولا حَظَّ لها من العلم، ولا يجوز لها أن تخرج من البيت إلا لخدمة الرجل. والمرأة فى شريعة البراهمة فى الهند منحطة، ولا يجوز لها أن تكلم الرجل إلا باحترام، كما كان المجتمع يمتهن الرجل الذى يُحادث زوجته أو أن تجلس معه على المائدة، لأنه لا يجوز للمرأة أن تحادث الرجل وتأكل معه، وكانت إذا مات زوجها ترقد بجواره على المحرقة ـ وهى بكامل إحساسها ـ لِتُحْرَقَ معه، ولا يجوز لها أن تعترض على أى شىء.

ويُذكر أن أميرين من الهند ـ منذ حوالى ثلاثمائة سنة ـ تزوج أحدهما بسبعة عشرة امرأة والآخر بثلاث عشرة، وقد رقد هذا العدد من النساء على المحرقة وهن بكامل صحتهن وأُحْرِقْنَ مع الزوج عندما مات. والحامل كانت لا تُحْرَق مع زوجها إلا بعد الوضع، فترقد على المحرقة التى أُحرق عليها زوجها لتحرق. ويحفظ التاريخ فى ذاكرته أن بعض الشرائع الهندية تقرر بأن المرأة إذا ماتت فلزوجها أن يتزوج فى أى وقت شاء، أمَّا الرجل إذا مات فإن المرأة تقضى بقية حياتها أرملة لا تتزوج، وتكون تحت وصاية أولادها، فإن لم يكن لها أبناء فهى تحت وصاية أقارب الزوج، لأنها ليس لها أهلية، ولأنها غير طاهرة. وعندما تلد المرأة فى عُرفهم تكون هى والبيت الذى وُلدت فيه غير طاهرين لمدة عشرة أيام، وإذا لم تلد المرأة ولداً فى مدة عشر سنوات يطلقها زوجها وليس لها أى حق.

وحديث المرأة عند اليابانيين ليس على ما يرام، لأنها فى نظرهم متاع، وقد أبيح للرجل أن يبيع زوجته أو ابنته، وظل الأمر على هذا الحال حتى عام ١٨٧٥ م فقضى على هذه العادة. والصين أباحت للرجل أن يجمع أكثر من مائة زوجة فى وقت واحد، كما كانت الفتاة تُعْزَل عن إخوتها الذكور، والمرأة عندهم تُحرم من ميراث زوجها أو أبيها. يقول «كونفوشيوس»: «إن الرجل رئيسٌ فعليه أن يأمر، والمرأة تابعة فعليها الطاعة».

أمّا الآشوريون والبابليون فكان الرجل فيهم لا يملك أن يزوج ابنته، وليس للمرأة أن تزوج نفسها، وإنما الأمر إلى الكهان، وقد كانت النساء يجتمعن مرة فى العام عند هيكل «ميلتيا» ربّة الجمال، لتهب المرأة نفسها لأى رجل أجنبى يمد يده إليها وتسير وراءه ما دام قد اختارها ولو كان دميم الخلقة، قبيح المنظر، فليس لها أن تردّ يده، ولا تخرج من الهيكل حتى تؤدى حقه الذى يريده منها، لأن طلبه أخذ حكم الفرض فى عرفهم، أمّا إذا كانت دميمة ولم يرغب فيها أحد فلها الويل من تبكيت النساء زميلاتها فى المعبد.

وهل أتاكَ حديث الرجل العربى الذى كان يحفر القبر لابنته ليضجعها فيه، فى حين كانت هى تبتسم له براءة وتنفض الغبار عن لحيته ووجهه، ومع ذلك يهيل التراب عليها وهى حية، وتنقلب الابتسامة إلى صراخ، وتناديه فلم يَرِقّ قلبه، ولم تلن عاطفته، بل يطأ بقدميه على القبر ويتنهد كأنه أزاح الهَمَّ عن نفسه!.

ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد من القبائل التى تفعل هذا، بل كان هناك من يتشاءم من ولادة الأنثى، فإن أبقاها حية فليس لها حق فى اختيار الزوج، وليس لها عنده حقوق، فلا تَرِثُ بل تُوَرَّثُ كالمتاع، وكان الولد أحق بزوج أبيه، لأنها ميراثه. ولقد كان وَأْد البنات يتم لسببين: السبب الأول خشية العار، والسبب الثانى الخوف من أن تشارك الفتاة أباها فى الطعام وتطلب منه الكساء.

وكان من فضل الله أن عادة الوَأْد كانت فى قبائل محدودة من قبائل العرب، كربيعة، وكندة، وتميم، وبعض الأشخاص المغمورين من قبائل العرب، ولو أن هذه الجريمة الموبقة انتشرت بين جمهور العرب لما كان هناك بقاء للجنس العربى، لكن - والحمد لله - كان الوأد محصوراً فى أماكن قليلة من الجزيرة العربية.

لقد كان الوَأْد أشدَّ وأشنع ما اقترفته يد الإنسانية الظالمة فى نفس بريئة طاهرة، لأن الرجل الذى يعمد إلى وليدته التى بدأت تستقبل الحياة وتستنشق نسيمها فيقذفُ بها فى حفرة ويُهيل التراب عليها، تستغيث فلا تُغاث، ذلك الرجل - أو الأب - ذهبت بعقله الغيرة العمياء، فتبلّدت أحاسيسه، وماتت مشاعره.. ولكن ما كان الله لِيَذَر المرأة على ما هى عليه، فبين الحين والحين كانت تظهر

صيحات لتأخذ بيد المرأة وتجعلها تتبوأ مكان الريادة فى المجتمع . . إن نظرة المجتمع العالمى إلى المرأة آن ذاك انعكست عليها، فأحاط بها الذل من كل جانب، وظلت ترزح تحته ردحاً طويلًا، فتعطل بذلك أحد جناحى المجتمع، وَوُضِعَتْ حولها أمثلة لتبرر ما يُفْعَلُ بها. فمثلًا:

المثل الصينى يقول: «أنصتْ لزوجتك ولا تُصَدِّقْها».

والمثل الأسبانى يقول: «احْذَرِ المرأة الفاسدة، ولا تَرْكَنْ إلى المرأة الفاضلة».

والمثل الإيطالى يقول: «العصا للمرأة الصالحة والطَّالحة».

والمثل العربى يقول: «مشورة المرأة إنْ صَحَّتْ فبخراب سَنَةٍ، وإنْ أخطأت فبخراب الدهر كله».

ويقول المثل العربى أيضاً: «شاوِرُوهُنَّ وخالِفُوهُنَّ».

ذاك مما وعاه التاريخ فى ذاكرته، والتاريخ لا يكذب، لأنه يقول للإنسانية بأسرها: هاؤُمُ اقرءوا كِتابِيه، لأن كل ما صنعتموه مُسَجَّلٌ على جبينى، ومحفور فى ذاكرتى، وإنْ كانت عقولكم تنسى، لأن العلَّة تعتريها والمرض يصيبها، أما أنا، فأنا السِّجل الحافل، والكتاب الشاهد على أعمالكم، وذاكرتى لا يعتريها علل ولا أمراض.

ولعلنا نذكر أن الذين وضعوا الأمثال ضد المرأة قابلهم فئة أخرى فوضعوا أحاديث نسبوها إلى رسول الله ﷺ، والرسول منها براء، مثل ما رواه الحاكم: «لا تسكنوهن الغرف ولا تعلموهن القراءة»، وكذلك: «دفن البنات من المكرمات»، وكذلك: «نعم الختن القبور»، وما نسبوه إلى الإمام على كرَّم الله وجهه: «المرأة شر كلها، وشر ما فيها أنه لا بد منه». وهذه أحاديث حكم عليها علماء الحديث بالوضع، لأنه كلام لا يليق أن يُقال من مصلح عظيم جاء لرفع الإصْرَ والعَنَت عن المرأة التى قيل فيها:

إنَّ النساءَ رياحينٌ خُلِقْنَ لنا   وكُلُّنا يشتهى شَمَّ الرياحينِ

لكن ردَّ عليه المتشائمون فقالوا:

إن النساء شياطينٌ خُلِقْنَ لنا   نعوذُ بالله من شر الشياطين

إن الجَهَلة أرادوا أن ينحرفوا عن تعاليم دينهم فى معاملة النساء، لذلك قال أحدهم: «إن المرأة لا تخرج من بيتها إلا فى حالات ثلاث:

الأولى: من بطن أمها إلى بيت أبيها.

والثانية: من بيت أبيها إلى بيت الزوج.

والثالثة: من بيت الزوج إلى القبر.

وما عدا هذا فإن المرأة لا ترى أحداً ولا يراها أحد.

ويقول قائل:

أُحِبُّ بُنيتى ووددتُ أنّى   دفنتُ بُنيتى فى قاع لَحْدِ

وما بى أن تهون علىَّ لكنْ   مخافةَ أن تذوق الذُّلَّ بعدى

فإن زَوَّجتُها رجلًا فقيراً   أراها عنده والهَمُّ عندى

وإن زوَّجتُها رجلًا غنيًّا   فيلطم خَدَّها ويسبّ جدِّى

سألتُ الله يأخذها قريباً   ولو كانت أحبَّ الناسِ عندى

وكأنى بهؤلاء لم يقرءوا القرآن الكريم، ولم يتعرفوا على ما فيه من خير بالنسبة للمرأة، فلقد ذكرها الله سبحانه وتعالى فى مواضع كثيرة، ونَبَّهَ إلى ما لها من كرامة، وأنها شقيقة الرجل وشريكته فى المسئولية، لذلك ذكرها الحق سبحانه وتعالى وذكر أمثلة تدل على عُلُوِّ مكانتها، وسُموِّ نفسها، وعظيم قدرها. من ذلك:

«أُمُّ موسى» التى قال الله تعالى فيها: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾[1].

والغرض هنا الإلهام، ولا يكون إلا للنفس الزكية.

ومنهن أيضاً «أخت موسى» التى أخبر الله تعالى عنها فى كتابه العزيز ما يدل

---

(١) سورة القصص.

على حُسْن تصرفها فى نفس السورة، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾[1].

ومنهن «امرأة عمران» التى قال الله فيها: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾[2] دليل على سلامة القلب، وطهارة النفس، وحُسن الصلة بالله.

ومنهن أيضاً «مريم» التى أُنزلت سورة تحمل اسمها فى القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾[3] مما يدل على الحسّ المرهف، وقوة الصلة بالله، والقدرة على التحكم فى العواطف امتثالاً لأمر الله.

ومنهن أيضاً «امرأة فرعون» التى قال الله فيها: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾[4].

إن الإيمان بالله يقوّى الإنسان على تحمُّل الشدائد، واللجوء إلى الصبر يقوى العزيمة فتهون الدنيا وما فيها.

كما يحدثنا القرآن الكريم عن اصطفاء الله تعالى لمريم وجعلها مثلًا فى الطُّهْر والنقاء، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[5] والطهر والعفاف دليل على رضاء الله جلّ وعلا.

وقال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾[6].

---

(١) سورة القصص.
(٢) سورة آل عمران.
(٣) سورة مريم، الآيات ١٦ ـ ٣٥.
(٤) سورة التحريم.
(٥) سورة آل عمران.
(٦) سورة التحريم.

أمَّا عن «بلقيس» ملكة سبأ فقد بَيَّنَ القرآنُ حُسْنَ إدراكها للأمور، مع سياستها الحكيمة، وحرصها على الشورى، وقيامها برئاسة المملكة، نقرأ فى ذلك من القرآن الكريم[1] مما يدلُّ على تميزها بسعة الأفق وحُسْن الإدراك فى تصريف الأمور، مع قوة الإرادة وبُعد النظر.

أمَّا عن «فَتاتَىْ مَدْيَن» فقد أخبر القرآن الكريم عن قصتهما مع موسى عليه السلام، وبَيَّنَ أن البنتين قامتا بعمل جليل فيه دَخْل للأسرة لتحصينها من غوائل الفقر ـ خاصة أن أباهما شيخ كبير ـ والعمل ليس عيباً ما دام فى حدود الشرع[2].

ويتبين مما أوردناه ـ وهو قليل من كثير ـ أن المرأة لم تكن كَمًّا مُهْمَلًا كما يزعم البعض، وإنما هى شريكة الرجل، كما أنها تتلقى الخطاب معه لتقوم بالعمل العظيم الذى ينفعها ويعود عليها بالخير وعلى وطنها بالرفاهية، فالرسول عليه الصلاة والسلام ـ وهو المفسر لآيات القرآن الكريم ـ يرشدنا إلى تعليم المرأة، وأن نقوم على تأديبها ورعاية شأنها، فيقول فيما رواه البخارى: **«أيُّما رجل كانت عنده وليدةٌ فعلَّمها فأحْسَنَ تعليمها، وأدَّبَها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»**.

كما أن المرأة كانت تشارك الرجل العبادة فى المسجد، فقد روى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها، قالت: «كُنَّ نساء المؤمنات يَشْهَدْنَ مع رسول الله ﷺ صلاة الفجر مُتَلَفِّعات بمُرُوطِهِنَّ ثم يَنْقَلِبْنَ إلى بُيوتهن حتى يَقْضِينَ الصَّلاةَ لا يعرفهن أحد من الغَلَسِ».

كما كانت تشاركُ الرجلَ صلاة الكُسوف والخُسوف، والجنازة، وصلاة العيد. فقد رَوَى البخارى ومسلم عن أُم عطية رضى الله عنها قالت: «أُمِرْنا أن نَخْرُجَ ـ أى فى صلاة العيدين ـ فنُخْرِجَ الحُيَّضَ، والعواتِقَ، وذوات الخدور» ـ وفى رواية: العواتق ذوات الخدور ـ فأمَّا الحُيَّضُ فَيَشْهَدْنَ جماعَةَ المسلمين ودَعْوَتَهُمْ ويعتَزِلْنَ مُصَلَّاهُم»[3].

---

(١) سورة النمل، الآيات من ٢٠ إلى ٤٤.

(٢) سورة القصص، الآيات من ٢ إلى ٢٨.

(٣) وعِلَّة الحكم من حضور الحُيَّض وغيرهن صلاة العيد هي: شهودهن الخير ودعوة المسلمين ورجاء بركة ذلك اليوم وطهرته. والحديث رواه البخاري من كتاب «العيدين»، =

ومما لا شك فيه أنه كانت تقع بعض الهفوات من شخصيات عندها ضعف فى الدين، من ذلك ما رُوِىَ من أن أميراً من العرب يُكَنَّى بأبى حمزة، تزوج بامرأة فولدتْ له بنتاً، فهَجَرَ منزلها وتزوج بغيرها، ثم بعد فترة مَرَّ ببابها فسمعها تداعب طفلتها وتقول:

ما لأبى حمزة لا يأتينا   يَظَلُّ فى البيت الذى يلينا

غضبانَ ألاَّ نلد البنينا   تالله ما ذلك فى أيدينا

وإنَّما نأخذُ ما أُعْطِينا

ففكر الرجل فى كلام زوجته فأيقن أن الأمر ليس بيدها، وإنما هو بيد الله سبحانه، الذى يعلم ما تَحْمِلُ كل أنثى وما تَغِيضُ الأرحامُ وما تزداد، وهو الذى يخلق ما يشاء، ويفعل ما يريد، كما قال جلَّ شأنه: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾[1].

إن الإسلام يدعو إلى العدل الشامل والمساواة المُطْلقة بين الذكر والأنثى فى الحقوق والواجبات من العطف الأبوى، لقول الله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[2]، ولقول الرسول ﷺ: «اعدلوا بين أبنائكم». ولا يليق بالمسلم أبداً أن يُميِّز ولده عن ابنته مهما كانت الأسباب، لذلك خَصَّ الرسول ﷺ البنات بالذِّكْر، وأمر الآباء والمعلمين بحُسن صحبتهن، والعناية بأمرهن، والقيام بشأنهن. ففى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عُقْبَة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كانت له ثلاثُ بناتٍ فصبر عليهن وكساهن من جِدَته**» ـ أى ماله ـ «**كُنَّ له حجاباً من النار**»، وفى حديث آخر: «**من كان له ثلاثُ بناتٍ، أو ثلاث أخوات، أو بنتان، أو أختان، فأحسن صحبتهن، وصبر عليهن، واتقى الله فيهن دخل الجنة**».

= باب: «اعتزال الحُيَّض المصلى»، وباب: «إذا لم يكن للمرأة جلبابٌ من العيد». ورواه مسلم في كتاب «صلاة العيدين»، باب: «إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلى».

(١) سورة الشورى.

(٢) سورة المائدة، الآية ٨.

إن الرجل العاقل يفرح بما رزقه الله، ويرضى بما هو مقسوم له، لأن النساء شقائق الرجال، وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)﴾[١]. لهذا كان من الصفات المذمومة أن يكتئب الرجل ويحزن أو يذهب عقله إذا بُشِّرَ بالأنثى، فهو لا يدرى أين الخير؟ وأيضاً إذا طالَبَ الرجل زوجته بالولد الذَّكَر، وليس الأمر بيدها، فهى تريد أن تُسعد زوجها لتعشش على أسرتها ولكن ما حيلتها؟

وأذكرُ فى هذا المقام جاراً لى تزوج، وبعد الزواج اشترط على زوجته أن تُنجب ولداً وإلاَّ فالويل لها، وحملت الزوجة وجاءت بتوأم: بنتين، ولطَمَ الرجل على خَدِّهُ، وبرَّ بشرطِهِ، وسَرَّح زوجته، وتزوج، وإذا بالزوجة الثانية تلد ثلاث توائم، كلهن بنات، وأمسك الزوج زوجته الثانية على مَضَضٍ، وإذا بها تحمل للمرة الثانية ويكون النتاج بنتين، وأمسك الرجل لسانه، وراجَعَ زوجته الأولى، وبعد مدة تحمل هذه الزوجة ـ الأولى ـ وتضع توأماً ذكَرَيْن، وعادت الابتسامة إلى الرجل، وكان هذا سوءَ تصرُّفٍ منه، لذلك أعجبتنى ما كتبته السيدة «مى شاهين» فى جريدة «الأخبار»[٢] تحت عنوان «أبو البنات» تقول:

«اتصلت بى تلفونيًا سيدة متعلمة فاضلة وقالت: إنها تحمل هموم الدنيا على رأسها وتوشك أن تُصاب بانهيار عصبى، ولما سألتُها عن السبب قالت: إنها أُمٌّ لأربع بنات جميلات، متفوقات فى الدراسة، وهى تنتظر المولود الخامس، وكل ما ترجوه أن يكون ذكراً، فقد هدَّدها زوجها بالطلاق والزواج بأخرى إذا أنجبت بنتاً خامسة. . وما أكثرَ الأزواجَ الذين يفكرون بنفس هذا الأسلوب العقيم، وكان يمكن تبرير هذا الوضع فى الماضى عندما كان الفتى كل شىء وكانت الفتاة تكتفى

(١) سورة الأحزاب.
(٢) بتاريخ ٢٤/١١/١٩٩٦م ـ ١٣ رجب ١٤١٧ هـ ـ العدد (١٣٩٠٣).

بالحصول على قسط قليل من التعليم ثم تبقى فى البيت انتظاراً لوصول ابن الحلال، وبعد الزواج تكون مهمتها القيام بأعمال البيت: منْ طَهْى، وتنظيف، وغسيل، كما تتحول إلى أرنبة تلد طفلًا كل عام، أما اليوم فقد اختلف الوضع بعد أن تحررت المرأة وتعلمت، وأثبتت نبوغاً وكفاءة فى كل مجالات العلم، وتفوقت على الشبان فى كثير من الأحيان، كما اقتحمت ميادين العمل».

قالت لى سيدة كريمة: إن زوجها طلَّقها منذ عشرين عاماً بعد أن أنجبت ثلاث بنات، وبعد شهور قليلة من الطلاق تزوج ثانية، وكانت فرحة لا تُوصف عندما أنجبت زوجته الثانية ولداً، فقد أحاطه بكل الحب والرعاية والاهتمام، وفى الوقت نفسه تنكَّر لبناته الثلاث ولم يعد يزورهن إلا نادراً، بل امتنع عن الإنفاق عليهم، وقد استطاعت الأم الحانية بعملها وكفاحها وتضحياتها أن تُرَبِّى بناتها أحسن تربية حتى التحقن بالجامعة، ومرت الأعوام، وانتهى الابن «الدلوعة» وآخر العنقود من دراسته، وسافر للعمل فى الخارج، ومرض الأب بمرض خبيث ولزم الفراش، ولم يحاول الابن أن يأخذ إجازة ويعود إلى الوطن ليطمئن على أبيه، أمَّا البنات الثلاث فقد أَحَطْنَ الأب بكل رعاية، وتفانت كل واحدة فى أن ترعاه وتخدمه وتمرضه حتى لفظ أنفاسه وهو يبكى أسفاً وندماً.

وقالت لى طبيبة شابة: إن أباها يقسو عليها ويسىء معاملتها، كما أن أمها تنهرها وتأمرها بخدمة أخيها الأكبر، وسافر الأبوان للعمل فى الخارج، وكانا يرسلان للابن مبالغ طائلة كل شهر، وكانت النتيجة أن انحرف الشاب وهو طالب فى كلية الطب وأدمن المخدرات، فى حين عكفت أخته على الدرس والتحصيل حتى نجحت بتفوق وتخرجت فى الكلية، وبدلاً من أن يفرح الأبوان بنجاحها وتفوقها غَضِبا عليها لأنها سبقت أخاها، والمفروض - فى نظر الأب - أن ينجح الابن ويصبح طبيباً، ولا مانع من أن تتخلف البنت!.

وسمعت أيضاً قصة خمس شقيقات نابهات تخرَّجْنَ جميعاً فى كليات مختلفة، وبدأْنَ الحياة العملية، وقد أصر الأب على أن يكون له ولد، وتحقق حلمه، إلا أن الصبى وُلِدَ متخلفاً فى العقل، وزاد تخلُّفه مع كِبَرِ سِنِّه، ولم يفلح

فى الدراسة برغم اهتمام أبيه ومساعدته له بالدروس الخصوصية فى كل مادة، ولما يئس الأب من نجاحه فتح له دكاناً صغيراً لبيع الأدوات المدرسية، إلا أنه أفلس بعد عدة شهور، ومات الأبوان، ولا يزال الولد المتخلف يعيش عالة على شقيقاته النابغات، بل لقد رفضت إحداهن الزواج حتى تُؤوى أخاها فى شقتها، فالمعروف أن البنت أكثر حناناً وعطفاً على أبويها من الولد، وخاصة بعد الزواج، فهو ينشغل بزوجته وأولاده، ولا يزور أهله إلا نادراً.

فيا سيدى الأب الذى يُفضِّل الولد على البنت، ليتكَ تَرْضَى بنصيبك وتتذكر أن الله العَلِىَّ العظيم هو وحده الذى يرزق من يشاء ذكوراً ومن يشاء إناثاً، ويجعل من يشاء عقيماً. . إن العطاء من الله، ولا ندرى أيهما أحسن إلينا نَفْعاً، لذلك علينا أن نرضى بعطاء الله، وأن نُحسن إلى أولادنا لنساعدهم على رحمتنا، ورَحِمَ الله والداً أعانه ولده على بِرِّه، وأقام العدل بين أولاده ذكوراً أو إناثاً، ويكون العدل بينهم حتى فى القُبَل، لأن الحنان من الأب والأم عائد عليهما فى الكبر من أولادهما، فلتكن نظرتنا إلى أولادنا نظرة رضًى وحُبّ وحنان، ورحم الله والداً أعان ولده على العطف عليه فى طفولته الأخيرة، أى عند الشيخوخة والكبر.

* * *

ويُذْكَر أن أعرابيًا تزوج على زوجته الأولى، لأن زوجته الأولى ولدت له بنتاً، فولدت الزوجة الثانية الجديدة ولداً، فكانت تُرَقِّصُه وتغنى له بقولها:

الحمد لله الحميد الغالى ... أنقذنى اليوم من الجوالى
من كل شَوْهاءَ كشنٍّ بالِى ... لا تدفعُ الضَّيْمَ عن العيالِ

وكلامها يعنى أن الله أنقذها من إنجاب البنات، لأن البنت كالقربة البالية لا تدفع الضَّيْمَ عن العيالِ، ولا تُعين الأُسرة على نكبات الزمن. فسمعتها الزوجةُ القديمة، فرفعت بنتها وقالت:

وما عَلَىَّ أن تكونْ جاريهْ ... تغسلُ رأسى وتكون الغاليهْ
وترفع الساقط من خِمارِيَهْ ... حتى إذا ما بلغت ثمانيهْ

آزرتُهـــا بنقبـــة يمـــانيـــهْ   أنكحهـــا مـــروان أو معـــاويـــهْ
أصهار صِدْقٍ ومهور غاليهْ

وقد سمع غناءَها مروانُ فخطبها لنفسه على مائة ألف مثقال، وقال: إن أمها حفية ألاَّ يكذب ظنها، ولا يُخانَ عهدها. وقال معاوية: لولا أن مروان سبقنى فخطبها لخطبتُها وضاعفتُ لها المَهر، ولكن لا تُحْرَم الصِّلَة، فبعث إليها بمائة ألف درهم، ومن ثَمَّ كانت الفتاة مصدرَ خيرٍ وبركة لأمها، وما يدرى أحد أيهما أحسن نفعاً؟.

وما أحسن ما قيل: ابنُكَ يأكلك صغيراً ويرثك كبيراً، وابنتك تأكل من وعائك وترثُ من أعدائك!.

إنه من المعلوم أن العرب كانوا قِديماً رُوَّادَ غاراتٍ وطلّاب ثارات، وكان الواحد منهم يخوض المعركة وهو لا يدرى أَوَقَعَ على الموت أم وقعَ الموتُ عليه؟ وهو فى كل حال كان خيال ابنته أمام عينيه، يفكر فيما عسى أن يصيبها بعده، خاصة إذا مات، من هنا كان يحب الحياة من أجل بناته، لضَعْفِهن وذُلِّهِن من بعده، فكان يردد ما قاله إسحاق بن خلف الذى عبَّر عن هذه العاطفة فى قوله:

لـولا أمية لـم أَجْـزَعْ مـن العَـدَمِ   ولم أَجُبْ فى الليالى حِنْدِس الظُّلَمِ
وزادَنِى رغبةً فى العيش معرِفَتى   ذُلَّ اليتيمةِ يجفُـوهـا ذَوُوا الـرَّحِـمِ
تَهْوَى بقائِى وأَهْوَى مَوْتَها شَفَقاً   والمـوتُ أَكْرَمُ نَـزَّالٍ علـى الحُـرُمِ
أُحـاذِرُ الفقـرَ يـومـاً أن يلـمَّ بهـا   فيكشفَ الستر عن لَحْم على وَضَمِ
إذا تـذكـرتُ بنتـى حيـن تنـدبنـي   فاضَتْ لرحمةِ بنتى عَبْرَتِى بِدَمِ!

ومع ذلك فكان الرجل إذا فترتْ عزيمته، أو استولى الرعب على قلبه، أو عقد هول المفاجأة لسانه عن النطق، تهتف به المرأة، فيستمد عزماً بعد وهن، ويسترد قوةً غربتْ، وقد عبَّر عمرو بن كلثوم عن ذلك بقوله:

علـى آثـارنـا بِيـضٌ حِسـان   نُحـاذر أن تُقَسَّـمَ أو تهـونـا
أَخَـذْن علـى بُعـولتهـنَّ عهـداً   إذا لاقـوا كتـائـبَ مُعْلِمِينـا
لَيَسْتَلِبـنَّ أفـراسـاً وبيضـاً   وأَسْرَى فـى الحـديـد مُقَرَّنينا

إذا مـارضـن يمشيـن الهُـوَيْنَـى كمـا اهتـزتْ مُتـون الشَّـاربينـا
يَقُـدْنَ جيـادَنـا ويَقُلْـنَ: لستـم بُعـولتنـا إذا لـمْ تَمْنَعُـونـا
إذا لـم نَحْمِهِـنَّ فـلا بقينـا لشـىءٍ بعـدهـنَّ ولا حَيِينـا

إنَّ هذا لينبئك أن المرأة العربية مثار عاطفة الرجل ومدار وجدانه، بل هى سر حياته وموته، وهى مَهاجُ غضبِه ومعقد أُلفته، وهى مُجتلَى قريحته ومطلع قصيدته، وهى موطن غنائه ومشرق وحيه، ومنار إلهامه وكل شىء بين يديه، لهذا صوَّرَ خيال الرجل العربى المرأة على أنها مَلَكٌ، بل قالوا عنِ الله جل جلاله، وتنزَّه عمَّا يقولون، قالوا: اتخذ الملائكة إناثاً، تعالى الله عمَّا يقولون عُلُوًّا كبيراً، وكَبُرَتْ كلمةً تخرج من أفواههم، إنْ يقولوا إلاَّ كَذِباً.

بل ما ظنك بامرأة ملكت على الرجل قلبه ورأيه؟ فلا يكاد يصيب معنًى أو يتحدث فى موضوع حتى يلمّ بذكرها، ويتغنى بمحاسنها، ويمتدح شمائلها، ويتأثر بأطلالها وما خلفته من معالم حِلّهاة وترحالها. . ثم إن الرجل ما يكاد يبتدر صالحة أو يسبق إلى مَكْرَمَة حتى يُسمع المرأةَ الشعر فياضاً بمآثره، حفيلًا بمفاخره، وأكبر أمله أن تذكره بكلمة طيبة فيفخر بها بين قرنائه. وانظر مثلًا قول الشاعر:

قالتْ: أمَا ترحل تبغى الغِنِى؟ قلـت: فمـن للطـارِقِ المعتـمِ؟
قالت: فهل عندك شىء له؟ قلت: نَعَم، جهد الفتى المعدمِ
فكـم وحـق الله مـن ليلـة قـد أُطْعِمُ الضيفَ ولـم أُطْعَـمِ
إن الغِنَـى بـالنفـس يـا هـذه ليس الفتى بـالمـال والـدرهـمِ

وجاء فى كتاب «العقد الفريد»[1]: «إن الرجل يضنّ بالمرأة ويؤثرها على أى شىء، ويحرص عليها، ويفتديها بنفسه وماله وما ملكت يمينه، من ذلك مثلًا: أن كسرى أبرويز ملك الفُرس وسيد ملوك المشرق، أرسل إلى النعمان يبغى مُصاهرته، ولو أن ملكاً من أقطاب العالم وأبطاله الفاتحين خطب إليه كسرى ابنته لوثَبَ عن عرشه زهواً واختيالاً بتلك النعمة السابغة، على أن النعمان ـ وهو مولاه وصنيعه،

(١) لابن عبد ربه، ج ٣.

والقائم بأمره، والخاضع لسلطانه ـ ردَّ رسولَهُ مُقَنَّعاً بالخيبة، ضَنًّا ببنات المنذر أن يَكُنَّ قعائدَ بيتٍ أعجميٍ، أيًّا كان مكانُه وسلطانه. حتى إذا عاودَ الرسول مولاه بما لا يرضيه، اضطرمت فى صدره جذوة الغضب، وثارت بين جنبيه ثَوْرَةُ المُلك فأرسل يستقدم عاهل العرب.

هنالك أبصر النعمانُ وميضَ الموت يلمع من صوب المدائن، فأودع ابنته «حرقة» وما يعتز به من سيوف ودروع عند «هانئ بن قبيصة الشيباني»، وذهب إلى حيث طُرِحَ تحت أقدامِ الفيلة، فذهبت بلَحْمِهِ وعظمه كل مذهب من ثغرات الأرض، وسَوَّتْ معالمَ جسمه بالتراب، بذلك نقع كِسْرَى غليل غضبه، وأراد أن يعاود ما بَدَأَ، فأرسل إلى «هانئ» يقتضيه ابنة النعمان، فما كان نصيبه بأجمل من نصيب صاحبه. هاج كسرى هائج الحنق على هذه الأُمَّة التى استأسدتْ فى وجهه، واحتجزت فتاتها دونه، فأرسل فيالقه يزحم بعضها بعضاً ليوقع الخسف بها، ويبسط رواقَ الذُّلِّ ضافياً عليها، وهناك قام العرب يدفعون عن حَوْزتهم، ويذودون عن أعراضهم، فالتقوا بجحافل الفُرْس على بطحاء ذى قار، فى موقعة احمرَّ لها وجه الأرض، واغبرَّ الأُفق، وارتفع الغبار المثار حتى مَحا آيةَ الشمس.

ورأى الناسُ الكواكبَ فى منتصف النهار، وقام من أبطال العرب من قَطَع وضَنَ النساء، أى قَطَعَ الرَّحْلَ حتى لا يتحرك أحد من ميدان المعركة، ولا يجدن النساء سبيلًا إلى الفرار، وتأججت عند ذلك قلوب القوم، وأرهفت أنيابهم، وتحولوا إلى صواعق ساحقة، ثم انحسر القتال، وقد ضربوا أعداءهم ضربة أطارت قلوبهم، فنكصوا على أعقابهم، وفزعوا إلى ديارهم، وسيوف العرب فى نحورهم، لأنهم بواسِل يأبون الضيم، ويحمون الديار، ويحافظون على الشرف، وفى ذلك يقول العديل العجلى:

ما أوقدَ الناسُ من نارٍ لمكرمة ... إلاَّ اصْطَلَيْنا وكُنَّا مُوقِدِى النارِ
وما يَعُدُّونَ من يوم سَمِعْتَ به ... للناس أفضلَ من يومٍ بذى قارِ
جِئْنا بأَسْلابِهِم والخيلُ عابسةٌ ... لما استلبنا لكسرى كل إسْوارِ

ذلك هو يوم ذى قار، يوم انتصاف العرب من الفُرس، بسبب الحفاظ على العرض والشرف والكرامة.

ولم تكن المغالاة بالمرأة وقفاً على ذوات الثراء والسَّناء منهن، فقد كان يُغالَى بها وتُغالى بنفسها، مهما هانَ أمرها، أو اتَّضعت عشيرتها، ومثل ذلك ما حَدَّثَ به ابن الأثير حين ذَكَرَ أن أحد الدهاقين[١] من الفُرْس جهد أن يتزوج امرأة من باهلة، فأبت عليه برغم ما للدهاقين الفُرْس من سعة العيش ونُعومة الحال، وما بلغته باهلة بين العرب من لؤم الحسب وانصداع النسب. وقد قال الشاعر فيهم قديماً:

إذا قيــل للكَلْــبِ يــا بــاهلـىّ عَوَى الكلبُ من لُؤْمِ هذا النَّسَب

فلنا أن نتأمل فى عِزَّة المرأة وكرامتها، برغم ما يحيط بقبيلتها من كلام يحط شأنها بين القبائل، فهى لم تقبل أن تتزوج برجل لا تعرفه حفاظاً على كرامتها، وحتى لا يهجرها فَتُعَيَّرَ بسبب ذلك. كانت تفكر فيمن يتقدم إليها وتختار الكُفْءَ الكريم الشهم الذى يُعْرَفُ بالمروءة مهما كان وضعه الاجتماعى، فإن الأخلاق عندها أساس الاختيار.

وإنى لَمُفْضٍ إليكَ بحديث جاء فى كتاب «الأغانى» يبين مكانَ المرأةَ وما لها من سماحةٍ فى الرأى، ووفورٍ فى الحرية، وسُمُوٌ فى المنزلة، ذلك أن الحارث بن عوف المُرّىّ قال لِمَنْ حوله: أَتَرَوْنَنى أخطبُ إلى أَحَدٍ فَيَرُدَّنى؟ قيل: نعم. قال: ومَنْ ذلك؟ فقيل له: أَوْسُ بن حارثة الطائى. فقال الحارث لغلامه: ارحَلْ بنا إليه. فركب ومعهما خارجة بن سنان، حتى أَتَوْا أَوْساً فى بلاده، فَأَلْفَوْهُ فى منزله، فلما رأى الحارثَ قال: مرحباً بك يا حارث، قال: وبكَ. قال: ما جاء بك؟ قال: جئتُكَ خاطباً. قال: لست هناك. فانصرف الحارثُ ولم يكلمه.

ودخل أوسٌ على امرأته مغضباً، فقالت: مَن الرَّجُلُ الذى وقف عليك فلم

---

(١) الدهاقين: جمع دِهقان، ويُطلق على التاجر، وعلى مَنْ له مالٌ وعقار، كما يُطلق أيضاً على رئيس القرية (المصباح المنير ـ مادة: دهقان).

تُطِلْ ولم تُكلمه؟ قال: ذاك سيد العرب الحارثُ بن عوف المُرِّى. قالت: فما بالك لا تستنزله؟ قال: إنه استحمَقَ. قالت: وكيف؟ قال: جاء لى خاطباً. قالت: أفتريد أن تُزَوِّجَ بناتك؟ قال: نعم، قالت: فإذا لم تُزوج سيد العرب فَمَنْ؟ قال: قد كان ذلك. قالت: فتدارَكِ الأمرَ. قال: بماذا؟ قالت: تلحقُ به فتردُّه. قال: وكيف وقد فَرطَ ما فرطَ إليه؟ قالت: تقول له: إنك لقيتنى مغضباً بأمرٍ لم تُقَدِّمْ فيه قولاً فَلَمْ يكن عندى من الجواب إلاَّ ما سمعت، فانصرِفْ معى ولك عندى ما أحببت، فإنه سيفعل، فركب على إثْرهما. قال خارجة بن سنان: فوالله إنى لأسِيرُ إذْ حانت منى التفاتة فرأيته، فأقبلت على الحارث، وما يكلمنى غمًّا، فقلت له: هذا أَوْسُ بن حارثة فى إثْرِنا. قال: وما نصنع به؟ امْضِ، فلما رآنا لا نقف عليه قال: يا حارث، أَرْبِعْ علىَّ ساعة، قف أتحدث إليك، فوقفنا له، فكلمنا بذلك، فرجع مسروراً.

ثم إن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته: ادعى لى فلانة (كبرى بناته) فأتته، فقال: يا بنية، هذا الحارث بن عوف، سيدٌ من سادات العرب، قد جاءنى طالباً خاطباً، وقد أردتُ أن أزوجك منه، فما تقولين؟ قالت: لا تفعل، قال: ولِمَ؟ قالت: لأننى امرأة فى وجهى رِدَّةٌ ـ قبح ـ وفى خُلقى بعض العهدة ـ العيب ـ ولستُ بابنة عمه فيرعى رَحِمى وليس بجارك فى البلد فيستحى منك، ولا آمَنُ أن يرى منى ما يكره فيطلقنى، فيكون عَلَىَّ من ذلك ما فيه. قال لها: قُومِى بارك الله عليك، ادعى لى فلانة (لابنته الوسطى) فدعتها. ثم قال لها مقالته لأختها، فأجابته: إنى خرقاء[1]، وليست بيدى صنعة، ولا آمنُ أن يرى منى ما يكره فيطلقنى، فيكون علىَّ من ذلك ما تعلم، وليس بابن عم فيرعى حقى، ولا جارك فى البلد فيستحى منك. قال: قومى بارك الله عليك، ادعى لى «بهية» ـ يريد الصغرى ـ فأُتِىَ بها، فقال لها ما قاله لأختيها، فقالت: أنت وذاك. قال: قد عرضتُ ذلك على أختيك فأبَتاهُ. فقالت: لكننى والله الجميلة وجهاً، الصَّناعُ يداً[2]، الرفيعة خُلُقاً، الحسيبة

---

(١) أى: لا تُحْسِنُ ما تصنع.

(٢) تعنى أنها حاذقة ماهرة.

أباً، فإنْ طلّقنى فلا أخلف الله عليه بخير. فقال: بارك الله فيك. ثم خرج إلينا فقال: قد زَوَّجْتُكَ يا حارثُ «بهية بنت أوس». قال: قد قبلتُ، فأَمَرَ أُمَّها أن تهيئها وتُصْلِحَ من شأنها، حتى إذا حُملت إلى زوجها وبلغ بها حِماه، كانت حرب داحس والغبراء، بين عبس وذبيان قد عصفت هوجاؤها بهم، واشتدت نارها فيهم، فلم تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، وهَمَّ من يليهم من العرب بأن يكتووا بنارها وضرامها، ويصطلوا بلظاها، فلما بصرت به مرتدياً مطارِفِ[1] العُرْسِ قالت: والله لقد ذَكَرْتَ من الشرف ما لا أراه فيك. قال: وكيف؟ قالت: أتتفرغُ للنساء والعرب يقتل بعضهم بعضاً؟ قال: فيكون ماذا؟ قالت: تخرج إلى القوم فتصلح بينهم. فخرج لساعته إلى صاحب خارجة بن سنان وقص عليه حديث امرأته، فقال خارجة: ويلى! إنى لأرى هِمَّةً وعقلًا. قال: فاخْرُجْ بنا إليهم. فخرج الرجلان، فمشيا بين القوم للصلح واحتملا حمائل[2] القوم، ودفعا ديات القتلى، فكان ما نزلا عنه ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنين، وهى ـ لعمر أبيك ـ ثروة للأعرابى لا تقوم بما مَلَكَ الحضرى من ضياع، وما اختزن من أموال، وذلك شىء بلغته المرأة يوم ذاك من سُمُوٍّ فى الوجود، وإكبار فى الرأى، وبلوغ فى النفس.

وقد نبغ من النساء مشيرات آزَرْنَ أزواجَهُنَّ وذويهنَّ من الملوك والأبطال، فأحسنَّ مؤازرتهم. وملكات قمن بالأمر من دون الرجال، فابْتَنَيْنَ مجداً لا يُطاوَلُ، وبلغن غايةً لا تُرام.

تلك كلمات عن المرأة، وكلمات من تاريخها الطويل الذى نعتز به، ونطرب له.

وتاريخها حافل بالعظات بين المَدِّ والجَزْر. إنه تاريخ طويل، ونحن ملمُّون بحياة امرأتين مَلَكَتا، فاختصهما التاريخ بصفحتين خالدتين وهما: بلقيس فى أرض اليمن، وزنوبيا ـ أو زينب ـ ببادية الشام، وإليك قصة حياتهما.

---

(١) المطارف: ملابس من الخزّ.

(٢) الحمائل: الدّيّات.

١ ـ بلقيس

على مشارف أرض اليمن، وبين ظلال الأشجار وأفْياء الثمر وخمائل الزهر، والوديان الفسيحة، حيث يتساقط المطر ويسيل الماء، كانت مدينة مأرب تتمتع بحصانة طبيعية فأصبحت قبلة ملوك الأقاليم المجاورة، لأنها مسكن الملك العظيم الذى يدين له الكل بالولاء والطاعة، ثم إن أهلها لم يغفلوا عنها، بل عملت يد الصناعة الماهرة والابتكار فى تجويد العمل، فأقاموا سدّ مَأْرِب وجعلوه من ثلاثين قنطرة، ذَرْعُها ثلاثة أميال فى مثلها، قد انبسط على جانبيه جنّتان هما صُنع الله وآيته وحّجته على تلك الأمة الوثّابة الطموح[1]، وإلى هذا أشار الحق فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾[2].

ويدل سد مأرب على أن هذه المدينة كانت مطلع الحضارة القديمة وآيتها الناطقة، ولقد انتشرت حول هاتين الجنتين قصور مأرب، التى أصبحت تضارع دور مصر فى دقة الوضع، وفخامة البناء، وجلال الصُّنع، والارتقاء إلى أعلى، حتى صارت تشبه قصور فارس فى حُسن النسق وروعة المنظر وجمال البناء. كانت مأرب دارَ الملك فى عهد مُلَيْكةٍ عظيمة، وقائدة رائدة، عادلة فى حكمها، نافذة البصيرة.

إنها الملكة «بلقيس» وأبوها ـ اليشرح ـ أنفذ ملوك اليمن رأيًا، وأسْناهم ذِكْراً. لقد ورثت «بلقيس» عرش زوجها وأبيها وما كان لهما بهما من حاجة، فقد اتخذت لنفسها عرشاً بلغ من إبداع صُنعه وجمال نَسَقِه أنْ وصفه الله جَلَّ ذِكْرُه بالعظمة فقال: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾[3]. وقد وصفه من رآه فقال:

عرشها رافع ثمانين باعاً كَلَّلَتْهُ بجوهرٍ فريدِ

(١) معجم ياقوت، ج ٧، ص ٣٥٤.
(٢) سورة سبأ.
(٣) سورة النمل.

وبِــدُرٍّ قــد قيّــدتــه ويــاقــوت بـــالتبـــر أيمـــا تقييـــد

ولقد قامت هذه الملكة الفريدة فى مُلْكها خمسة عشر عاماً بلغت فيها من جلال الصَّوْلة وكمال القوة أنها حين ركبت إلى سيدنا سليمان كان فى ركابها مائة ألف من أمراء اليمن[1]، أمَّا وفور عقلها ومضاء عزمها واستمكانها من نفوس رعيتها وعُلُوّ قدرها أنَّ سليمان حين أرسل إليها يخبرها بدينه ويدعوها إلى الإيمان بالله، والاعتراف بنبوّته، وكتب إليها يقول: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣١) ﴾[2]. هذه الملكة العظيمة لم تأخذها العزة بالإثم، ولم ينل منها أن الكتاب لم يَحْوِ تكريماً لها وتبجيلًا، ولم يذهب برشدها أن الذى بعث إليها بالكتاب ليس ملكاً، وهو بالنسبة لها ليست لديه القوة ولا بَسْطَة المُلك ـ حسب فهمها ـ لكنها ضربت المَثَل الرائع على بُعْد النظر وسلامة الطبع، لذلك جمعتْ كُلَّ مَنْ يلوذ بطاعتها من الملوك وعرضتْ الأمر عليهم وطلبت مشورتهم، وأحلَّت الكتابَ من نفسها محلًا كريماً، وقالت ـ كما حكى القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾[3]، ثم تقول لقومها ـ وهى الحاكمة صاحبة الرأى، إلا أنها تستعمل الشورى وتضرب المثل على وفور العقل ورجاحته: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) ﴾[4]، وإذا بقومها يقولون لها: نحن تحت أمرك، عليكِ أن تأمرى ونحن نطيع، وعبروا عن ذلك بقولهم: ﴿ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) ﴾[5]، لكنها بِبُعْد نظرها تخبرهم أن الحرب دمارٌ، ومتلفةٌ للبلاد، وقتل للعباد، وتشريد للصغار، وذلّ للنساء، فقالت لهم: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ ﴾[6] كفيلة أن تصرف ذوى المطامع وطُلَّاب الدنيا عن

---

(١) الطبرى، ج ١٨، ص ٨٧.
(٢) سورة النمل.
(٣) سورة النمل.
(٤) سورة النمل.
(٥) سورة النمل.
(٦) سورة النمل، الآيتان ٣٤ ـ ٣٥.

قصدهم، فإن قَبِلَها هو مَلِكٌ، ولنا من بأسنا وقوتنا ما يفلُّ عرشه ويدكُّ دولته، وإن رَدَّها وصُرف عنها فعسى أن يكون نبيًّا يُبَصِّرنا بالخير ويهدينا سواء السبيل.

فلما جاءت رُسُلها سليمانَ بالهدية ردّها وقال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾[١]. حتى إذا استبانت «بلقيس» الأمر تركت دينها ودين آبائها وتمسكت بدين الله، وكان ذلك سبيلًا إلى طَمْس آية المجوسية بين أرجاء اليمن.

ولقد ذكر الفخر الرازى أن «بلقيس» هى التى مدّت سد مأرب وجعلته طبقاتٍ ثلاث بعضها فوق بعض، فإنها تكون بذلك التفكير السديد مهبط وحى العظمة، ومشرق نور الحضارة فى عالمها، والقرآن وهو يقصّ قصتها لتكون أمام أعين العقلاء تبصره وآية من آيات الذكر الحكيم لتنوِّه بفضل المرأة ورجاحة عقلها وسماحة رأيها، وإن عظمة المُلك وأُبَّهة السلطان لم يصرفها ذلك عن ابتغاء الحق أيًّا كان سبيله.

والمسلم يجد فى كتاب ربه ـ فى سورة «سبأ» وسورة «النمل» ـ الحديث عن تلك المرأة «بلقيس» سليلة القوم الذين عاشوا فى الأمان، ومدوا سد مأرب، وشادوا قصر غمدان، ثم كان لها ـ بعد هذا المُلْك ـ حديثٌ مع سليمان، نبى الله العظيم، الذى أسلمت بلقيس معه لله رب العالمين، إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو أَلْقَى السَّمْعَ وهو شهيد.

٢ ـ ملكة تدمر

تدمر فى طرف بادية الشام، إلى الشمال منها. تقع على بُعد مائة وخمسين ميلًا من دمشق، ومسيرة خمسة أيام من الفرات، وهى ملتقى القادمين والرائحين بين الشام والعراق، ولقد تألف لؤلؤها وظهر بهاؤها عندما نهضت بها امرأة من العرب تسمى «زينب»، فبسطت سلطانها، ونشرت أعلامها على ما بين مجاهل

---

(١) سورة النمل.

السودان ومعالم أنقرة، وكانت هذه الملكة تُجيد لغات الفُرس واليونان والرومان، كما كانت ـ على جمالها وعذوبة منطقها وسماحة أسلوبها ونفاذ لبِّها وعظمة قلبها ـ من أشد الناس بأساً، وأمضاهم عزماً، وأرسخهم فى الحروب قدماً، كانت إذا أُشْرِعَتِ الرماحُ والتمعت الأَسِنَّة تتقلد سيفها وتعتقل رمحها وعلى رأسها خوذة مرصعة بالدُّرِّ والياقوت، وقد تدلَّت فوق غرَّتها أهداب من الحرير الأرجوانى. كانت تمر بين صفوف المقاتلين ويدها اليمنى مجردة كما يفعل أبطال الرومان واليونان، فيذهل القوم عن نفوسهم، وتملك عليهم مشاعرهم حتى تكون أبصارهم وأيديهم ـ بل وقلوبهم ـ معها، فينصبُّون على أعدائهم كما تنصبُّ النار على هشيم الكلأ، ويكون النصر لهم.

لقد فتحوا الكثير من البلاد، واقتحموا ما اقتحموا من ممالك، فدمَّروا المعاقل، لذلك أشادت الأمم بذكر «زينب» وأفسحوا لأخبارها وسيرتها المكان الأوفى من صدور تاريخهم وبطون صحائفهم. ولقد شمَّر قومها عن سواعدهم فجمعوا بين مدينتى الفرس والرومان، فأرهفت لذلك طباعهم، ورقَّت شمائلهم، ونفذت أفهامهم، وشيدوا الأبنية العظيمة التى رسخت أصولها فى أعماق الأرض، وارتفعت حتى قاربت منازل الأفلاك، وشادوا هيكل الشمس، وبنوا القصر الأعظم الذى بلغ ذَرْعُه ألفى ذراع فى مثلها، ولا تزال أطلالهما باقية تعنو لها الوجوه، وتخشع بين أيديها القلوب. تلك هى الأُمَّة التى قامت بأمرها «زينب» فبلغت بها غاية ما تقدم.

ولقد تنقَّل المُلك بزينب فى دورين، فكانت مشيرة لزوجها، ثم وصية على ولدها، وفى كلتا المرحلتين كانت الوَحْىَ الملهم، واليد الطائلة.

على أن هذه السيدة العظيمة نُكبت فى آخر عهدها نكبة لم تجد من يقيلها منها، حيث فاجأها جند الرومان، وقد كان جيشها ساعتها يتكون ممن انحسَرَ عنهم ظِلُّ الروم فى عهدها، فتركوها وولوها ظهورهم، لأن زمام قلوبهم بأيدى سادتهم الذين جاءوا، فكانوا بوادر الانهزام الذى حَلَّ بها، وآل أمرها إلى التسليم لعدوِّها سنة ٢٨٢ م، فأُخذت أسيرة إلى روما، ثم أُعيدت إلى موطنها لمكانها فى نفوس

قاهريها، فعكفت على عُزلتها. ورواة التاريخ ينسبون إلى عمرو بن عدىّ اللَّخْمِىّ أنه قادها إلى الموت انتقاماً لخاله «جَذِيمة بن الأبرش» مَلِك الحيرة، ويزعمون أن عَمْراً خبّأ لها الرجالَ فى الغرائر.

إن العرب حَدَّثوا عن ملكة تدمر حديثاً طويلًا يغرب لبّ الناقد عنه، وتضل حقائق التاريخ دونه، وكانوا يسمونها «زنوبيا» أو «الزَّبَّاء» أى كثيرة شعر الحاجبين والعينين. هذا وقد وقف المؤرخون أمام تلك الشخصية الفريدة فى أدائها وعظمتها، وأشادوا ببطولتها الرائعة، والتاريخ لا يخدع أحداً فى ماضيه، ولا يُزيّف سيرة أحد على حساب أحد، وإنما يحكى الواقع لتكون الذكرى التى تنتفع بها الأجيال.

* * *

أسماء بنت درين وحُسن تصرفها

وإذا كنتُ قد أفضتُ إليك بحديث عن ملكتين فهلمَّ معى لنعيش مع شخصيات نسائية أخرى يتبين لنا من خلال مطالعاتها ما تمتعت به بعض السيدات من عقليات ذات كفاءة وقدرة على حُسْن التخلص، وسعة الحيلة، مما يدل على أن المرأة شريكة الرجل فى الذكاء العقلى إذا هى استعلمتْ عقلها ورتَّبتْ أفكارها على قيم دينها، وعادات قومها، ومألوف بيئتها، وإنَّا لمُلِمُّون بطرفٍ فى هذا المقام.

جاء فى كتاب «خزانة الأدب»[1]: أن ابن حبيب حَدَّثَ فقالَ: إن أسماء بنت دريم كانت فى خباءٍ لها، وبنوها يرعون إبلهم وغنمهم فى الأودية، فمر بها وائل بن قاسط فنظرَ إليها نظرة مريبة، فقالت: لَعَلَّكَ أَسْرَرْتَ فى نفسك منى شيئاً؟ فقال: أجل. قالت: لئن لم تنته لأستصرخن أَسْبُعى! فقال: والله ما أرى بالوادى أحداً. قالت: لو دَعَوْتُ سِباعَهُ لمنعتنى منكَ، وأعانتنى عليكَ. فقال: أوَ تَفْهَمُ السباعُ عنكِ؟ قالت: نعم. ثم رَفَعَتْ صوتَها ونادت: يا كلب، يا ذئب، يا فهد، يا

---

(١) للبغدادى، ج ٣.

دب، يا سرحان، يا أسد، فجاء بنوها يتعاوون ويقولون: ما خبرك يا أماه؟؟ قالت: ضيفكم هذا أَحْسِنُوا قِراهُ[1]. ولم تشأ أن تفضح نفسها عند بنيها، فذبحوا له وأَطْعَمُوه، فذهب وهو كالمأخوذ عجباً مِمَّا رأى، ومن حُسْنِ تصرفها.

* * *

وافقَ شَنٌّ طَبَقة

كما جاء فى كتاب «مجمع الأمثال»[2]: أنَّ رجلًا من دُهاة العرب وعقلائهم يُدْعى «شَنٌّ» قال: والله لأطوفن حتى أجد امرأة مثلى أتزوجها. فبينما هو فى بعض مسيره إذْ لقى رجلًا فى الطريق، فسأله شَنٌّ: أين تريد؟ فقال الرجل: موضع كذا (يريد القرية التى يقصدها شَنّ)، فرافقه، حتى إذا أخذا فى السير قال له «شن»: أتحملنى أم أحملك؟ فقال له الرجل: يا جاهل، أنا راكب وأنت راكب فكيف أحملك أو تحملنى؟ فسكت «شن» وسارا حتى إذا قربا من القرية إذا بزرع قد حان حصاده، فقال «شن»: أترى هذا الزرع أُكِلَ أم لا؟ فقال الرجل: يا جاهل، ترى نبتاً مستحصداً فتقول أُكِلَ أم لا؟ فسكت عنه «شن»، حتى إذا دخلا القرية لقيتهما جنازة، فقال «شن»: أترى صاحب النعش حيًا أم ميتاً؟ فقال له الرجل: ما رأيتُ أجهلَ منكَ.. ترى جنازة فتقول: أميتٌ صاحبها أم حىٌ؟ فسكت عنه «شن» وأراد مفارقته، لكنَّ الرجل أصَرَّ على استضافته، ومضى به إلى منزله، وكان للرجل بنتٌ يقال لها «طَبَقة» فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه، فأخبرها بمرافقته له، وشكا إليها جهله، وحدثها بحديثه، فقالت: يا أَبَتِ، ما هذا بجاهل، لأن قوله لك: أتحملنى أم أحملك أراد به: أَتُحَدِّثُنى أَمْ أُحدِّثك حتى نقطع الطريق؟ وأمَّا قوله: أترى هذا الزرع أُكِلَ أم لا فإنه أراد به: هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا؟ وأما قوله فى الجنازة فأراد به: هل ترك عَقِباً[3] يحيا بهم ذكراه أم لا؟ فخرج الرجل

---

(١) أى: أَحْسِنُوا ضيافَتَهُ وأكرِمُوه.

(٢) للميدانى، ج ٢.

(٣) أى: ذُرِّيَّةً أو أولاداً.

وجلس مع «شن» فحادَثَهُ ساعة ثم قال: أتحب أن أُفَسِّرَ لك ما سألتنى عنه؟ قال: نعم. ففسره. فقال «شن»: ما هذا مِنْ كلامِكَ، فأَخْبِرْنى مَنْ فَسَّرَه لك؟ قال: ابنتى. فخَطَبَها وتزوجها، وحملها إلى أهله، فلما رأوها قالوا: «وافَقَ شَنٌّ طَبَقَة». وصار مثلًا يُضْرَبُ لكل زوجين متوافقين فى سَعَة الأفق والعلم الواسع،

* * *

ولتدرك المجتمعات من حولنا أننا ننزع إلى الكمال، لأن لنا به نسباً عريقاً، وطريقاً عميقاً، إذا انثنَى عطف الزمان، فنحن مطلع فجره، ومبعث فخره، ذلك ميراثٌ إنْ كُنَّا قد سُلِبناه فى غفوة الليل فإن التاريخ قد حفظ لنا صفحة من صفحات تاريخنا الذى نعتز به، ونطرب له، حيث يبين لنا أن حياة المرأة حياة عظيمة، لها نفس أبِيّة، وهِمَّة عالية، فإذا كان نساء مجتمعنا يُرِدْنَ أن ينهضن فعليهن أن ينتقين الوسائل، ويتلمسن الخُطَى، ويَسِرْن على الدرب حتى يصلن إلى ما كان لأمهاتهنَّ من مكانة عالية، لأنهنَّ كُنَّ منابت حُماتنا، وأُساة جراحنا، وبُناة دولتنا، ومنار دعوتنا، ومثار قُوّتنا، وما نحن وإياهنَّ إلاَّ كجناحَى النسر الصاعد، إذا هِيضَ أحدهما خفض الآخر، فأصبح لا يجد فى الأرض مقعداً، ولا فى السماء مصعداً.

فلتنهض المرأةُ كما تشاء، لأن فى نهوضها نهوضاً لنا وبلوغ غاياتنا، ولكنْ ليحذر الآخِذُونَ بيدها والداعون إلى نهوضها التواءَ القصد والزَّجِّ بها فى مواطن الزَّلَل، لأننا قوم تتحكَّمُ فينا أمزجتنا، وأسلوب حياتنا، وتقاليد مجتمعنا، فمن الظلم أن نزجَّ بالمرأة فى مواقف تخدش حياءَها وتهدر شرفها، وتكون أُلعوبة فى أيدى الذين لا يرعون حرمتها، ولا يَأْبَهْنَ لكرامتها.

لذلك أناشد المرأة أن تقرأ تاريخ أخواتها من أُمهاتنا الأوليات، وعليها فى هذا العصر أن تستنَّ بهن، ففى تاريخ المرأة المسلمة والعربية ما يدلّ على طيب الأعراق، وكرم الأخلاق، لأنه بلا شك تترقرق دماؤهن بين جوانحنا وأعطاف قلوبنا.

إنه فى سبيل الكمال المطلق والحياة الخالدة نسوق هذا اللون الذى سجله التاريخ ليعلِّم الناس فى هذا العصر مبلغَ ما كان للمرأة من قوة النفس، وحرمة

الرأى، وعزة الجانب، ونُبل الخُلق، ما ألبسها أحسن لبوس من جلال الهيبة وكمال الخُلق.. لقد كان من سُنَّة اليونانيين أيام سقراط وأفلاطون أن يقف الرجل خاشعاً حاسرَ الرأس إذا مرَّت به امرأةٌ حامل.

إنَّ المرأةَ ليست بالمخلوق الضعيف، لأن من يحتمل ما احتملته المرأة عبر التاريخ وفى ظُلماته، وما أحاق بها من عَنَت الدهر، وظُلم الأب، وصَلَف الزوج، إلى تعب الحَمْل، وألم المخاض، وسهد الأمومة، يجعلنا نعلن أن المرأة دعامة من دعامات الكون والمجتمع، لا يزال ناهضاً ما نهضت به، لأن مَنْ وَكَل الله إليه ابتناء الأمم وإنشاء الأُسَر والحفاظ على القيم لا يكون ضعيفاً أو حقيراً، لذلك إذا تخاذلت المرأة عن أداء رسالتها تهاوت عُمُد المجتمع وتصدَّعت جوانبه.

ونحن نهيب بالمرأة ونقول لها: مَنْ غيرُكِ يتعهَّد النَّبْتَ وأنتِ تُربته؟ مَنْ غيرك يرعى النَّشْءَ وأنتِ قِبلته؟ آمالُ الأُمَّة وأمانتها بين يديك، بل وديعة الله تحملينها لأنكِ أنت قوام الأسرة، وبكِ يعول مجدها، ويتألق نجمها، وذلك عندما تعيشين طاهرة مربية عفيفة تعرفين رسالتك فى الوجود.. وعليك أن تذكرى أن مكانتك الصادقة ومجدك المتألق وحريتك المصونة وكرامتك الحقَّة أن تُحصِّنى نفسك بالشرف، وتُتوِّجى مجدك بالعفة، وتحيطى أسرتك بدفء عاطفتك، وأن تبنى روح الأمل والإقدام فى أولادك، وتدفعى بهم إلى التمسك بالقيم العالية، والعلم النافع.. عَشِّشِى على أُسرتك بأجنحة الحب لتبقى الأسرة لبنة قوية فى صَرْح المجتمع الذى نرجو له الخير والازدهار.

معاول هـدم
في جسم الأمة

حينما جنحت الشمس للمغيب، ورَقَدَتْ على سرير الأفق تودِّع النهار، وصفحة السماء ترقّ، ونور القمر ينشر ملاءته البيضاء الفضية على الكون، وقفتُ أتأمل هذا المنظر البديع، وتذكرت ما قاله الشاعر:

والبدرُ فى كَبِدِ السماءِ كَدِرْهَمٍ مُلْقَـى علـى ديبـاجـة زرقـاء

وبينما أنا سابح أرنو بناظرى إلى الفضاء المنبسط أمام عينى، وأرى رءوس الأشجار وهى تتمايل فى نشوة من نسيم الليل وقد كساها القمر بضيائه المنتشر فى الأفق، وتجلى الليل فى سكونه الهادئ لا يسمع الإنسان غير هفهفة النسيم، يهب حيناً بعد حين، إن القمر أمام عينى ينتقل من برج إلى برج، ويا سبحان الخالق المبدع! الشمس لها مسارها، والقمر له مساره، كُلٌّ يجرى فى فَلَكِه ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾[1]، إنها قُدْرة القادر، وتدبير الحكيم.

وبينما أنا على هذا الحال وصل إلى مسامعى صوت شخص يترنم بقول القائل:

مررت على الفضيلة وهى تبكى فقلـتُ: عـلامَ تنتحـبُ الفتـاةُ؟
فقالت: كيف لا أبكى وأهلى جميعاً دون خَلْق الله ماتوا؟!

فانتبهتُ إلى نفسى، وكأن روحى عادت إلى جسدى فى التوِّ واللحظة، فنظرت إلى القمر وتذكرت ما قاله صادق الرافعى: «الآن وقد طلعت أيها القمر لتملأ الدنيا أحلاماً وتشرف على الأرض كأنك روح النهار الميت ما ينفك يتلمس

---

(١) سورة يسٓ، الآية ٤٠.

جوانب السماء حتى يجد منها منفذاً، فهلمّ أبثُّك نجواى أيها الروح المعذب، واطرح من أشِعَّتِكَ على قلبى لعلّى أتبين منبع الدمعة التى فيها فأنزفها. إن روحى لا تزال فى مذهب الحس كأنها تجهش بالبكاء ما دامت هذه الدمعة فيه تجيش وتبتدر. . . ».

وبينما أنا سابح فى هذا الأدب الرفيع أحسست أن حركة ورائى، فالتفتُّ فإذا بصديق جاء يحمل مذياعاً صغيراً وقال: اسمع التعليق على حادث فظيع رهيب! فأنصتُّ فإذا بالتعليق يقول: «حادث أغرب من الخيال. . فقد وقع حادث اغتصاب فى الحادية عشرة والنصف من مساء الخميس ١٩/٣/١٩٩٢ م فى محطة أتوبيس ميدان العتبة على مرأى ومسمع من المواطنين، حيث قام أربعة أشخاص باغتصاب فتاة كانت داخل أتوبيس بصحبة أمها وشقيقتها، فجذب المتهمون الفتاة من داخل الأتوبيس لارتكاب أبشع حادث اغتصاب شهدته القاهرة».

وفى تحقيق النيابة اطَّلَعْتُ على التقرير الطبى من مستشفى أحمد ماهر، حيث أثبت التقرير أن الفتاة سنها ٢٣ سنة، وَوُجِدَ تهتكٌ بغشاء البكارة! يا للهول! هذه مصيبة. . . أَبَلَغَ الاستهتار بالفضيلة إلى هذا الحد؟ ثم نحن فى شهر رمضان، والدين الإسلامى بقِيَمه وروحانياته له هيمنة على النفوس، ثم أين النخوة؟ أين المروءة؟ آه! لقد كان الرجل يتغنى من لحظات ويبكى على مَوْتِ أَهْلِ المروءة.

هل غابت القيم عن الواقع الميدانى، أم إن الاستهتار بالعادات والتقاليد هو السبب فى ذلك؟ أم إن تبرُّج المرأة وخروجها على المألوف وكشف المستور هو الذى أدى إلى ذلك؟ يقول مصطفى صادق الرافعى: «لو كنت قاضياً وَرُفِعَ إلىَّ شابٌ تجرأ على امرأة فاحْتَكَّ بها أو طاردَها، وتحقق عندى أن المرأة كانت مدهونة ومصقولة، متعطرة، متبرِّجة، لعاقَبْتُ هذه المرأة عقوبتين: إحداهما: لأنها اعتدت على عِفَّة الشاب، والثانية: لأنها خَرْقاء، كشفتِ اللحمَ للهرِّ. . . ».

إن الذى يتصفح وسائل الإعلام يجد بين الحين والحين خبراً مؤدَّاه أن شرطة الآداب وضعت يدها على شبكة للاتجار فى الأعراض، وكنت دائماً أسأل نفسى: أتريد المرأة ونحن فى عصر المدنية والتقدم العلمى أن تضع نفسها فى سجن

رهيب، هو تجارة الرقيق الأبيض؟ أتريد أن تعيد فترة رهيبة من تاريخ البشرية مرت على الإنسانية عندما أباحت البغاء الذى هو داء خطير وكأس مرير؟.

إن البشرية عرفت هذا النوع ـ الذى هو امتهان للمرأة وإهدار لكرامتها وضياع لشرفها ـ فى فترة زمنية كنقطة سوداء فى تاريخ البشرية وذلك عندما دفعوا بها إلى بحر الظُّلمات، وزجُّوا بها إلى الجريمة البشعة بلا رحمة ولا شفقة، عندما زَيَّنُوا لها جريمة «البغاء» الذى هو اعتداء على كرامة المرأة وفساد كبير، وطاعون فَتَّاك فى جسم البشرية، وانهيار بالخُلُق.

إنَّ البغاء ما فشى فى أُمَّة إلا فشا فيها التدهور الخُلُقى، والتفسخ الاجتماعى والانحلال الأُسَرى، وباءت الأُمَّة بالضعف والتشرد والخذلان، لذلك حَذَّرت منه الأديان وحرَّمته الكتب السماوية وقام علماء الإصلاح فى الشرق والغرب ببيان خطورته على الأمم والمجتمعات، لذلك قامت «مدام مارتا ريشار» العضو بالمجلس البلدى بباريس تطالب بإلغاء البغاء، وذلك فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وهى القائلة: «إن فى بيوت الدعارة تُباع أعراض أولئك البائسات بأبخس الأثمان، وإن من وراء ذلك شركة ذات رأس مال تبتزّ نحو خمسين ألف بائسة». والكاتبة الشهيرة «اللادى كوك» لما رأت زَلَل أقدام الفتيات يزداد يوماً بعد يوم أرسلت صيحاتها المدويّة بمنع الاختلاط بين الجنسين.

إن البغيّ فتاةٌ شُدَّتْ إلى الهاوية بسلاسل ذهبية موَّهوا بها عينيها، وأظهروا لها أنهم يحبونها، وهو حُبٌّ مُصْطَنَع، وليد لحظته، ونهايته قريبة، لأنه حب ينحصر فى حيوانية الإنسان لا فى روحانيته. إنَّ التحليل النفسى الذى أُجرى على عيِّنة مِمَّنْ يمارسن البغاء أثبت أن من تمارسه مصابة بالشذوذ النفسى والتصدع الخُلُقى، ولم تدرك أبعاد ما أقدمت عليه، لذلك عرضت القديسة «جوزفين بتلر» قضية البغاء على العالم مصبوغة بالدمع «دموع الندم»، والدم «دم العرض المسفوك».

ولقد كتب «جوزيف ناثان» يقول: «إنى لأُوثر عشرة آلاف مَرَّة أن أُواجهُ عشرين مدفعاً على أن أرى فتاة بائسة تشعر أنها فقدت كل حقها فى الكرامة

والاحترام». ولقد حاربتِ النساءُ الفُضليات هذا النوع من الممارسة الجسدية واعتبرته اعتداءً على كرامة المرأة، وناشدت الضمير الحيّ أن يقف بشدة ضد هذا الاعتداء. ولقد أيّد ذلك كثير من الكُتّاب والمفكّرين، مثل «فيكتور هوجو» الذى قال: «أنا معكن ـ يعنى فى محاربة هذا النوع من الممارسة الجنسية ـ قلباً وقالباً، وإلى أقصى حدّ».

كما أن شرائع أوربا قديماً وقفت موقف العداء لهذا اللون من الممارسة، فكان الرومان يحكمون على الزانى بالقتل، والفرنسيون القدماء يحكمون على الزانى بالنفى إلى الأديرة، إلى أن جاء نابليون الذى أسهمَ فى نشر هذا المرض، وَوَضَعَ له سجلات وأنشأ بوليساً للآداب يشرف على البغايا، وسَنَّ لهن نظامَ الكشف الطبى منعاً للعدوى من الأمراض الخبيثة.

والعرب فى الجاهلية جعلوا البغاء فى الإماء والرقيق، وكانت هناك صاحبات الرّايات الحُمْر، وقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾[1]. إن العالم يعلم أن الحرية حق للناس فى دائرة الفضيلة واحترام حقوق الآخرين، أمّا أن نجعلها حقًّا لهم فى تشييد دعائم الرذيلة وهدم صلاح الأخلاق فليس هذا من الحرية فى شىء، وإنما هذه فوضى لا يقرّها دين ولا عقل راشد، وكل مدنية قوامها الرذيلة فهى مدنية زائفة تحمل عوامل انحلالها فى يدها.

إن على المجتمع الإنسانى أن يعالج هذه المشكلة الخطيرة ويجفف الروافد التى تدفع بالمرأة إلى هذا المستنقع، وأهم هذه الروافد هى:

١ ـ الاستهتار بالآداب العامة.

٢ ـ الفقر.

٣ ـ الفراغ.

٤ ـ التشرد.

٥ ـ أصدقاء السوء وقرناء الفساد.

---

(١) سورة النور، من الآية ٣٣.

٦ ـ بؤر الخمارات والمخدرات.

٧ ـ القسوة فى معاملة الأبناء.

٨ ـ الفن الفاضح الذى يجسِّم العورات ويصوِّر الفتيات فى أوضاع تحرك الغرائز، وتثير الشهوة، كما ظَهَرَ فى أحد الأفلام، الأب يقول لابنته: «ارقصى واشربى وهيصى ما دام ذلك لصالح الجمعية الخيرية»، ثم يقول: «ألا فى سبيلِ الخير ما أنا فاعل»، وهكذا يروج سوق الرذيلة حيث الشيطان يغزونا فى عقر دارنا ليحل رباط الفضيلة باسم «الفن» الذى ظلموه.

علينا أن نعالج هذه الأمور، ونصحح القيم والمفاهيم، ونرعى الجانب الاجتماعى، ونضع المعايير والضوابط للسلوك العام. إن الإنسانية اليوم فى حيرة من أمرها، فقد تولت «هيئة الأمم المتحدة» عن طريق المجلس الاجتماعى مَنْعَ تجارة الرقيق الأبيض للأطفال والنساء، ومكاتب الآداب منتشرة هنا وهناك، وآلاف الجمعيات لرعاية هذه الحالات هنا وهناك، ومع ذلك فالمشلكة تزيد، وبخطورة شديدة.. إن الإنسانية لو عرفت خُطاها ووضعتها على الطريق المستقيم وتحلَّت المرأة بالعفة فإن الأُسَر تستقر، وتردد المرأة ما قالته أختها من زمن مضى: «تموتُ الحُرَّةُ ولا تأكل بِثَدْيَيْها»، لأن شرف البنت كلوح زجاجىّ إن انكسر لا يُصلحه شىء. والشرف تاجٌ والعِفَّة وقار، والحياء فضيلة، فهل تعتبر المرأة وتستفيد من الدروس التى سجَّلها التاريخ ليكون الأمن والرقىّ للإنسانية، وليعمّ العالمَ السلامُ، ويومئذ يفوح المؤمنون بنصر الله.

إن الفتاة التى انحرفت عن الجادة وزجَّت بنفسها فى مواضع لا تليق بها، حيث جعلت من نفسها حقًّا مشاعاً للرجال بلا ضابط ولا قانون، وأطلقت لنفسها العنان، فتطير من دَوْحَة إلى عُشْبٍ إلى أرضٍ قَفْر إلى ماء آسنٍ أهدرت إنسانيتها، والرجل فى كل الأحوال واقِفٌ لها بالمرصاد على قارعة كل طريق يخدعها ويشغلها عن التنبُّه بما يحيط بها من خطر، تارة بإغوائه لها، وأخرى بتهاونه فى حمايتها، وتارة بتنازله عن حقوق رعايتها، حتى أصبحت تتطاول إلى منزلته، ناسية الفوارق الجسدية التى بينها وبينه، وكانت النتيجة أن دفعها غرورها إلى الخروج من منزلها

الدافئ إلى تيار الحياة البارد حتى أُصيبت بحمى التعاسة، وأصيبت بزكام، فلم تشمّ نسيم الطهارة، ولم تتنبَّه إلى النظافة التى خلَّفتها وراء ظهرها، والشوك الذى بدأت تدوسه. وأُصيب الرجل بفالج الرجولة المحطمة تحت أعقابها، وكل ذلك يؤدى بالإنسانية إلى الهاوية.

إن المرأة عليها أن تدرك أن مكانتها الصادقة ومجدها المتألق وحريتها المصونة وكرامتها الحقة هى فى أن تُحصِّنَ نفسَها بالشرف، وتتوِّج مجدها بالعفة، وعليها أن تعلم أن الحرية التى تتغنى بها المدنيات اليوم رجوعٌ بالمرأة إلى العبودية فى ثَوْبٍ بَرَّاق، وأن الرجل يريد أن يجعلها مَسْلَاةً لمجلسه، وترفيهاً له فى عمله.. يريد أن يستأجرها للحانات ليربح من ورائها، يريد أن يضعها فى فترينة العرض وموضع الشراء والبيع ليجعل منها شيئاً يشد أنظار المشترين، فيعلق عليها الإعلانات.. يريدها فى المكتب مُتعة لناظره، ومَلْهاةً لنفسه، وفى الشارع فرجة وترويحاً.. يريدها لشهوته ولا ينشدها لإنسانيتها، يقيم لها مسابقات الجمال، وعروض الأزياء، واختيار أجمل السيقان، ويقيم شركات التأمين على عيون الكواكب، وحنجرة المغنية، وكل ذلك سرابٌ خادع وشراكٌ منصوبة لها لتزلّ قدمُها، ثم بعد ذلك يتخذها ربيبة كأس، مخمورة بالليل، مسفوكة العِرْض، وبين لحن النغم ونشوة الإعجاب دخلوا بها إلى حانات الجنس، ثم تخرج المسكينة من بين يدى الآثِم الفاجر الذى تجرد من إنسانيته لتجد صحافة العصر تمسك بالكاميرات لتصورها وتبهرها وتغيِّبها عن الواقع حتى لا تتعرَّف على النهاية المؤلمة، ثم يزغللون عينيها بوضع صورتها على غلاف المجلة، وتوضع عليها الروائح العطرية الجذابة، فتخدر أعصابها، فتزهو بنفسها، وما عرفت أنها قد أُعيدت مزركشة إلى قفص العبودية، لأنها تُباع وتُشْتَرى بأبخس الأثمان، ولا بيت لها، فهى من قفص إلى قفص، من يد الجزار إلى المشترى.

ثم خدعوها وقالوا لها: عَلَامَ الحجاب وأنتِ والرجل سواء لا فرق بينك وبينه؟ فرفَضَتْهُ وعاشت فى دنيا الناس مكشوفة الرأس، عارية الصدر، مختصرة الوسط، كاسية عارية، وهى تردد: «مفيش حد أحسن من حد». وقالوا لها أيضاً:

أنت والرجل سواء، فلِمَ لا تذهبين إلى الحلاق؟ وهناك لم يجد الحلاق لها لحية ولا شارباً، فخرجت من عنده رأسها «كأَسْنِمَةِ البُخت»، ثم دهنها بالأحمر والأبيض، وزَجَّجَ الحواجبَ، فأصبحت مدهونة مصقولة، متعطرة متبرجة، تعتدى على عفة الشباب، وأصبحت بذلك مِعْوَلَ هَدْم فى جسم الأمة، لذلك طالب البعض بعزل البغايا وحصدهن بالمدفع، لأنهن شر مُجَسَّم وإصلاحهن مستعصٍ، لأنهن نشأن فى بيئة فاسدة، وأُسَر عفنة، فهل تشعر بهذا الفساد وتعلن الحرب على بؤر الانحلال والبغاء؟.

إن المرأة التى سُلِبَتْ نفسها ورأيها، وحُرِمت نصيبها من الوجود، وَوُسِمَت بوسام من الذل والهوان لا تكون امرأة فاضلة، ولا تنبئ عن أُمَّة عظيمة، ذلك لأن المرأة إذا استشعرت المهانة من ذويها هانت عليها نفسها، ولهذا علينا أن نُسارع إلى حلول اجتماعية لإيواء البغايا ومعالجتهن، ثم بعد التوبة نعمل على تزويجهن، فقد يخرج من ظهورهن من يفيد الإنسانية.. ألاَ ترى أن كائنات الوجود متحولة متفاعلة؟ فالورد من الشوك، والشهد من فَيء النحل، واللبن يخرج من بين فَرْثٍ ودَم، ولعلَّ بَغِيًّا ذاقت من العذاب وأحست أنها امتهنت طوعاً أو كرهاً، فخرجت من الرذيلة كما يخرج الذهب نقيًّا بعد أن صُهر على النار.. خرجت منتقمة للفضيلة من الرذيلة، تردد ما قالته «عفيرة»، وكان أحد الظَّلَمة قد اغتصبها فقالت:

أيجملُ ما يُؤْتَى إلى فتياتكم وأنتم رجالٌ فيكُمُو عَدَدُ النملِ
فلـو أننـا كُنَّـا رجـالاً وكنتمـو نسـاءً لكنَّـا لا نقـرُّ لـذا الفعـلِ

موقفٌ من القرآن:

مريم ابنة عمران الطاهرة الشريفة التى انتبذتْ من أهلها مكاناً شرقيًّا، فاتخذتْ من دُونهم حجاباً لتصون نفسها وتعبد ربها فى أمن واستقرار، والله سبحانه أراد أن يجعل مريمَ آية للعالمين، فأرسل الحقُّ سبحانه روحاً من عنده فتمثل لها بشراً سويًّا، لكن العفيفة الطاهرة رأت بشراً يقف أمامها، فانتفضت خوفاً ورعباً وقالت: ﴿أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾ خَفِ الله ولا تقترب منى. لكنه رَدَّ عليها: ﴿أَنَا۠ رَسُولُ

رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾، قالت له: كيف يكون منى غلام وأنا لم يَمَسَّنى بَشَرٌ وأنا لستُ بَغِيًّا؟ وواصَلَ الرسول رسالة ربِّه، وحملت مريم ووضعت المسيح ليكون آية دالَّة على قُدْرَةِ الله وعظمته.

ولما ولدت «مريم» وجاءت إلى قومها تحمل وليدها هنا تعجَّب الناسُ من قومها، وقالوا: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ ثم نادوا عليها قائلين: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾، وهذا الكلام من أهلها يدل على أنهم كانوا يكرهون الزِّنَى وينفرون منه، ويشنِّعون على مَنْ يأتيه، ولا يقبله الناس الكرام الذين تحلَّوْا بالفضائل، وأهل الأصول الطيبة، لذلك عابوا على مريم، لكنها أسكتتهم عندما أشارت إليه، فقالوا لها: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾؟ لكنه ردَّ عليهم بقوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[1].

هذا نموذج يتبين منه موقف الناس من الانحراف الجنسى، وأنهم يعيبون على مَنْ يفعله، فما بالك بغضب الله سبحانه وتعالى، الذى نهانا عنه لِمَا له من آثار ضارة بالصحة العامة، والترابط الأُسَرى، حيث يدخل من ليس منها فيها، وهنا تكون الطامة الكبرى على الإنسانية.

سيدنا محمد ﷺ وموقفٌ لَهُ ما لَهُ:

وهل أتاك نبأ تلك المرأة التى كانت فى مكة المكرمة ـ وتسمى «فتنة» ـ وهى أَمَةٌ لـ «عبد اللَّه بن جدعان»، كانت أجمل بغايا مكة عند ظهور الإسلام، لأن الدعارة لها سُوقٌ رائجة، وعبد اللَّه بن جدعان له عدة دور للبغاء تُدار باسمه، وكانت مأوى لسفهاء قريش، وعلى رأسهم أبو سفيان وأبو جهل وغيرهما، فَأَغْرَوْا «فتنة» بمحمد، وحرَّضوها عليه لتتعرض به حتى تهتز شخصيته فى أعين الجماهير، تقول «فتنة»: قابلتُ محمداً وجهاً لوجه لأفعلَ به الأفاعيل إطاعة لأمر هؤلاء

(١) انظر سورة مريم من الآية ١٦ إلى ٣٢.

السفهاء، لكننى عندما رأيته تخاذَلَتْ ساقاى حتى لا تكادا تحملانى، وجمد لسانى حتى لا يكاد يبين، فيمضى هو فى طريقه وأنصرف خاسئة وأنا أقتلع رِجْلَىَّ من الأرض اقتلاعاً، ثم استرعى انتباهى ما يشع على جبينه من نور، وما تنمّ عنه قسماته من طُهْر وقداسة، وعرفت ـ فيما عرفت ـ أن دينه يُحَرِّمُ البغاء، ويمقت الرقّ، ويُقدِّس الحرية، فعرفت أنه نصير المرأة، وأنه يُجاهد ليغير مصيرها لتكون حُرَّةً مَصُونة، فنظرت إليه بغير العين التى كنت أنظر بها إلى ذئاب البشرية، وتأكدت أنه المنقذ الأعظم، وأن خلاصى ومن معى من البغايا لن يكون إلاَّ على يديه، فهو الصادق الأمين. وبينما أنا جالسة أفكر فى أمر محمد إذا بالباب يدق، وإذا عدو الله «عتبة بن ربيعة» يدخل عَلَىَّ سادراً فى خُيلائه ويقول: إنه مَرَّ بأبى بكر الصديق يخطب، وأنه أَدْمَى شفتيه، فما كان منى إلا أن انتضيت نعلى فأدميتُ شفتيه هو، ثم آليتُ أن أخرج إلى الصديق فَأُعَطِّرَ فَضْلَ ردائى بدمه، وأن أعلن إسلامى، وقد فعلت والحمد لله. وبعد هنيهات سمعتُ خَفْق نعلين، وهَمْسَ تسبيحٍ يقطعان سُكُونَ الطريق، فدرت برأسى نحو مصدر الصوت، فإذا برسول الله ﷺ يَغُذُّ فى السير، فأكببتُ على يديه الشريفتين أُمطرهما لثماً وتقبيلًا، وصحتُ أُجدد إسلامى: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك يا ابن آمنة رسول الله»، ورسول الله ﷺ يبتسم لى فى رِقَّة، ويدعو لى بخير، ولم يكد يُولينى ظهره حتى سمعتُ قذائف السباب مع قَذْف الروث والحصباء تنهال على رأسه الشريف، فجريت نحو مصدر الصوت، فإذا بأبى جهل «الحكم بن هشام» ورسول الله ﷺ ماضٍ إلى دار الأرقم، فَغَلا الدم فى عُروقى، وتقمَّصنى جسم جبار شديد فى غير شعور، واندفعت إلى هذا اللعين، عاملة يدى فى رأسه ضرباً، وأظفارى فى وجهه خمشاً حتى سالت دماؤه وَبُهِتَ، ثم فَرَّ ملتمساً النجاة وهو يقول: «وَيْحَكِ يا داعرة! ما كنت أعرفُ أَنَّ لكِ فيه هَوًى». فأجبته: «صه يا عدو الله، إنه الطاهر الذيل، العف الإزار، وإن تُرابَ نعليه لأَطْهَرُ من هامتك، وإنه لسيد أهل الجنة، وإنك لأَحْقَرُ مَنْ فى النار». ثم لمحت شبحاً ينحدر من جبل أبى قبيس وقد تقلَّد سيفاً وتوشَّح قوساً فلما تبيَّنْتُه صِحْتُ: هذا أسد قريش، هذا «حمزة بن عبد المطلب». ومشيتُ إليه معترضة له فى الطريق، وأخذت أهيج حماسته كى يدفعَ عن ابن أخيه فضولَ سُفهاء قريش،

وذكرتُ له ما حدث من أبى جهل لـ «محمد»، حتى ثار وهاج، وانطلق إلى الكعبة كالأسد الهصور، فرأى جَمْعَ السفهاءِ وفيهم أبو جهل، فما كان من «حمزة» إلا أن رَمَى قوسَه فَشَجَّ رأسَ اللعين أبى جهل، وكادت الفتنة تشتعل لولا أن استخزى أبو جهل ومن معه، ثم أعلن «حمزة» إسلامه، ومن لحظتها والإسلام دخل فى دور جديد.

هذه قصة «فتنة» وهذه يَدُها فى تحويل الدعوة المحمدية، ربما كان هذا إعجازاً من صاحب الدعوة.. أرأيتَ ماذا صنع الإسلام بطُهره وصفائه فى نفس تلك الفتاة التى كانت منذ لحظات تحترف الخطيئة؟!.

إن الإسلام نور وضياء، والله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله فتح باب التوبة للبغايا، لأن فى الإسلام ـ لو عقلت الإنسانية ـ ما يمنع هؤلاء الضحايا من قطف ثمرة الإثم المحرمة من بين الأشواك، وذلك بمنع الأسباب المؤدية إلى ذلك، من فقر، واختلاط، أو تهاون فى المسئولية الأبوية.

مواقف مصرية:

مصر المحروسة عندما دخلها «عَمْرو بن العاص» وانتشر الإسلام فى ربوعها، ألبسها تاج العفاف غالياً، فازدانت على مر القرون، وكان إذا فجعها الزمن يوماً فى طهارتها إبَّان فترة من فترات الانحلال أطلقت لسانها بالتشنيع على المستهترات خاصة من عصر المماليك. ولمَّا تولى عباس الأول أمر بنفى كل من تثبت عليها الدعارة إلى أقاصى الصعيد. ولقد سَجَّل التاريخ الدور العظيم للداعية الإسلامى الشيخ محمود أبى العيون جولاته المحمودة للدعوة إلى البعد عن الاقتراب من هذه الدور ـ دور البغايا ـ والنهى عن ممارسة البغاء، مما حدا بالسيد أحمد زكى أبو السعود باشا وزير الحقانية آن ذاك من أن يطالب بإلغاء البغاء، وكان هذا عام ١٩٢٦ م.

وكان لوجود الأزهر على أرض مصر فضل كبير، لأن المصريين حفظوا القرآن الكريم، ورتَّلوه، وكان هذا من الأسباب العظيمة فى نَشْر الفضيلة والبُعْد عن

الرذيلة، لأن الإسلام حَرَّمَ الزِّنَى، ونَهَى عن الأسباب المؤدية إليه، فأمر بِغَضِّ النظر، وحفظ الفرج، وذلك من أسباب الفَلَاح والرُّقِيِّ والتقدم، وعلامة من علامات الإيمان، لأنه لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، والزانى بمنزلة المشرك. وقد أكَّد القرآن على ذلك حيث قال: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾[١]. والإسلام قصد من وراء ذلك صيانة المجتمع وحفظه من الانهيار، لأنه إذا فَشَى الزِّنَى فَشَتِ الأمراض الفتَّاكة، وانتشر الوباء الفتاك. وقد عرفت الإنسانية أن الزنى يجلب مرض «الزُّهْرِى»[٢]، والسيلان، وقد كشف الأطباء أخيراً عن مرض «الإيدز» وهو مرض خطير يقتل المناعة، ويدمر الخلايا، ويفتك بالإنسان الذى يغتاله كل دقيقة، مع أوجاع وانهيار فى الجسم، لهذا كان الله بنا رحيماً عندما نهانا عن الزِّنى، وأغلق الباب أمام كل شيء يوصل إليه، فالرسول ﷺ من باب حرصه على الشباب حَثَّهُم على الصيام إذا لم يستطيعوا الزواج، لأن الصيام يُطَهِّرُ النفس، ويرقق الحِسَّ، وينمى الضمير، ففى الحديث: **«يا معشرَ الشباب، مَنِ استطاعَ منكم الباءَةَ فليتزوَّجْ، فإنه أغَضُّ للبصر، وأحْصَنُ للفَرْجِ، ومن لم يَسْتَطِعْ فعليه بالصوم، فإنه له وِجاء»**[٣]، أى يسد المنافذَ أمام الشيطان حتى لا يُسَوِّلَ للإنسان ويزجَّ به ليقع فى الهاوية.

ولعل فى ذلك عبرة وعظة لِمَنْ كان له قَلْبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد...

إن المرأة سَهْمٌ من سهام إبليس، فَمَنْ رَأَى امرأةً ذاتَ جمال فغضَّ عنها الطرف ابتغاء مرضاة الله أعقبه الله عبادةً يجد لذَّتها، وعلى الأب والأخ والزوج كل منهم أن يعمل على حماية المرأة وصيانتها والحفاظ عليها، لأن من فرَّط فى ابنته أو أخته أو زوجته فهو دَيُّوثٌ، لا يغارُ على حريمه، والرسولُ ﷺ ذكر ثلاثة لا يدخلون الجنة: **«الديوث، ومدمن الخمر، والمرأة المتشبِّهة بالرجل»** أى المسترجلة، وقد لعنها رسول الله ﷺ فى حديث آخر، حيث قال: **«لعنَ الله**

---

(١) سورة النور.

(٢) الزهرى: مرض تناسلي خبيث مُعْدٍ.

(٣) «الترغيب والترهيب» للمنذرى، ج ٣، ص ٢٩.

المُتَشَبِّهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء»[1].

كما جاء النهى عن الخلوة بالنساء، فلا يجوز أبداً للرجل أن يختلى بالمرأة، حتى ولو كان طبيباً، ففى الحديث: «**إيَّاكُم والخلوةَ بالنساء، والذى نفسى بيده، ما خلا رَجُلٌ بامرأة إلا دخل الشيطان بينهما، ولأن يزحم رجل خنزيراً ملطخاً بطين أو حَمْأَة خيرٌ له من أن يزحم منكبَ امرأة لا تحلّ له**». . وفى حديث آخر: «**لأَنْ يُطْعَنَ أَحَدُكُم بمَخْيَطٍ من حديدٍ فى رأسه خيرٌ له من أن يمسَّ امرأة لا تحلُّ له**»[2].

إن الإسلام عندما أباح للمرأة أن تخرج وتتعامل بالبيع والشراء وطلب العلم وما شاكَلَ ذلك، فإنه أمَرَها أن تصونَ نفسَها، فلا تتزين، ولا تتبرَّج، ولا تخضع بالقول، وغير ذلك كثير، وهى التى تطالب بإلغاء هذه الأشياء تحت شعار الحرية، ونحن لا نمانع أبداً فى الحرية ولا نحجر عليها ولا نقيِّدها، لأن الحرية حق للناس فى دائرة الفضيلة، فلو جعلنا الحرية حقًّا لهم وهم يُشيدون دعائم الرذيلة ويهدمون صَرْحَ الفضيلة فليس ذلك من الحرية فى شىء. إن الإسلام أباح للمرأة أن تحضر الاجتماعات العامة، وتشهد الصلاة فى المسجد، ولكن بالحشمة والوقار والسكينة، ولهذا تقول السيدة عائشة رضى الله عنها، وقد وَقَفَتْ على جماعة من النساء ونَهَتْهُن عن الذهاب إلى المجتمعات العامة، فلما نُوقشت بأن الرسول ﷺ أباح لهن ذلك قالت: «لو عَلِمَ رسول الله ﷺ ما أَحْدَثْنَ لَمَنَعَهُنَّ من المساجد». ولقد امتنعت زوج الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن الصلاة فى المسجد، فسألها عن سبب ذلك، فقالت: فسد الناس، وأقرها عمر على ذلك. ولمَّا قال الرسول ﷺ: «**لا يخلونَّ رجلٌ بامرأة إلا مع ذى محرم**» وقف رجل وقال: «امرأتى خرجت حاجَّة، وأنا اكتتبتُ فى غزوة. فقال النبى ﷺ: «**ارجعْ فَحُجَّ مع امرأتك**»، وهذا من باب الاحتياط، وأن يُباعد بين زوجته وكلام الناس، لذلك جعل صفها فى الصلاة خَلْفَ صف الصبيان، والرجال فى المقدمة، ونهاها عن رفع صوتها.

ومن عجب أنك فى شهر رمضان تقرأ فى الإعلانات عن حفلات الإفطار فى

---

(١) رواه البخاري وغيره. وانظر: «فيض القدير»، ج ٥، ص ٢٧١.

(٢) قال المنذرى: رجاله رجال الصحيح. وانظر: «الحلال والحرام» للقرضاوى، ص ١٤١.

الأندية، ويقولون فى إعلاناتهم: «برنامج مشحون بعمل الخير والإحسان، وكذلك مساعدة المحتاجين ـ وموسيقى وغناء ـ ورقص بلدى، وزفَّة عروسة ـ وألعاب سحرية وبهلوانية إلى غير ذلك». والواحد منَّا يتعجب: أفى شهر رمضان يكون عمل الخير بالرقص البلدى والشعبى ولصالح الخير؟ كيف يُبْنَى صَرْح الفضيلة بلبنات الرذيلة؟ ما أشبه هذا بامرأة تبيع عرضها وشرفها فى سوق الخطيئة لتأوى يتيماً، أو تطعم مسكيناً، أو تقيم مأدبة إفطار، أو تحجّ البيت الحرام، وتذكرتُ ما قاله الإمام علىّ كرَّم الله وجهه:

وَمُطْعِمَةُ الأيتامِ من كَسْبِ فَرْجِها فيا ليتها لَمْ تَزْنِ ولم تَتَصَدَّقِ

إن الرسول ﷺ ما تركَ فتنةً بعده أضَرَّ على الرجال من النساء، كما جاء فى الحديث، ثم إن الدنيا حلوة خضرة، وقد استخلفنا الله فيها، وهو سبحانه وتعالى ينظر إلى أعمالنا ويسمع أقوالنا، فعلينا أن نعمل بما أَمَرَ، ونَنْتَهِ عَمَّا نَهَى. إن العاملات فى المراقص والحانات يجب منعهنَّ منعاً باتًّا، كما يجب إلغاء مدارس الرقص، وفى المعاهد الرياضية البدنية غِنًى عنها، وكذلك يجب منع الأغنيات المبتذلة، ومنع الصور الخليعة فى الصحف والمجلات، وفى مناظر الأفلام والمسارح، ولتكن الرقابة مشددة، صيانةً للفضيلة، وتدعيماً للأخلاق، لأن الأخلاق إذا انهارت ذابَ المجتمع وتفكَّكت أواصر العلاقات الأُسَرية.

كما أننا لا نريد للجماعات التى تكونت لغاية سامية ودوافع إنسانية سامية ـ كإيواء اللُّقطاء، ومساعدة الفقراء، وغير ذلك من الخدمات الإنسانية ـ أن تقيم حفلات للرقص، ومهرجانات لجمع المال عن طريق تأباه الفضيلة، ويا حسرتاه إذا بلغ الاستهتار بالفضيلة حَدًّا لا يُطاق، وبلغ التهاون بالدين درجة تفتِّت الإكباد، وفقد بعض الرجال نخوة الرجولة إزاء هذه الحالات المخجلة، حيث لم يرفع أحد صوته مستنكراً لما يحدث.. إنَّ المسلمين عندما غفلوا عن حراسة دينهم والعمل بمبادئه انهارت القيم، واضطربت العقلية الإسلامية، فلم تدرك ما يهدف إليه الدين، ولم تطبَّق تعليماته على حياتنا، والمرأة نصف المجتمع، عندما اهتزت شخصيتها اضطرب المجتمع، وأصبح المنزلُ فى نظرها سجناً، فحطمت السدود الاجتماعية، فدخَّنت السجائر، وشربت الخمور، وشمَّت الكوكايين، وجلست على المائدة الخضراء، وامتحنت خطيبها لتدرس عواطفه، واصطحبته إلى السينما

والمسارح، وانخدعت بمدنية العصر الأعور الذى يرى الأشياء بعين واحدة، عين المادة التى صنعها وزيّنها إبليس لمن هم على شاكلته. وإذا كانت المرأة اليوم كشفت برقعها المسدول على وجهها الذى غطّته بالأحمر والأبيض، فإنها خالطت الرجل لتتعرف على غرائزه قبل إنسانيته، وأدّى جسمها ضريبة الفن فى المجالس، وصارت أنوثتها اجتماعية لا بيتية، وأوهمها الشيطان أن ذلك حقها الطبيعى فقد عاشت فى دنيا أعصابها، وفرغ فؤادها من الأمن ولم تشعر بالاستقرار، ونحن دائماً نسمع بعض الأصوات مُطَنْطِنَةً بتمْدِين المرأة وحقوقها وحريتها، وهى أصوات لها مآرب غير بريئة من الغرض الذاتى، إن التمدين الصحيح هو الذى يقف بالمرأة عند حدودها الطبيعية، خاصة عند نظرية الحق والواجب، وتكون عاملة بمنهج الدين الصحيح، . متمسكة بالفضيلة، لأن الأدب فَضَّلُوه على العلم، وهو صمام الأمن الذى يحفظ على الإنسان إنسانيته ويجعله يحيا بخصائص روحه الطاهرة، فيشعر بالسعادة والهدوء والاستقرار ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[1].

إن ميزان الحياة الاجتماعية قد اختلّ اختلالاً يُنذر بالخطر عندما ركب الفتى رأسه وهو يقطع صحراء الحياة غير مُلْتفتٍ إلى تكوين أُسرة وإنجاب أولاد، حتى يأوى إلى بيتٍ ينعم فيه بالسعادة، كذلك الفتاة، تقطع هى الأخرى صحراء الحياة اللافحة، وتحت شمسها المحرقة، ولم تنعم بدفء الحياة، وذلك بسبب إضراب الشباب عن الزواج واندفاعهم إلى اللهو، وأصبحت الفتاة فى الحياة ـ وهى بغير زواج ـ كشيك بدون رصيد، وزهرة بدون شذى، فاندفعت خارجة من البيت إلى الشارع، وانتهت إلى الملهى والملعب، وأطلّت برأسها على الناس من نافذة الصحافة والمجلات، ثم نزلت إلى السوق ـ كما تنزل الجواري ـ بائعة ومشترية ودلاّلة، لذلك يئست من حياتها، وأُصيبت بانفصام فى شخصيتها، وهى قلقة خائفة من المستقبل، زائغة البصر، وبسبب ذلك سجّلت الإحصائيات رقماً رهيباً من إقدام الآنسات على الانتحار، وهذا جرس إنذار لنا جميعاً، فهل من مُدَّكِر؟!.

---

(١) سورة التغابن، الآية ١١.

عيِّنات اجتماعية

إن الزِّنَى ما فشى فى قوم إلاَّ حلّ بهم البؤس، وحاق بهم العذاب، لأن العابثين لا بد أن تنالهم يد القُدْرَة الإلٰهية، فليس من المعقول أن يتساوى الصَّالح بالطَّالح، والمُجدّ مع الكسول، والنابه مع الخامل.. وعذاب الله يكون فى صُوَر متعددة، مثل: «الأمراض النفسية، الاكتئاب، التمزق الوجدانى، ظُلمة النفس، القلق النفسى، عدم الرضا عن نفس الإنسان، دمار الأسرة»، وبعد ذلك عذاب من القائل: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾[١].

والمرأة دائماً تحاول أن تنتقم مِمَّنْ أهدر كرامتها، وأذهب شرفها، وحطَّم كيانها، وهذه عيِّنات تدل على ذلك.

كليوباترا التى أفنت عمرها فى الهوى، وعاشت بهيمية اللذات والشهوات، وظلت هى وعشيقها «أنطونيوس» كما يقول أمير الشعراء شوقى:

صباحهما مغازلة وصيد ... وللأفراح والقبل المساء

ولقد جعلت سرير مصر وعرشها كما جاء على لسان حابى:

أترضى أن يكون سرير مصر ... قوائمه الدعارة والبغاء؟

هذه الملكة باستهتارها فقدت شرفها وعرشها وتاجها وأمسكت بالأفعى لتضعها على ثديها، وَخَرَّتْ صريعة نتيجة ما فعلت، وجزاء ما قدَّمَتْ ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[٢].

و«سميراميس» قدمت نفسها فى ليلة من لياليها لعشيقها، وعند الفجر قدَّمته للجلَّاد.

وجاء بجريدة الأخبار[٣] تحت عنوان «رأى بالعربى» للكاتب محمد طنطاوى

---

(١) سورة طٰه.

(٢) سورة فاطر، الآية ٤٣.

(٣) الصادرة فى ٦ مايو ١٩٩٥.

ما نصّه: ماذا يحدث فى المجتمع الريفي؟ لماذا ارتفعت نسبة الجرائم الأخلاقية فى هذا المجتمع الذى اشتهر بتمسكه بالتقاليد والأعراف وحدود الدين؟ هذه الأسئلة وغيرها يثيرها ما نُشر فى الأسبوع الماضى على صفحات الحوادث فى الجرائد المختلفة، من بينها حادث بشع يثير الاشمئزاز والحزن فى نفس كل مَنْ يقرأه.. هل يمكن أن نتصور جريمة تقشعر من هولها الأبدان، وقد وقعت فى إحدى قرى الدقهلية، ولكن الأبشع هو سبب الجريمة، فاعترافات الفتاة قنبلة تنسف كل قواعد الأخلاق والتقاليد: لقد قَتَلَتْ والدها ـ وعمره ٤٧ عاماً ـ لأنه اعتدى عليها وعاشَرَها معاشرة الأزواج بعد أن طُلِّقَتْ من زوجها، لقد قاومته، ولكنه تغلَّب عليها، حاولت الهروب من وجهه، لكنه استطاع أن يخلى البيت من زوجته «أمها» وبقية أولاده لينفرد بها، انهال عليها ضرباً بقسوة ثم نال منها ما يناله الذئب من فريسته، تَجَرَّدَ من كل الأخلاق... ثم تساءل الكاتب فى نهاية مقاله: مَنِ المجرم الحقيقى وراء هذه النوعية من الجرائم التى لم نعرفها من قبل، سواء فى الريف أو فى الحَضَر؟ هل هى أفلام الفيديو الممنوعة، والتى تُعرض فى بعض المقاهى فى الريف دون حساب أو رقيب؟ هل هى الظروف المعيشية داخل بيوت الريف، والتى تجعل الأب والأم والأبناء والبنات ينامون فى غرفة واحدة؟ هل تفشى المخدرات التى تُغيِّب العقل وتثير الغرائز بحيث تُحَوِّل الإنسان إلى حيوان؟ هل هو الجهل مع كل عوامل الإثارة الأخرى التى دخلت الريف مع التطور الحضارى مِمَّا أفقد البعض توازنهم العقلى والسلوكي؟... أسئلة لا إجابة عليها، لأن الكل غافل عن البعض.

كما جاء بجريدة الأخبار[1] فى عامود «فكرة» للكاتب مصطفى أمين: أن محكمة جنايات بور سعيد حكمت بالأشغال الشاقة المؤبدة على أبٍ قام باغتصاب ابنته البالغة من العمر خمسة عشر عاماً وعاشرها معاشرة الأزواج لمدة ثلاثة أشهر كاملة، وكانت المصادفة قد كشفت العلاقة الآثمة التى جمعت بين الأب وابنته، واستنكر الناس هذا الحُكم الذى كان يجب أن يقضى بالإعدام فى هذه الجريمة البشعة التى تستنكرها كل الأديان، وتلعنها السماوات، حتى الذين قالوا عنهم عَبَدة

---

(١) الصادرة بتاريخ ٣ مارس ١٩٩٧.

الشيطان لم يرتكبوا مثل هذه الجريمة، ولم يُلَوِّثوا الأديان المقدسة بهذا الهوان.

وهى واحدة من سلسلة الجرائم التى وُجِّهت إلى البشرية، ونُكبت بها الإنسانية ولوثت صورة المجتمع، وشوهت الروابط الأسرية.

إن الجرائم التى تحدث الآن فى مصر هى جرائم كان من المستحيل أن تحدث لولا التفكك الأسرى ولولا تحكُّم المادة المخيف فى تصرفات هذه الأيام، والذين أسميناهم عبدة الشيطان لم يقوموا بجرائم بشعة ببشاعة هذ الجرائم، ولم تكن لهم يد فيما تنشره الصحف يوميًّا عن جرائم تهتز لها السماء والأرض معاً، ومَنْ أسميناهم عبدة الشيطان فى رأيى أنهم ضحايا أُسَر غابت عن الوعى، ونسيت رسالتها الأولى فى رعاية أطفالها وشبابها، ولم تفكر سوى فى البحث عن المال، وتَرْك أولادهم يعبثون بالحرية الممنوحة لهم فى ظل غياب الأُسرة، وكثرة النقود التى يحصلون عليها كتعويض لهم عن عدم رعايتهم وتوجيههم التوجيه الصحيح الذى يحتاجه أى طفل فى طفولته، وأى شاب أو شابة فى بداية الشباب.

إن الحياة مملوءة بالمآسى، ومليئة بالسعادة، وعندما أقرأ الحوادث البشعة أشعر بتعاسة لا حدَّ لها، وأستغرب ما أقرؤه وكأنى غريب تماماً عن هذه الحياة التى نعيش فيها الآن، وأتمنى لو لم يجئ اليوم الذى قرأت فيه هذه الحوادث عن قتل الآباء لأبنائهم، وعن قتل الأمهات لأطفالهن، وعن اعتداء الأخ على أخته، وعن قتل أخ لأخيه، وعن قتل ابن لأمه، ولو أننى أعتقد أنها حالات قليلة إلاَّ أننى كنت أتمنى ألاَّ تكون فى مجتمعنا الإسلامى الذى ينادى بالحب والتسامح لا بالقتل وسفك الدماء، وسعادتى أن يعيش الناس بالحب والتسامح والترابط.

وجاء بجريدة مايو[1] أن مباحث مكافحة الآداب بالشرقية ألقت القبض على موظف بالتربية والتعليم لحيازته أشرطة منافية للآداب وقيامه بتأجيرها لطالبات المدرسة التى يعمل بها نظير مبالغ مالية بالاشتراك مع أمين مكتبة المدرسة.

ونشرت جريدة الجمهورية تحت عنوان «طالبات الخدمة الاجتماعية فى

---

(١) الصادرة فى ٢٤ أبريل ١٩٩٥، العدد ١٥٠٩٢.

التدريب الميدانى»: «لاحظنا وقوع بنات التجارة المتوسطة فى حب مدرِّسيهم.. امنعوا المدرسين الشباب من العمل بالثانوية بنات». ولقد قالت طالبة: إنها لاحظت تأثير المستوى الاقتصادى للأسرة وتفككها على سلوك ومشاعر وتحصيل البنات، حيث يغلب عليهن السرحان والتفكير فى مشاكل أُسَرهنَّ. وقالت طالبة أخرى: إن أولياء الأمور لا يهتمون بإنذار الغياب، أو باستدعاء المدرسة لمناقشتهم، ويرفضون المشاركة فى اجتماع مجالس الآباء، خوفاً من مطالبتهم بأى تبرعات أو رسوم إضافية، كما أن الطالبات يتم طردهن عند التأخر عن طابور الصباح وتركهن فى الشارع بلا رقيب.

هذه عيِّنات اجتماعية نقلناها. ونترك الباقى لفطنة القارئ وهو يجده فى وسائل الإعلام: من مجلّات، وصحف يومية، أو أسبوعية، ونقف أمام نموذج نضرب به المثل على قوة الإرادة عندما تستيقظ الهِمَّة، وتصحو العزيمة، وتتهيأ المنحرفة إلى التوبة والندم على ما وقعت فيه وانحدرت إليه، ثم تريد أن تستردّ كرامتها وتحافظ على ما بقى من شرفها، ونحن نعتقد أن الخير كامن فى أعماق النفوس، لأننا نحكم على الأشياء بمنطق الفطرة.. وإليك هذا النموذج:

كانت «معاذة بنت عبد اللَّه» واحدة من الإماء فى دار «عبد اللَّه بن أُبَيّ بن سلول»، وقد كان يتاجر فى أعراضهن، حيث يقدمهن لطُلَّاب المتعة نظير مبلغ معين، وعبد اللَّه بن أُبَيٍّ كان من سكان يثرب «المدينة المنورة»، وكان أهل يثرب سيتوِّجونه ملكاً عليهم، فلما وصل رسول الله ﷺ إلى يثرب تركوا ما كانوا قد شرعوا فيه[1]، واغتاظ عبد اللَّه بن أُبَىّ من رسول الإسلام، وأعلن إسلامه، لكنّ فى القلب شيئاً وأشياء، لهذا تعامل بوجهين، فصار منافقاً، وأخذ يكيد بالإسلام، وبرغم أنه أعلن إسلامه فإنه كان يتاجر فى أعراض الفتيات طلباً للثراء، وطعناً فى الإسلام، و«معاذة بنت عبد اللَّه» أسلمت، فامتلأ قلب ابن سلول عليها حقداً وحسداً، لأن «معاذة» كانت تؤمن بأن الإسلام الذى حرر عقلها، حرر كذلك جسدها من المهانة، ورفضت أن تقدم هذا الجسد لطالب المتعة الحرام، لكن ابن

(١) أى: تركوا أمر تتويج عبد اللَّه بن أُبَىّ ملكاً عليهم.

سلول لم يسكت على هذه الفتاة التى خرجت عن طوعه، وهدَّدها بالتعذيب، لكنها لم تستسلم، فعمد إلى شاب قوى، ضخم الجثة، متين البنيان، يخافه من ينظر إليه، وأغرى هذا الشاب أن يعتدى على تلك الجارية حتى يُقهر كبرياءَها، ومن ثَمَّ يستطيع أن يقودها إلى بيوت البغاء، حتى يكسب من ورائها المال الكثير. لكن هذا الشاب لم يستطع تنفيذ ما أمَرَهُ به ابن أُبَىٍّ، لأنها آمنت بالإسلام الذى يُحرِّم الزِّنَى، وأن أى لقاء بين الرجل والمرأة لا يكون إلاَّ بالزواج المبنى على الإيجاب والقبول، والشهود، والوكيل عن الزوجة، وغير ذلك، فهو حرام، والمرأة المسلمة لا يعلوها مشرك، ومَنْ كان على غير دينها، لذلك لم تستسلم برغم إغراء سيدها وإهانة العبد الذى أحاله عليها لها. هذا، وقد اشتد عليها العذاب من ضَرْبٍ وصفع على وجهها، وركل بالقدم، ولكنها كانت توقن بأن هذا الضرب والإهانة أخف عليها من ليلة تُمتهن فيها كرامتها، ويُداس على شرفها، فهى وَجَدت التعذيبَ برغم قسوته أَخَفَّ على نفسها من ليلة بغاء. ولقد امتد العذاب ولم تلن قناتها، ولم تستسلم، بل إن العبد من كثرة ضربها تعب، فأخذته سِنَةٌ من النوم، فخرجت من دار ابن سلول ـ والعبد نائم مُتْعَبٌ من ضربها ـ وتوجهت إلى بيت رسول الله ﷺ، فأمرها أن تستريح بين النساء لعل الله سبحانه يجعل لها ولِمَنْ هم على شاكلتها مخرجاً. ولقد نزل هَدْىُ السماء ووحى الله إلى نبيِّه قرآناً يُتْلَى إلى يوم القيامة، يقول الله فيه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1]، وتناقل الناس هذه الآية. وقالوا: إنها نزلت فى شأن «معاذة»، وشاع الخبر أن ابن سلول الذى يزعم الإيمان يُكْرِهُ فتياته على البغاء، وهو الذى كان سَيُنَصَّبُ ملكاً عليهم، لكن هذا الرجل يتاجر فى أعراض النساء ليربح المال، فهو يدَّعى الإسلام ويُضمر الكفر، فهو منافق، وإن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار، ولن تجد لهم نصيراً. وابن سلول هذا أعتق الجارية «معاذة» التى كتبت حريتها بما سالَ من جسدها من دماء على إِثْرِ التعذيب الوحشى من ابن سلول وعبده. ولقد عاشت هذه المرأة حياة الفضيلة والعفَّة، حيث أشعرها الإسلام بكرامتها وعزتها، فلم تَبِعْ نفسها

---

(١) سورة النور، الآية ٣٣.

لرجلٍ مهما كان ماله أو سلطانه، لأن الشرف لا يُباع، والحُرَّةُ لا تُمتهن.

إن باب الله مفتوح أمام أى بغىٍّ لتتوب، وباب التوبة لا يُغلق، لأن الله رحيم بالعباد، ونحن بَشَر، فمن تنكب به الطريق وانحدر إلى الهاوية فإن علينا أن نأخذ بيده لينهض من كبوته ولا نكون عوناً مع الشيطان عليه، وأن ندله على باب الكرامة ونُهيِّئ له حياة طيبة فى ظل الإيمان بالله الواحد الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، وهو مع كل إنسان فى أى مكان، لا تختلط عليه الأصوات، ولا تتشابه عليه الصور. والإنسان العاقل عليه أن يتجه إلى خالقه يعبده ويلتزم بهديه، يرجو رحمته ويخاف عذابه، وأن يكون أميناً على نفسه، صادقاً مع الله، وصادقاً مع الناس، لا يخون ولا يُخادع، إنما يعيش حياة الطُّهْر والعفة، حتى يعيش سعيداً هادئ النفس مستقر الحال.

السَّبْى

إن المرأة كانت تُدْفَعُ إلى البغاء بيد الرجل ليتكسب من ورائها، ونحن لا نُزَيِّفُ التاريخ فنُمثله زهراً لا شوك فيه، لأننا أحياناً نجد من الصداقة ما يؤلم.. ولقد أُصيبت المرأة طوالَ تاريخها بفترات قاسية جدًّا تركت جرحاً عميقاً فى نفسها أو سَبَّبَ لها إهدارَ كرامتها، وكان بعض الرجال يلجأون إلى سَبْيِها، أى أن تتحول إلى أَمَةٍ عبدة رقيقة، بعد أن كانت حرة، وعندما تتحول إلى أَمَة - بعد أن كانت حرة - فإنه يحق للرجل الذى سباها أن يبيعها، أو يتسرَّى بها، أو يؤجرها فى البغاء ليربح من ورائها.

وكان العرب فى حالة الحرب يُخْرِجُون نساءهم ويجعلونهن خلفَ الصفوف، ليكون ذلك دافعاً للرجال فى الإقدام والاستبسال فى القتال، وربما غلبوا، فيكون هَمُّ الظافر أن يتخذ النساء المقهورات سبايا يسوقهن أمامه ويتحكم فيهن كما يتحكم فى ماله، وكان ذلك من باب الفخر، وحتى يقطع على خصمه كل عرق ينبض. ولقد كان بعض العرب يخلط السبايا بنسائه، ويُزوجهن من عظماء الرجال وقادة الجيش، وفى ذلك يقول الشاعر عبد اللّه الطائى:

فما أنكحونا طائعين بناتهم ولكن خطبناها بأسيافنا قَسْرا
فما زادها فينا السّباء مذلةً ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قِدْرا
ولكن خلطناها بخير نسائنا فجاءت بهم بيضاً وجوههم زُهْرا
وكائن ترى فينا من ابن سبية إذا لقى الأبطال يطعنهم شَذْرا
ويأخذ رايات الطعان بكفّه فيوردها بيضاً ويصدرها حُمْرا
كريم إذا اعتزَّ اللئيم تخاله إذا ما سَرَى ليلُ الدُّجَى قمراً بَدْرا

وهناك مِنْ سادات العرب وذوى زعامتهم أنجبَتْهُم سبايا، فلم يَضَعْ ذلك من أقدارهم، أو يقلل من أحسابهم، وذلك مثل دُرَيْد بن الصِّمَّة، حكيم العرب وشاعر فرسانهم، أُمُّه ريحانة بنت معد يكرب، أسرها الصِّمَّة بن عبد اللّه ثم تزوجها، فأنجبت دُرَيْداً وإخوته، وفى ذلك يقول الشاعر:

أمن ريحانة الدَّاعَى السميع يؤرقنى وأصحابى هجوع
سَباها الصِّمَّة الجُشَمِىّ غصباً كان بياض عزتها صديع[1]
وحالت دونها فرسان قيس تكشف عن سواعدها الدروع
إذا لم تستطع شيئاً فَدَعْهُ وجاوِزْهُ إلى ما تستطيع

وقد كان بعض النساء عندما يقعن فى الأَسْرِ يُحاوِلْنَ الخلاص منه خوفاً من المصير الذى ينتظر الواحدة منهن، وإذا لم تجد إلا الموت أقبلت عليه راضية، وهى تُرَدِّد: الموتُ ولا الدَّنِيَّة، ذلك لأن المرأة التى تعتز بكرامتها وتحافظ على شرفها تحافظ على ذلك مهما كانت الظروف، فكما قلنا من قبل: تموت الحُرَّة ولا تأكل بثدييها. ونابليون الذى فتح الحصون وأزال الممالك سُئِلَ مرة: أى قلاع فرنسا استعصت عليه؟ قال: المرأة الصالحة، لأنها تربِّى الوليد بيمينها وتهز العالم بشمالها. ولعلنا نذكر تلك المرأة النخعية التى استعرضت بنيها عند ذهابهم لحرب الفُرْسِ قائلة لهم: «والله ما خُنْتُ أباكم، ولا فضحتُ خالكم، ولا لوَّثتُ شرفَ أجدادكم... انطلقُوا رءوسكم مرفوعة، وهامتكم عالية، تحرسكم عناية الله الذى يتولى الصحالحين».

---

(١) يعنى: ضوء القمر.

ولقد حدَّثوا أن فاطمة بنت الخُرْشب لَمَّا أَسَرَها حمل بن بدر رمت بنفسها من الهودج منكسة، فماتت وهى تردد: أموت ولا أفضح أهلى وأُلَوِّث شرفى، وأُمْتَهَنُ فى دنيا الناس».

هذه نماذج حفظتها ذاكرة التاريخ وسَجَّلها لتكون أمام أعيننا درساً نستفيد منه، لأن العاقل من اتَّعظ بالأحداث.

الاسترقاق

إن التاريخ يحدثنا بأنه منذ العصور الأولى ونظام الحياة يقوم على وجود طبقة من الرقيق تكدح وتعمل وتتعب، ووجود سيد فاتح يستولى ويحكم، ولقد أقرت المدنيات نظام الاسترقاق، ووضعت القوانين الضابطة له، فالمُشَرِّع الرومانى كان يتكلم عن المرأة التى سُلبت منها حريتها فيعرض لها كما يعرض لسلعة من السلع، فالأَمَة إذا حدث منها هفوة فجزاؤها السجن والضرب بالسياط، وقد بلغ من افتيات الشريعة الرومانية على حقوقها أنها لا تصبح مواطنة تتمتع بامتياز حقوق المواطنين، حتى ولو أُعتقت.

وكانت جموع الرقيق ـ رجالاً ونساءً ـ يدخلون «روما» صفوفاً صفوفاً، حيث تُوَجَّهُ النساء للخدمة فى بيوت القُوَّاد. وفى الهند كان السيد البرهمى له كل الحقوق تجاه العبيد، حتى ولو حَكَم عليهم بالموت. وكانت اليهودية ترى أن القسوة فى معاملة الأرِقَّاء تشريع من تشريعاته. ومن الغريب أن الديانة المسيحية ـ وهى تقوم على التسامح والعطف ـ أقرَّت الوضع اليهودى فى التشريع، كما فى رسالة بولس لأهالى أفسيس. وبالجملة، فقد كان الأرقاء يلاقون العذاب والهوان والاحتقار، ويُلْزَمُون بكثير من الواجبات، فى حين لا يُعْتَرَفُ لهم بأى حق، والجارية هى كل امرأة أُخذت أسيرة فى الحرب، أو أُخذت أَسْراً من قومها، حيث يبيعها النَّخَّاس. وكانت دار الرقيق فى بغداد قُرْب دِجْلَة، وفى القاهرة قُرْب باب الخلق، وكان النخاسون يخرجون خلف الجيوش، ثم يشترون من المنتصر سباياه، فلما جاء عهد إسماعيل (خديوى مصر) قضى على هذه التجارة، لكنها استمرت خفية. وكان إمبراطور الحبشة يشجع ذلك، حتى تدخلت عصبة الأمم المتحدة عام ١٩٤٠ فَقُضِىَ على ذلك، وإن كانت استمرت فى سنغافورة حتى وقت قريب.

وقد لعبت الجوارى دوراً خطيراً فى قصور الملوك والأمراء، لأنهن يتمتعن بمعرفة الأدب والغناء، ويجارين الشعراء ارتجالاً، ولا سيما فى مطارح المجون. كذلك قدرتهن على الدعابة وترويج الأفكار والآراء، الأمر الذى أحدث خلخلة اجتماعية وفساداً فى المناخ العام، وتسبب ذلك فى غواية الكثيرين، حيث أقبلوا على شرب الخمر، والاستماع للأغانى والرقص، خاصة من الإماء اللواتى كن يتمتعن بحظ وافر من الجمال والبراعة فى الغواية، وقد نال كثير منهن حظوة لدى الأمراء والقوّاد، وأصبح لهن من النفوذ والتأثير درجة كبيرة، حتى إن جارية أقسمت يوماً على هارون الرشيد أن يولى أحد أقربائها الخراج ببلاد فارس لمدة سبع سنين، فامتثل لها وكتب عهداً بذلك، وشرط على ولىِّ عهده أن يتمها له إنْ لم تتم فى حياته. ولقد أدى ذلك إلى أنهن شاركن فى المؤامرات التى تحاك فى بلاط الخليفة لخلعه ومبايعة آخر. وكان هذا من أسباب زوال مُلْكِ بعض الممالك وقيام دولة أخرى، ولكن لم يتَّعظ اللاحق من السابق.

ولقد عرفت الدولة الأوربية نزعة اللهو فى سلاطين آل عثمان، فبعثت إليهم بالجوارى، وتُوعِزُهُنَّ بالتدخل فى شئون القصر لتنفيذ أغراض هذه الدول، والتاريخ لا يكذب، لأن ما حدثَ مُسَجَّلٌ على صفحاته. ونحن عندما نتصفَّح التاريخ نحمد الله الذى جعلنا من أتباع الإسلام الذى ارتقى بالمرأة وحَفَظَ لها حريتها، وحَرَّمَ اختطافها، وأمر بمن يتهجم على المرأة أن يقوم الحاكم بتطبيق آية الحَرابة عليه، وهى قول الله: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾[1].

إن المرأة عاشت فى كنف الإسلام أسعد ما تكون لا تمسها يد بسوء، فلما اختل ميزان الحياة وخرجت المرأة على عادات قومها ومألوف بيئتها وقيم دينها أثَّرَ ذلك على كيانها الاجتماعى، وحِيلَ بينها وبين المعرفة الحقيقية، فاضطربت

---

(١) سورة المائدة.

حياتها، وصارت أشبه بمتاع المنزل فى النزل، ثم جاء ما سُمِّىَ بالنهضة العصرية، فتخلصت المرأة من الأَسْرِ، لكنها مع الأسف لم تُحسن التخلص.

إننا نريد للمرأة حياة الفضيلة وعيشة النعيم، وأن تكون ذات شخصية جذابة، ينمُّ جسمها عن جمال رشيق، تمدُّه الصحة بينبوعها الفوار، وتهذِّبه بالرياضة، وتنمّ روحها عن جمال معنوى، من ذهن مشرق وشعور رقيق، ورأى نبيل. نريدها كالتى يقول عنها الدكتور طه حسين فى بعض كتبه وهو يهدى الكتاب إليها: «إلى زوجتى التى جعل الله لى فيها نوراً بعد ظُلْمَة، وأُنْساً ونعمة بعد بؤس».

إننا نريد المرأة أن تكون أجذب أنوثة من «كليوباترا»، وأعذب حديثاً من «شهرزاد»، وأفتن رشاقة من «بنات هوليود»، فيستمد زوجها منها المدد، ويتزود بالقوة، لتكون ما يقول القائل: «كلما وجدتُ رجلًا وصل بعمله إلى غايات المَجْد وجدتُ بجانبه امرأة محبوبة فاضلة». ثم هناك زوجة «بسمارك» السياسى الألمانى الكبير يقول عنها: «إن زوجتى هى التى جعلتنى مَنْ أنا». فهل تقرأ المرأة ذلك وتعرف وضعها الطبيعى فى المجتمع؟ الذى يريد لها أن تكون ربة بيت بارعة، وزوجة حانية، تتربع على مملكتها لترعى أطفالها الذين هم رجال الغد، وتعيش بقيم الدين وعادات الأهل وتقاليد المجتمع لتَسْعَدَ بالأمن والاستقرار، ولا تخدعها تلك الكلمات التى يقولها مَنْ يريد إعادتها إلى قفص الرِّقِّ، مزركشة الثياب، ملطخة الوجه، يقودها القَوَّدا إلى مكان تُذْبَحُ فيه الفضيلة باسم الفن الذى هو برىء مما نراه على الساحة، لأن الفن انعكاس لقيم المجتمع وعادات أبنائه، والذى نراه فى السينما أو المسرح أو التلفزيون لا يمثل عادات المجتمع ولا يعكس قيمه أبداً، وإن كان فبنسبة ٢٪، لأن الفن له رسالة وغاية يسعى لتحقيقها فى المجتمع، وهى تأصيل القيم الأخلاقية، وترسيخ العادات الحَسَنة فى نفوس الجماهير، لكن للأسف ما نراه حُبٌّ وخمر ومخدرات وصور مهزوزة وشخصيات لا جذور لها، لهذا نحن ندقُّ الجرس ونقول: انتبهوا يا سادة قبل فوات الأوان ولا تهينوا المرأة وتجعلوها مُبْتَذَلَة، وكفى ما كان.. ونهمس فى أُذُن المرأة: «احترسى وحافظى على شخصيتك وتمسكى بعادات آبائك، وحافظى على سُمعة أهلك تعيشى مرفوعة الرأس، يحفّ بك البهاء والوقار.

ربَّة الأسرة السعيدة

إن المكان الأول للمرأة فى المجتمع الإنسانى هو أن تعشش على أُسرة سعيدة، وتحتضن أطفالها بحب وحنان، وليس هناك امرأة فى الوجود إلا وهى تتمنى ذلك، والأقوال كثيرة فى هذا المجال، والإنسانية لم تصل إلى ما وصلت إليه من الأسس العظيمة لبناء الأسرة وتنظيمها إلا بعد آلاف السنين، ذلك لأن العوامل الاجتماعية التى أوجدها التطور وارتضاها العقل الجَمْعى وحصَّنتها الشرائع السماوية بنظم تؤكد الروابط بين الذكر والأنثى، كل ذلك لتؤدى الأسرة رسالتها فى إسعاد الأبناء ورفاهية المجتمع. إن على المرأة أن تأخذ مكانها الطبيعى على قمة الأسرة، وأن تتبوأ مكان الرأس من الجسد فى الأسرة، بل مكان القلب من البدن، ذلك لأنها هى التى تُرسل دم الحياة المملوء بالنقاء والبهجة والسرور فيمن حولها، لأن عليها يقوم كيان البيت وسعادته ورُقيه وهناءته، لأن «الأمومة» هى وظيفتها الأساسية، حيث تتجلى هى فى إيجاد الروابط بين أفراد الأسرة. إن عليها حسن التوجيه، خاصة للأطفال فى سنى حياتهم الأولى لأنهم فى هذه المرحلة تتكون شخصياتهم، وهم يمرُّون بفترات تطرأ عليهم التغيرات الجسدية، والانفعالات النفسية، وليس هنك رابطة مثل رابطة الأمومة التى لا تعرف الضعف على مدى الزمان والأيام.

إن المرأة ملكة غير مُتَوَّجة على مملكتها الصغيرة، فلا تعيش على هامش الأسرة عيش الترف واللامبالاة، بل لا بد أن تكون حازمة فى سياسة الأسرة، عارفة لكل صغيرة وكبيرة من الحساب الداخل للبيت والخارج منه، فهى زوجة فاضلة، وراعية للطفل فى مهده، ومهيئة المنزل ليجد الزوج راحته ويشرف على أولاده. إنها بذلك ترتفع بالمستوى الاجتماعى للأسرة المثالية التى تنعم بالأم العاقلة، والزوجة الفاضلة، فلا تترك بيتها وتذهب إلى الخياطة لتقضى عندها الساعات، أو تذهب إلى «الكوافير» وتقضى هناك نصف النهار، أو تذهب إلى عيادة طبيب وتمكث هناك ثُلث الليل، أو تذهب إلى السينما أو المسرح وتترك البيت والأولاد بلا رعاية ولا تخطيط، كل ذلك يوجد التصدع فى الأسرة، والتسيب أو الانحراف

فى الأولاد، ويبحث الزوج عن أخرى تشاركه همومه وترعاه، وهنا يكون الشر الذى ينشر خلاياه فى المنزل فيتصدع وينهار، ولذا قيل فى حق الأطفال الذين أُهْمِلُوا:

ليس اليتيم من انتهى أبواه مِنْ هَــمِّ الحيــاة وخَلَّفــاهُ ذليــلا
إن اليتيــم هــو الــذى تَلْقَـى لـه أُمّــا تَخَلَّــتْ أو أبــاً مشغــولا

فالأسرة السعيدة هى التى تقوم فيها الأم بأداء دورها كاملًا، لأنها هى التى تعشش على بيتها، ومثلها كمثل «المغناطيس» الجميع ينجذب إليها، لما تتمتع به من حُبٍّ وحنان دافق، وهى مع ذلك تشجع زوجها على العمل الجاد، وتُدخل الأمن على نفسه، لأنها راعية للبيت، محافظة على شرف الأسرة وكرامتها، أمينة على بيتها، لا يدخله أحد فى غياب زوجها، لأن عملية الضبط والربط شىء أساسى، فهى تقول لزوجها: ابْحَثْ أنتَ عن رزق الله بطُرق الحلال، وإيَّاكَ والحرام، فإنَّا نصبر على الجوع والعطش ولا نصبر على العار الذى يلحقنا عندما تُضْبَطُ وأنت مُتَلَبِّسٌ برشوة، أو قمت بالغش فى البيع أو التدليس فى عملك، فإن الخير كله فى الحلال ولو كان قليلًا، وإن الشر فى الحرام ولو كان قليلًا أيضاً.

وإنَّا مُلِمُّون بحديث عن كرامة المرأة من الوجهة الإسلامية، حيث قرن الإسلام بين الرجل والمرأة فى عامة المواطن، ونظراً لما عُرِفَ عن المرأة من رِقَّة القلب ودقة الوجدان، ولأنها مناط شرف الرجل وموطن عِرْضِه فإنه اختصَّها بنصيب من الحُرْمَة والكرامة لم يظفر بمثله نظراؤها من الرجال. إنَّ كرامة المرأة فى الإسلام تتناول شخصيتها وسيرتها، وتشمل مشهدها ومغيبها، فمن حقها أن تكون فى موطن الرعاية والعناية، وأن يكون اسمها بِمَنْجاةٍ عن لغو القول ومَنالِ اللسان، وحَسْبُكَ أن الله أنكر فى كتابه على قاذِفِى النساء فى أعراضهن بأشد مِمَّا اشتدَّ على القَتَلَة وقُطَّاع الطريق، واقرأ معى ما جاء فى سورة النور: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ لأن صيانة اسمها وكرامة سيرتها من الأمور الهامة، حفاظاً على روابط الأسرة، وكرامة الأولاد بين نُظرائهم، وسمعة الزوج بين أهل حَيِّه، لذلك يُعاود القرآن الكريم الحديث

عَمَّن يغمزُ ويلمز فى حياة السيدات، ويَسِمُ مَن يتطاول على شرف النساء بالحديث الملفَّق والتُّهَم الباطلة بالفسق والفجور، بل يتَّهمه فى ذمته وعدم قبول شهادته، فيقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[1].

ذلك حُكْم الله فى مجموعة الأفَّاكين المُرْجفين الذين يحبون أن يشيعوا فالَةَ السُّوء عن بعض النسوة، وهم لا يزالون يلهثون يروِّجون بألسنتهم ما أكنَّته البيوت من أعراض الحرائر، فهل يسمع رجال اليوم ما قاله الحق سبحانه وتعالى فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[2]. إن بعض الحاقدين يحسد غيره على مكانته أو مركزه، ويضمر له السوء بسبب نباهته وعُلُوِّ شأنه، فلا يجد وسيلة للنيل منه إلا أن يلغ فى عرضه، ويعثو فى كرامة أهله. وهناك مَنْ يشعر أن عِرْضَه مصدوعٌ، وشرفه مشدوهٌ، فيتخذ بيتَ غيرِه لينال منه، عساه يدرأُ عنه العيون المُحْدِقة، ويكفّ دونه حديث الألسن، لذلك فنحن نُنبِّه على أن الأكاذيب لا ينبغى عليك أن تُروِّجها، ولا تتبع الإشاعات، ولا تبحث عن أسرار البيوت، فإذا كانت لك عَيْنٌ فللناسِ أَعْيُنٌ، وإذا كان بيتُك من زجاج فلا تَرْمِ بيتَ الآخرين بالطوب. كما أننا نهيب بكل امرأة أن تلتزم الأدب، وتتعامل بالاحترام مع الآخرين، ولا تضع نفسها موضع الشك والارتياب، وإنما هى إذا غاب عنها زوجها حفظته فى نفسه وماله وأولاده.

إن بعض الناس يضربون نساءهم ظنًّا منهم أن الضرب وسيلة للأدب، بل قد يكون هو وسيلة للخروج على التقاليد والأعراف، وقد حَدَّثُوا أن امرأة جاءت إلى النبى ﷺ وقد ضرَبَها زوجُها ضرباً شديداً، فقام رسول الله ﷺ فأنكر ذلك، وقال: «يظل أحدكم يضرب امرأته ضَرْبَ العبد، ثم يعانقها ولا يستحى»[3]. ورُوِىَ أن

---

(١) سورة النور.

(٢) سورة النور.

(٣) ورواه البخارى فى كتاب «النكاح» بصيغة النهى، عن عبد اللَّه بن زمعة قال: قال ﷺ: «لا يَجْلِدْ أحدُكم امرأتَهُ جَلْدَ العبدِ ثُمَّ يجامعها فى آخر اليوم». وفى الحديث نَهْىٌ عن أن يُبالغ =

رسول الله ﷺ نَهَى عن ضرب النساء، فقيل: يا رسول الله، إنهن قد فَسَدْنَ، فقال: «اضربوهنَّ ولا يَضْرِبْهنَ إلا شراركم»[1]. والمسلمون عندما سمعوا ذلك كَفُّوا الأذى عن نسائهم. وقال أحدهم وكانت زوجته تسمَّى زينب:

رأيتُ رجالاً يضربون نساءَهم فَشُلَّتْ يَمِينى حين أضربُ زَيْنَبا

إنك لا تجد قوماً أبعد مَدًى فى الضلال، ولا أقصر يداً عن الحقيقة، ولا أقل فهماً من أُناس أجازوا لأنفسهم الحُكم على الإسلام وليسوا منه فى قليل ولا كثير، فأباحوا لأنفسهم أن يكتبوا عن النساء فى الإسلام، وزعموا أن الإسلام حَكَمَ عليهنَّ أن يَكُنَّ قعائدَ بيوتٍ، لا رأى لهنَّ. ولا نصيب لهن من الحرية يعتززن بها، وتلك إحدى نزعات الهوى الذى انساق إليه مِمَّن لا علم عندهم. ونقول لهؤلاء: إن الإسلام لم يشرع قط للمرأة أن تكون رهينة البيت أو سجينته، بل الحقيقة أنها هى ربَّتُه، والقائمة بأمره، والمسئولة عنه.. يعاونها الرجل وتعاونه. وانظر إلى ما منحها الإسلام من حرية فى الرأى عندما تختار زوجها، أو حرية الزواج، فليس لأحدٍ أن يُجبرها على أن تقترن بأحد لا ترغب فيه، وحريتها فى ذلك وصلت إلى أبعد مَدى وأتمّ شأن، وإذا كان الإسلام قد جَعَلَ حق التزويج لوليٍّ الأمر فَحَقُّ المرأة فى قَبُولِ مَنْ ترضاه من الأزواج وَرَدٍّ من لا ترضاه كفله لها الإسلام. وقد منع الأولياء من الاستبداد فى تزويج مُولِّيَاتِهم من بنات وأخوات وغيرهن بغير رضاهن. كذلك نبَّه الإسلام إلى منع المرأة من التزوج بغير كفء يرضاه أولياؤها وقرابتها، كما أنه ليس للأولياء ولا للوالد نفسه أن يمتنع من تزويجها بأى كفء ترضاه. فقد روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تُنْكَحُ الأَيِّمُ حتى تُسْتَأْمَرَ، ولا البكر حتى تُسْتَأْذَنَ**». قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: «**أن**

= الرجل فى ضرب امرأته ثم يجامعها من بقية يومه أو ليلته، فالمجامعة أو المضاجعة إنما تُستحسن مع ميل النفس والرغبة فى العشرة، والمجلود غالباً ينفر مِمَّن جَلَده، فوقعت الإشارة إلى ذمّ ذلك.

(1) طبقات ابن سعد، ج ٧. والجدير بالذكر أن الضرب ـ إنْ كان ولا بدّ منه ـ فليكن للتأديب بالضرب اليسير بحيث لا يحصل منه النفور التام، فلا يفرط فى الضرب ولا يفرط فى التأديب [انظر: «فتح البارى»، المجلد التاسع، كتاب «النكاح»، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٤].

تسكت». وسألت السيدة عائشة رضى الله عنها النبى ﷺ عن استئذان البكر، فهى تستحى أن تجيب فتسكت، فقال: «**سُكاتها إذنها**»[1].

نعم، إنَّ أمْرَ الزواج شأنها هى وحدها، لذلك من حقها أن تفصم عُقْدَةَ الزواج إذا خُدِعَتْ فيه، أو أُكرهت عليه، مهما أُنفق فى سبيلها، وليس لأحد أن يقودها قهراً إلى ما لا تريد، فقد رَوَى الإمام أحمد «أن فتاة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إنَّ أبى زَوَّجَنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته، فجَعَل النبى ﷺ الأمْرَ إليها، فقالت: قد أَجَزْتُ ما صَنَعَ أبى، ولكنى أردتُ أن أُعْلِمَ النساءَ أنه ليس إلى الآباء من شىء»، تعنى أنه ليس للآباء إكراه البنت على التزوُّج بمن لا ترتضيه. وهل هناك ما هو أدل على احترام رأى المرأة فى هذا الموطن ـ وهو أدقُّ مواقفها وأمسُّها بحياتها ـ من حديث الخنساء بنت خِدامٍ الأنصارية التى قالت للنبى ﷺ: «إنَّ أبى زوَّجنى من ابن أخيه وأنا لذلك كارهة. فقال ﷺ: «**أَجِيزى ما صَنَعَ أبوك**». فقالت: ما لى رغبةٌ فيما صَنَعَ أبى. فقال ﷺ: «**اذهبى فلا نكاحَ له، انكحى مَنْ شِئْتِ**»، فقالت: أَجَزْتُ ما صَنَعَ أبى ولكنى أردتُ أن يَعْلَمَ الناسُ أن ليس للآباء من أمور بناتهم شىء».

وهل أتاك حديث «بريرة» تلك الجارية الحبشية التى كانت مِلْكاً لعتبة بن أبى لهب، وزَوْجُها عبد للمغيرة بن عُتْبَة، ما كانت ترضاه لو كان الأمر لها، فأشفقت عليها عائشة أم المؤمنين فاشترتها وأعتقتها، فقال لها رسول الله ﷺ: «**مَلَكْتِ نفسَكِ فاختارى**». وكان زوجها يمشى خلفها ويبكى، وهى تأباه، فقال النبى ﷺ لأصحابه: «**ألا تعجبون من شِدَّة حُبِّه لها وبُغْضها له؟**»، ثم قال لها: «**اتَّقى الله فإنه زوجك وأبو ولدك!**»، فقالت: أتأمرني؟ قال: «**لا، إنما أنا شافعٌ**»، فقالت: إذاً لا حاجة لى إليه». فهل يعجب الناس بعد ذلك أن يقف فتيات العرب دون عسف آبائهن وأولياء أمورهن؟

ثم إنَّه قد ينتهز أحد الآباءِ عِزَّة الصِّبا وخَجَل الحداثة، فيزوجوهن ممن لا

---

(١) متفق عليه. وانظر: «فتح البارى بشرح صحيح البخارى»، ج ٩، ص ١٩١، كتاب «النكاح».

يُدانيهن فى طبع، ولا يُواتيهن فى خُلُق فيرجعن على الآباء باللوم والخصومة، من ذلك ما كتبته امرأة إلى أبيها، وكان قد زَوَّجها وهى حَدَثَة، فقالت:

أيــا أبتــا عَنَّيْتَنــى وابتليتنــي وصَيَّرْتَ نَفْسى فى يدى مَنْ يهينها
أيا أبتا لولا التحرُّج قد دعا عليك مجاباً دعوة يستدينها

وقالت أيضاً:

أيا عجباً لِلْخَوْدِ يجرى وشاحها تزف إلى شيخ من القوم تِنْبالِ[1]
دعــاهــا إليــه إن ذو قــرابــة فويلُ الغوانى من ابن العم والخال

وقد ذهب إمام العراق «ابن شبرمة» إلى أن زواجَ البنت باطل ما لم تَبْلُغْ وتصارح برأيها فيمن يريدها، واستدل بقول الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾[2]. فالتعبير عن بلوغ الرشد ببلوغ النكاح دليل لا يقبل النقض، على أن زواج القاصر لا نَفاذ له. ولقد كان من عادات العرب فى جاهليتهم أن الرجل إذا مات عَمَدَ أَخصُّ أقربائه فطرحَ ثوبَهُ على امرأته وقال: أنا أَحَقُّ بها، ثم إنْ شاءَ تزوَّجَها، وإن شاء زَوَّجَها غيره وأَخَذَ صَداقَها، وإن شاء عَضَلَها لتدفع له مبلغاً يرضاه بما ورثت من زوجها، فحَرَّمَ الله ذلك، وأنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾[3]، فأصبح حراماً على الرجل أن يستبقيها على كُرْهٍ منها، ثم قَلِّبْ نظرَك فى كلمات تلك الآية الكريمة واملأْ منها يدك، وارْوِ من معين بيانها قلبك، ثم انظر: هل تقيم على وجدانك أو تقرّ عى عاطفتك فيما تكره من أمر امرأتك؟ وما ظنك بأَمْرٍ تكرهه ثم تظل على الحاجة فيه بعد أن مناك الله بالخير الكثير من ورائه؟ وأين ذلك من حُسن الثقة وتمام الإيمان بالله؟ اقرأ قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن

---

(١) الخَوْدُ: الشَّابَّة الناعمة الحَسَنَةُ الخُلُق. والتِّنْبال: القصير.

(٢) سورة النساء، الآية ٦.

(٣) سورة النساء، الآية ١٩.

﴿تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾[1]. واسمع من فمّ النبى الطاهر وهو يقول: «لا يَفْرَكُ مُؤمنٌ مؤمنةً، إنْ سَخِطَ منها خُلُقاً رَضِىَ منها آخر»[2]. وعمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل رجلًا لِمَ طَلَّقَ زوجَتَه؟ قال الرجل: لا أحبها. قال عمر: أَكُلُّ البيوت بُنيت على الحُبِّ؟ أين الرعاية والذمم؟

ولم يقف الإسلام عند هذا الحد من صيانة المرأة وكرامتها وحريتها، بل نبَّه إلى الترفيه عنها، والحرص على إدخال السرور عليها، واجتلاب ما يفرحها ويشرح صدرها، ويؤكد ذلك أنّ النبى ﷺ أجاز للسيدة عائشة رضى الله عنها أن تنظر إلى فتيان الحبشة وهم يلعبون بحرابهم فى المسجد النبوى وكان النبى ﷺ قد وطّأ كتفه لها حتى تنظر إليهم، وقال قوله: «لِيَعْلَمَ اليهودُ أنَّ في دينِنا فُسْحَةً»، أى ليس عندنا تزمُّت ولا حَجْرٌ على العقول.

---

(١) سورة النساء.

(٢) رواه مسلم. وانظر: «الحلال والحرام» للقرضاوى، ص ١٧٢. ومعنى «فَرَكَ»: كَرِهَ وأبْغَضَ، وأكثر ما يُستعمل فى بِغْضَةِ الزوجين.

تكوين الأسرة

الأسرة هى المؤسسة الأولى فى الحياة الإنسانية والكيان الاجتماعى، ولكى يتم تكوين الأسرة على أُسس سليمة ونظام صحيح فإنه لا بد أن يكون هناك ارتباط بين طرفين (ذكر وأنثى)، بشرط أن يكون هناك إشهارٌ، ووليٌ، وشاهدان ـ قبل الارتباط ـ على أن تتوفر الإرادة الكاملة بين الطرفين عند الاقتران، لأن الأسرة القوية المتماسكة هى التى تُسهم فى بناء المجتمع، ولهذا كان عماد الأسرة القوية الزواج الذى ينشأ عن عَقْدٍ تُباركه العناية الإلٰهية، وتزكِّيه روابط المحبة والمودّة، وإلى هذا أشار الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[(١)].

وللزواج دوافع كثيرة أهمها ـ بعد الترابط الأسري ـ إيجاد الذرية التى يسعد بها الإنسان، لأن حب الأولاد شىء فطرى فى طوايا الشخص. ونظراً لميل الإنسان إلى أن يكون له ولد تتجدَّد به حياته وتمتدّ، فقد نَوَّه الله بقيمته وأقسم به فى القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ ﴾[(٢)]. ويقول الأحنف بن قيس: الأولاد ثمر قلوبنا وعماد ظهورنا. ويقول آخر: أولادنا أكبادنا تمشى على الأرض.

فحُبُّ الوالد لولده شىء فطرى متأصل بالمشاعر النفسية والأحاسيس العاطفية، وهذا شىء لا دخل للإنسان فيه، لأنه فطرى جُبِلَ الإنسان عليه.

---

(١) سورة الروم.

(٢) سورة البلد.

الأولاد نعمة:

نِعَمُ الله على العباد كثيرة: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1]، ومن أَجَلِّ النِّعَم وأعظمها إنجاب الأولاد، وقد جعل الله ذلك آية من آيات فَضْلِه وكرمه على الناس، فيقول الله في بيان هذا: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾[2]، والحفدة: أولاد الأولاد.

كذلك أخبرنا أنه من دعاء الصالحين أن يهب الله لهم الذرية الطيبة الصالحة، من ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾[3]، ويقول سبحانه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[4]، كما أنهم مِنْحَةُ الله وعطيَّتُه لبني الإنسان، قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾[5]. كما أخبرنا أن الأنبياء تطلعت نفوسهم إلى الولد، وتمنَّى كل واحد منهم أن تكون له ذرية، فقد جاء في القرآن الكريم عن سيدنا زكريا عليه السلام قوله: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾[6].

وكان من دعاء الصالحين: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾[7]. وامرأة عمران عندما رزقت بالسيدة مريم دعت ربها قائلة: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾[8]. ونعمةُ الله تستحق الشكر، وشُكر الله على إنجاب الأولاد رعايتهم رعاية كاملة، وتهيئة المناخ الاجتماعي لهم ليعيشوا سعداء في حياتهم، وهذا شُكر الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة إبراهيم، من الآية ٣٤.
(٢) سورة النحل، من الآية ٧٢.
(٣) سورة الفرقان.
(٤) سورة الكهف، من الآية ٤٦.
(٥) سورة الشورى.
(٦) سورة آل عمران.
(٧) سورة الأحقاف، من الآية ١٥.
(٨) سورة آل عمران.

الأولاد أمانة

لكى تتحقق للإنسان سعادته فى الدنيا بأولاده فقد نبَّهنا الإسلام أن تكون لَبِناتُ الأُسرة قوية متماسكة، لأن دين الله جاء لتكوين المجتمع الفاضل والارتقاء بشأن الإنسان ماديًا وأدبيًا، لأن الدين جاء لإسعاد الفرد والجماعة، وتوطيد دعائم المجتمع، لينهض الفرد لبناء الدنيا وإصلاح الآخرة، مع القوة التى يتحلى بها الشخص: صحة فى بدنه، وسلامة فى عقله، لكى ينهض بالرسالة التى كُلِّفَ بها على أرض الله وتحت سمائه، فالمؤمن القوىُ خَيْرٌ وأحبّ إلى الله من المؤمن الضَّعِيف.

ولكى نمضى راشدين فى سبيل رعاية الأولاد بحكمة وتبصُّر علينا أن نتوسط ونعتدل فى حياتنا فى الإنجاب، ونتخذ سبيل الحكمة فى إنجابهم لنتمكن من رعايتهم، فهم هبة الله وعطيّته وأمانته فى أيدينا، لا نضيق بهم إناثاً ولا نفرح بهم ذكوراً، وإنما نحمد الله على عطائه وفضله، وإذا كان لكل شىء أساس فإن أساس الطفولة السعيدة هو البيت الذى يجد فيه الطفل الملاذَ والأمان والاستقرار، ويجد فيما يحيط به القدوة الصالحة فى التعامل والرعاية الكريمة التى تعمل على تزكية ميوله الفطرية، وتدريب حواسه، ومنحه حريّة الملاحظة ليصل إلى المعرفة التى تؤهله ليتحمَّلَ الأمانة التى يُؤَهَّلُ لها، ذلك لأن الطفل ينمو فى رحاب الأسرة وتتكون عاداته فى ظلها، حيث يقضى فترة الطفولة ومرحلة الشباب، ويتعود على العادات، ويتدرب على الخُلُق الاجتماعى، وتتأصل فى نفسه سلوكيات البيئة فى كنفها، ويتعلم الشعائر الدينية والتقاليد الاجتماعية... فى أحضانها ينمو عقله، وتزكو نفسه، لذلك حثّ الإسلام على الاهتمام بتكوين الأسرة على أساس سليم، ففى مبدأ الأمر الذى تتكون فيه الأسرة يستلزم سبق التخطيط لها، وحسن الاستعداد لتكوينها من منظور إسلامى، من حيث اختيار كل فرد من الزوجين للآخر، تأسيساً على المفهوم العام فى التوجيه عند الاختيار، لكى تنهض الأسرة بما هو على عاتقها من الاهتمام بالولد، لأنه بين يدى الأسرة أمانة الله الغالية على الأبوين أن يرعياها رعاية كاملة، وأن يسهرا على راحة المولود، بحيث تقوم الأم بإرضاعه

والعناية به، والأب يحسن اختيار اسمه، ويُنَشِّؤُهُ منذ الصغر على الجِدِّ والمثابرة، وأن يعلِّمه الكتابة والقراءة، ويدربه على الرياضة، ففى الحديث الشريف: «حَقُّ الوَلَدِ على الوالِدِ أن يُعَلِّمَهُ الكتابة والسباحة والرماية، وألا يرزقه إلا طيِّباً».

إن الرجل كلما أحسن إلى ولده فى الصغر، ونَشَّأَهُ على سُلوك حَسَن، مع توفير أسباب السعادة له، فإن الولد عندما يكبر يتذكَّر جميلَ والده إليه، فيُقابِلَ الإحسانَ بالإحسانِ، لهذا قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ الله والداً أعانَ ولده على بِرِّهِ».

وقد ضرب الله لنا مثلاً بلقمان الحكيم وهو يُوَجِّهُ الوصية إلى ولده وينصحه برفق ولين، لأن الوالد السوى يرى نفسه مسئولاً عن ابنه، فيعمل على هدايته وإرشاده، يقول الله تعالى على لسان لقمان وهو يوجِّه النصح لولده: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾[1]. إن الوالد يريد من ابنه أن يتعود على الاستقامة والتزام الفضائل ليسعد به فى الدنيا ويفوز به فى آخرته، وصدق الله العظيم الذى يقول على لسان الأولاد الطيبين فى دعائهم لآبائهم: ﴿ رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ ﴾[2]، لأن من زرع خيراً جَنى خيراً، فإن تعليم الآباء لأبنائهم فى الصغر له أَثَرٌ طيب، فكان دعاؤهم للآباء بالرحمة والرضوان، لأن من يزرع الخير لا يعدم جَوازِيَهُ.

الأولاد قد يكونون نقمة:

إذا كان الأولاد نعمة وأمانة فإن إهمال شئونهم والتفريط فى تربيتهم وعدم رعايتهم وتهيئة البيت السعيد لهم والمناخ الاجتماعى أمامهم ليشعروا بالهناء والاستقرار، إذا لم يكن ذلك فإن الوالد يكون قد ضَيَّعَ الأمانة، وفَرَّطَ فى الحفاظ على النعمة، وخان ما كُلِّفَ به مِنْ قِبَلِ الله، وقد نُهينا عن ذلك، حيث يقول الله

---

(١) سورة لقمان.

(٢) سورة الإسراء.

تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[1].

إن الإسلام أوجب على الآباء رعاية الأولاد، وأنَّ على الوالد أَنْ يقدِّر ظرفه المعيشى، وحالته الاجتماعية، وقدرته السكنية، وحالته العامة، ثم ينظِّم إنجاب الذرية بقدر ما يتلاءم مع دَخْله وظروف سكنه وحياته الاجتماعية، لأنه أحياناً يقول: أنا أُنجبُ أولاداً والله ضامنٌ لى الرزق، حيث قال: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[2]، ونحن نوضح له ذلك ونقول: إن رزق الله مُخَبَّأٌ فى الأرض، ومحتاج منك أن تعمل وتسعى، وأن تكتسب المال من حلال بالجد والاجتهاد، وأن تبتعد عن كسب المال من حرام، لأن الله طَيِّبٌ لا يقبل إلا طيباً، والله تعالى قال لنا: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[3].

فانظُرْ إلى قُدرتك الجسدية، وما هو دخلك؟ لأن السماء لا تُمطر ذهباً ولا فضة، وإنما المال يصل إليك بالعمل لترعى أولادك، وخاصة أن الولدَ فى المجتمع المعاصر يحتاج إلى الكثير من الأشياء حتى يتحصَّن ضد الفقر والجهل والمرض والتخلُّف، فليس من المعقول أن ينجب الإنسان أولاداً ثم يرمى بهم فى الشارع، أو يحرمهم من أيام الطفولة ويزجّ بهم فى مواطن التعاسة والشقاء والحرمان، فينظر الولد إلى أبيه نظرة حقد، بل يتمنى موته ليحل محله ويسكن فى مكانه، لأن الأب لم يغرس خيراً فى نفس الولد، وفاقد الشىء لا يعطيه، والابن فى كل جريمة يرتكبها يقول: (هذا ما جَناهُ أبى عَلَىَّ).

ونذكر هنا قصة أحد أطرافها سيدنا «عمر» عندما جاءه رجل يشكو ولده، وقال له: إن ولدى يعقّنى، فهو إنْ طلبتُ منه درهماً سَبَّنى، وإن مَدَدْتُ يدى إلى طعام ضربنى، إن طلبتُ كساءً طردنى من البيت. فأَرْسَلَ «عُمَرُ» إلى الولد وقال له: كيف تسبُ والدَكَ وتضربه، وقد قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل

(١) سورة الأنفال.

(٢) سورة الذاريات.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[1]؟

فقال الولد لعمر: يا أمير المؤمنين، إن الله الذى أمرنى أن أُحْسِنَ إلى أبى أَلَمْ يأْمُرْهُ بالإحسان إلىَّ؟ قال عمر: نعم. قال الولد: إذن أنا أضربه لأنه لم يُحْسِنْ إلىَّ لكن كيف أمر الله أبى أن يُحسن إلىَّ يا أمير المؤمنين؟ قال: فى أمور ثلاثة:

١ ـ أمره أن يختارَ أُمَّك من بيتٍ طيب، وأسرة صالحة.

٢ ـ أن يُحْسِنَ اسمك.

٣ ـ أن يعلِّمك القراءة والكتابة.

فقال الولد: يا أمير المؤمنين، أبى لم يفعل شيئاً من ذلك، فقد اختار أمى وكانت تجمع «الروث» من الشوارع، وليس لها أُسرة، ولم يُحسن اسمى وسمَّانى جُعْلًا (دويبة صغيرة)، ولم يعلِّمنى القراءة والكتابة. فنظر «عُمر» إلى الرجل وقال له: قُمْ عنى لقد أسَأْتَ إلى ولدك قبل أن يُسِيءَ إليك!

إن وسائل الإعلام اليوم تطالعنا بكثير من القصص التى تشير فى مضمونها إلى أن بعض الأبناء يعتدون على الآباء، إمَّا بالضرب، أو الطرد من الشقة، أو القتل، أو الإساءة بأى لون، ونحن ـ كمسلمين ـ نقول بأن الآباء هم الذين أساءُوا إلى أولادهم، فأهملوهم، أو دلَّلوهم، أو بخلوا عليهم فلم يُعَلِّمُوهُم، أو أكثروا فى إنجاب الأولاد دون رعاية لظروفهم الاجتماعية، أو انفصل الأب عن الأم فانقلبت النعمة إلى نقمة، لأن الآباء قَصَّرُوا فلم يُهَيِّئوا لأولادهم الحماية، ولم يوفِّروا لهم المسكن الذى يليق بهم، والملابس التى تتناسب مع ظروفهم، والمصروف المادى الذى ينعمون به فى حياتهم كما ينعم أمثالهم الذين هم فى مثل سِنِّهِمْ، وكل ذلك سوء تصرف وعدم تقدير للمسئولية الاجتماعية الناشئة عن عقد الزواج الذى به تمّ الإنجاب فى هذا المناخ.

إن الأب الذى ينجب الأولاد ولم يأخذ بالأسباب ويراعى مقتضى الحال ثم

---

(١) سورة الإسراء.

يهرب من تربيتهم ويجلس مع زملائه على المقاهى يتسلى، لأن البيت يضج بالأولاد، فلا يُشرف عليهم، ولا يتابع خُطاهم، ويحتجّ بأن البيت فيه ضجة، فلا يذهب إليه إلا بعد نوم الأولاد، ويتناوَم فى الصباح حتى لا يُطالبوه بالمصروف، مثل هذا الأب إنْ قَصَّرَ ابنه فى بِرِّهِ ورعايته فمن حقه، لأن أباه أساء إليه وتراخى فى رعايته، لهذا حذَّرَنا ربُّنا من هذا عندما قال: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾[1] أى تولّوا رعايتهم وتهيئة البيئة الصالحة لهم، لأن فسادهم بسببكم أنتم، فانتبهوا واعتبروا يا أولى الأبصار.

إننا عندما نقول ذلك لا نحارب الذرية، أو نبثّ روح الكراهية للأولاد، ولكننا نحب أن نَفْهَمَ أن القرآن بَيَّنَ لنا بصريح العبارة ووضوحها أن كثرة الأولاد لا تجلب السعادة للإنسان، يقول الله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[2]. ويقول جَلَّ وعَلا: ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾[3].

إن إنجاب الأولاد شىء عظيم، بشرط القدرة على الرعاية، أمَّا إذا لم تكن هناك قُدرة على الرعاية فإن الأولاد يكونون نقمة، فانتبهوا يا أُولى الأبصار ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[4]. إن الظروف الاجتماعية قد تغيَّرَتْ، والبيئات قد تبدَّلَتْ، ففى الزمن القديم كانت الظروف الاجتماعية تدعو الإنسان إلى الاستكثار من الذرية ليتخذها سنداً عندما يدخل فى المعارك، ويظهر أمام الأعداء بكثرة العدد، أو فى البيئة المحلية التى تحتاج إلى الأيدى الكثيرة والعضلات البشرية لتساعد الأب وتعاونه فى الحِرَف والمهن، لكننا اليوم نرى أن

---

(١) سورة التغابن، الآية ١٤.

(٢) سورة المؤمنون.

(٣) سورة التوبة.

(٤) سورة الأنفال.

الأمور قد تغيَّرت، واختلفت الصُّوَر، فأصبحت الآلات الحديثة تُغْنِى عن الأيدى الكثيرة، والإنسان هو الذى يُكَيِّفُ حياته ويضع قدمه فى المكان الثابت الذى يضمن له الاستقرار، مع حب الأولاد والقدرة على رعايتهم، لأن العدد فى الأفراد إذا كان هزيلًا لا يُغْنى شيئاً، وإنما القِلَّةُ مع القوة خَيْرٌ وأَحَبُّ لخوض معركة الحياة. يقول الله تعالى فى كتابه العزيز على لسان ابنة شعيب وهى تخاطب أباها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾[1].

إن المطلوب فى الذرية أن تكون قوية سليمة، تتمتع بالعافية والقدرة على الحركة والإنتاج ولو كانت قليلة، لأن الكثرة الهزيلة لا تنتج ولا تعمل، ولا تؤسس حضارة، بهذا تكون الذرية الكثيرة الهزيلة الضعيفة مُصيبةً على الأُمَّة، ونكبة على الإسلام، وإلى هذا أشار الرسول ﷺ عندما قال: «**يُوشِكُ أَنْ تَتَداعَى عليكم الأُمَم كما تتداعى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم وليَقْذِفَنَّ فى قلوبكم الوَهَن**». قالوا: وما الوَهَنُ يا رسول الله؟ قال: «**حُبُّ الدنيا وكراهية الموت**». قالوا: أَوَ مِنْ قِلَّةٍ نحن يا رسول الله؟ قال: «**لا، ولكنكم غُثاءٌ كغُثاءِ السيل**»[2]. فتأمَّل فى هذا الحديث الذى يُبيِّن أن المجتمع الكثير العدد، الهزيل الضعيف، يكون سبباً فى طمع الأمم الأجنبية إلى احتلال البلاد، واستنزاف الخير، واستعباد العباد، أمَّا الذرية القوية فهى التى تُحرِّر البلاد، وترقى بالإنتاج، وتُحَوِّل الطاقات إلى عمل بنَّاء.

إن العبادات التى فرضها الله تعالى على العباد تحتاج إلى قوة جسدية، فهذه الصلاة فيها قيام، وركوع، وسجود، وحركة بنشاط. والصيام يحتاج إلى قوة ليقوى الإنسان على المجاهدة والمُثابرة والجَلَد. والزكاة تحتاج من الإنسان أن يعمل ويسعى فى مناكب الأرض ليحصل له المال الذى يُنفقه على نفسه والأولاد، ويصرف منه على الأهل والجيران. والحج مشقّة بين طوافٍ، وسَعْيٍ، ورَمْيٍ للجمرات، وهكذا، كلما ذهبت إلى بحث العبادات تجد أن الإنسان السليم القوى

---

(١) سورة القصص.

(٢) رواه أبو داود، وابن حنبل.

هو الذى يؤدِّيها بهِمَّة وعزيمة ونشاط، وأساس ذلك الطفولة التى تنشأ من أول الأمر فى مناخ صحى جيد، يتَّسم بالنظافة والهدوء والاستقرار، داخل سكن ترفرف عليه أعلام السعادة المنشورة على قوائم الحب، والمؤسسة على التعاون بين الزوجين، حيث يشعر كل واحد بمسئوليته. فالرسول ﷺ يقول: «**كُلُّكُم راعٍ وكُلكم مسئول عن رعيته، فالرجل راعٍ فى أولاده ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيتها ومسئولة عن رعيتها**»[1].

وهكذا تتحدَّد المسئولية ليستشعر كل واحد مسئوليته تجاه الذرية والبيت، ورعاية الأولاد. إن الدنيا تتطور، وفى تطورها تحتاج إلى العقول المفكِّرة المبتكرة، وفى الوقت نفسه تحتاج إلى الأجسام القوية، والأيدى العاملة، فإن الحق تحميه القوة، والإنتاج يحميه العمل الذى يحتاج إلى القوة والابتكار فى أسلوب الأداء.

فإلى العمل بهذا المبدأ، ورعاية الحق، والاعتدال فى الإنجاب، لنعيش فى بلادنا أحراراً، فإن مَنْ لا يملك قُوتَهُ لا يقدر على حماية حُريته، والحرية لا تدوم إلَّا إذا حرستها القوة، وصدق الله العظيم إذْ يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[2].

حسن اختيار الزوجة

ذكرنا أنَّ الأولاد نعمة إذا قام الأب برعاية أمرهم، وتدبير شئونهم، والإنفاق عليهم، وتهيئة المناخ الاجتماعى المناسب لظروفه أمامهم. هذا، وقد نبَّه الإسلام إلى أن الأولاد يكونون ثمرة زواج صحيح يتم على أساس من حُسْن اختيار الزوجة، لأن الولد نَبْتٌ يتقلَّبُ فى رَحِم أُمِّه، كلما كانت صالحة كريمة عفيفة نشأ المولود على نَهْجها، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[3]، لذلك على الإنسان عندما يرغب فى الزواج أن يبحث عن

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن حنبل.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٦٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٥٨.

المرأة الصالحة، لتصون شرفه، وتحفظ عرضه، وترعى بيته، وتُؤَدِّبَ أولاده، فيعيش الإنسان فى الدنيا سعيداً هادئ النفس، مستقرَّ الحال، يقول الله تعالى: ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾[١].

والإنسان وهو يبحث عن مقصده لا يهمه الغِنَى ولا الفقر، وإنما يبحث عن الخُلُق والدِّين، لأن المرأة المتديِّنة فى ميزان العُرْف الاجتماعى أفضل من ملايين الجنيهات، والإنسان إذا تزوج بالمرأة الفقيرة المتديِّنة أغناه الله، وهيَّأ له أسباب الخير والتقدم والرقى، يقول الله تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾[٢]. ويقول: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾[٣]. وفى الحديث عن رسول الله ﷺ: «إذا جاءَكُم مَنْ ترضون دينه وخُلُقَه فَزَوِّجُوهُ، إلاَّ تفعلوا تَكُنْ فتنةٌ فى الأرض وفساد كبير»[٤]. وقوله كذلك: «تُنْكَحُ المرأة لأربعٍ: لمالها ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظْفَرْ بذاتِ الدِّين تَرِبَتْ يداك»[٥]. ويقول أيضاً: «مَنْ تزوَّج من امرأة لعِزِّها لم يَزِدْهُ الله إلاَّ ذُلاًّ، ومَنْ تزوَّجها لمالها لم يَزِدْهُ الله إلاَّ فقراً، ومَنْ تزوَّجها لحَسَبِها لم يَزِدْهُ الله إلاَّ دَنَاءَةً، ومَنْ تزوّج امرأة لم يُرِدْ بها إلاَّ أنْ يَغُضَّ بَصَرَهُ ويُحَصِّنَ فَرْجَهُ أو يَصِلَ رَحِمَهُ، بارَكَ الله فيها وبارَكَ فيه»[٦].

إن اختيار الزوجة إذا تمّ من منظور دينى واجتماعى أخلاقى فإنه يكون سبباً فى استقرار الأسرة وفاعليتها فى التنمية الاجتماعية والبيئية، وكانت هذه الأسرة من أسباب رُقِيِّ المجتمع ونُهوضه، أمّا إذا تمّ اختيار الزوجة بعيداً عن القيم الدينية والعُرْفِ الاجتماعى المؤسَّس على الأخلاق فإن هذا الزواج يُحْدِثُ نتائج سيئة، وهزّات عصبية لها أثرها الاجتماعى على الأسرة، وينعكس ذلك على المجتمع

---

(١) سورة النساء، الآية ٣٤.

(٢) سورة النور، الآية ٣٢.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٢١.

(٤) أخرجه الترمذى.

(٥) رواه البخارى.

(٦) رواه الطبرانى فى «الأوسط».

سلباً، لذلك نوصى ونوجّه أن يكون الدِّين هو العامل الأساسى عند اختيار الزوجة، لنضمن أولاداً صالحين تُبْنَى على أكتافهم حضارة أُمَّة ومستقبل جماعة، ويكون لهم دور بارز فى الكيان الاجتماعى الذى يُسهم فى تطور الحياة ورُقيِّها، وبهذه الأسرة يهنأ الإنسان، ويهدأ نفساً، ويستقرّ وجداناً، ويعيش من أسعد الناس فى حياته.

الزواج بعيداً عن القيم الدينية

إذاتمّ الزواج بعيداً عن القيم الدينية والعُرف البيئى المبنى على الخُلُق الكريم والتكافؤ الاجتماعى المؤسَّس على العواطف السليمة، وتمّ - أى الزواج - على أساس المال والحب الجسدى والنسب، فإن الأسرة تصاب بالهزات النفسية ويضطرب كيانها، لأن الحياة تُغرى كُلًّا من الطرفين فى إشباع دوافعه وملذَّاته الجسدية التى أسَّس عليها قِيَمه عند الزواج، لهذا يختل التوازن الأسرى، ويقع كل شخص تحت تأثير مضاد لتأثير صاحبه فى الاتجاه، فيصاب الشخص بحالة من الحيرة والتردد، ولا يستطيع أن يحدِّد اتجاهه، فينشأ التذبذب، ويحل الصراع، وهذا ما أشار إليه ربُّنا عندما قال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾[1]. إنَّ الوقاية خير من العلاج، لهذا جاء التنبيه إلى حُسن الاختيار من أول الأمر حتى لا يكون الخلل الذى بسببه تُصاب الأسرة بالتصدع والانهيار، وتَتَفَكَّكُ الأُسرة، ويتشرَّد الأولاد، وتكون الطامة الكبرى فى الكيان الاجتماعى الذى يُصاب بالخلخلة والانهيار.

الزواج والقُدرة المالية

إن تكوين الأُسرة يتطلب قُدرة مالية لدى الزوج، لأنه هو المُطالَبُ بتأسيس البيت وتهيئة المناخ العام الصالح لتكوين الأسرة، يقول الله تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ

---

(١) سورة طٰه.

﴿مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾[1]. فالإسلام ـ من منهج القرآن وتوجيهه ـ يبيِّن لنا أن عند بناء الأسرة وتكوينها لا بدّ أن يكون عند الإنسان قدرة مالية حتى يستطيع تهيئة المناخ الصالح لأسرته، ليعيش سعيداً، فإن لم يتيسر ولم تكن لديه قدرة مالية، فعليه ألاَّ يُقْدِمَ على الزواج، حتى لا يكون سبباً فى ضياع أسرة، أو إهدار كرامة إنسانة ارتبطت به بعد أن خدعها وغشَّها ودَلَّسَ عليها حتى اقترن بها، فهو بهذا يكون قد ارتكب إثماً عظيماً، وخطأً اجتماعيًّا عندما دَلَّسَ على أولاد الناس، يقول الله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[2].

فالإنسان الذى لا يملك المال يؤجل الزواج حتى يتيسر الأمر أمامه، ويفتح الله له أبواب الخير، ويجمع المال الذى يهيئ تكوين أسرة يهنأ بها، ويجد فى ظلها الراحة النفسية. إننا نعلم أن الإسلام ذَمَّ العزوبية، ونَفَّرَ من الرهبانية، وشرع الزواج تلبية للفطرة البشرية، واستجابة للغريزة الطبيعية، وكل ذلك مرهون بالقدرة المالية، فإذا لم يتمكن الشاب من ذلك ولم يتهيأ له، فإن الإسلام فتح أمامه باب الوقاية من التردى فى مهاوى الرذيلة. لذلك أمر الرسول ﷺ الشباب بالزواج، فإن لم يقدروا فعليهم أن يصوموا، لأن الصيام تهذيب للنفس، وسَدٌّ لمنافذ الشيطان من أن تتسرب وساوسه إلى داخل الإنسان، يقول عليه الصلاة والسلام: «يا مَعْشَر الشباب، مَنِ استطاعَ منكم الباءَةَ فليتزوَّجْ، فإنه أَغَضُّ للبصر، وأَحْصَنُ للفَرْجِ، ومَنْ لَمْ يستطِعْ فعليه بالصوم، فإنه له وِجاء»[3].

إن تعليمات الإسلام وَضَّحَتْ الأمورَ، وحدَّدتِ المفاهيم، ووضعت أمام عينى الإنسان معالم الطريق الذى يجب أن يسلكه ليكوِّن أسرةً تكون سببَ سعادته، كما تكون سبباً فى رُقِى المجتمع.

---

١) سورة الطلاق، الآية ٧.

٢) سورة النور، الآية ٣٣.

٣) رواه الجماعة.

إنجاب الأولاد

إن على الإنسان أن يُراعى ظروفه الاجتماعية وحياته المعيشية حينما يفكر فى إنجاب الأولاد، فقد يكون الاكتفاء بولدٍ واحدٍ يربِّيه ويُهيِّئ له حياة معيشية طيبة أفضل من أن ينجب عِدَّة أولادٍ تضيق بهم سُبُل الحياة ولا يقدر على الإنفاق عليهم، وتكون هذه الذرية سبباً فى ضيق المعيشة عليه وعلى أولاده، وهذا شىء لا يرضاه الدِّين، ولا تُقرُّه التقاليد الاجتماعية، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾[1]. يقول الإمام الشافعى شرحاً لقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾: أى ألَّا تَكثُر عيالكم.

وانظر إلى ما جاء عن الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان وهو يُوجِّه الوصية لتلميذه ويقول له: «ولا تتزوج إلا بعد أن تعلم أنك تقدر على القيام بجميع حوائج المرأة، فاطلب العلم أولاً، ثم اجمع المال من الحلال... ثم تزوَّجْ، فإنك إن اشتغلت بطلب المال فى وقت التعلُّم عجزت عن طلب العلم... وإيَّاك أن تشتغلَ بالنساء قبل تحصيل العلم، فيضيع وقتك، ويجتمع عليك الولد، ويكثر عيالك، فتحتاج إلى القيام بحوائجهم وتترك العلم»[2].

ويقول عمرو بن العاص فى خطبة له بعد فتح مصر: «يا معشر الناس، إيَّاكم وخلالاً أربعاً، فإنها تدعو إلى النصب ـ أى التعب ـ بعد الراحة، وإلى الضيق بعد السعة، وإلى الذِّلَّة بعد العزة: إياكم وكثرة العيال، وإخفاض الحال، وتضييع المال، والقيل القال من غير دَرَكٍ ولا نوال»[3]. إن عمرو بن العاص يريد بهذه الكلمات الأربع أن يعالج مشكلة تضخم السكان قبل أن تستفحل، لأن كثرة الأولاد تؤدى إلى التعب والقلق والفقر، وإلى أن يمدَّ الإنسان يده إلى غيره ليأخذ منه سُلْفَةً مالية، ولعل كلمة إخفاض الحال تقابل فى مجتمعنا المعاصر (انخفاض مستوى

---

(١) سورة النساء.
(٢) الدكتور الشرباصى، كتاب «الأئمة الأربعة».
(٣) كتاب «النجوم الزاهرة»، ج ١، ص ٧٢.

المعيشة)، لأن كثرة العيال مع انخفاض مستوى المعيشة تُرهق الإنسان، وتشقّ عليه، فيعجز عن النهوض بتبعاتها، ويُقصِّر فى أداء الواجبات، وإلى هذا أشار عبد اللّه بن عباس عندما قال: «إن كثرة العيال أحد الفقرين.. وقِلّة العيال أحد اليسارين»، ذلك لأن مستوى المعيشة ينخفض ويكون ذلك نكبة على المجتمع، لأن المطلوب من الإنسان أن يحتفظ لنفسه وأولاده بمستوى معيشى لائق به وبهم، وهذا يتطلب إنتاجاً ضخماً، واستثماراً واسعاً، وتنظيماً مُحْكَماً ليتهيأ للإنسان الحياة الكريمة التى تجعله ينتج ويدَّخر لورثته، لأنه جاء فى الحديث الشريف: «**إنَّك إنْ تَذَرْ وَرَثَتَكَ أغنياء خير من أن تدعهم عالةً يتكفَّفُون الناس**»[1].

ومن أمثال الحكماء: «العيال أرضية المال»[2]. وجاء عن رسول الله ﷺ: «**جَهْدُ البلاءِ كثرةُ العيالِ مع قِلَّة الشىء**»[3]. وقيل: «العيال سُوسُ المالِ». وعوتب الكسائى فى تَرْكِ الزواج، فقال: «وجدتُ مكابدةَ العُزْبَة[4] أيسر من مكابدة العيال»[5].

إن الذى يتأمل ما جاء فى القرآن الكريم وعلى أَلْسِنَةِ الناس الصالحين وتوجيه القادة والأدباء، يلحظ أن الإنسان العاقل هو الذى يحدِّد وضعه الاجتماعى، ويرتِّب أمرَه، وينجب من الأولاد ما يتلاءم مع ظرفه الاجتماعى ودَخْلِه المالى، ويعمل حسابه كى يُيَسِّر على أولاده بالإنفاق عليهم من ماله ليجعلَهُم يعيشون سعداء ويتفرَّغون للعلم، وقليل عظيم ناجح خير من كثير فاشل راسب.

العناية بالطفل جنيناً

يولى الإسلام عناية كبيرة بالطفل قبل أن يخرج للحياة، ونلحظ ذلك عندما

---

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) كتاب «شرح البلاغة»، ج ٥.
(٣) «الجامع الصغير» للسيوطى.
(٤) العُزْبَة: عدم الزواج.
(٥) كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة، ج ٤.

نبّهنا إلى حُسْن اختيار الزوجة الفاضلة المتديّنة الأصيلة، التى تكون بزوجها أَلْصَقَ، فإذا تمّ لها الحَمْل فإن توجيهات الإسلام للأب أن يقوم على رعاية أَمْرِ زوجته، وينفق عليها، ويعمل على راحتها، لأن أى إزعاج لها يؤثر فى حالة الجنين الذى يتكوّن فى أحشائها، لهذا يقول الله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ﴾[1].

كما أن علماء المسلمين وضعوا قواعد لحماية الأم الحامل، فالرئيس الطبيب ابن سينا له أُرجوزة شعرية فى الطب عدد أبياتها ١٣٢٦ بيتاً، خصَّص منها أربعين بيتاً عن الأم والطفل، تحَدَّثَ فيها عَمَّا يجب على الحامل من الاحتياط فى تناول الطعام، وينصح بعدم إعطائها أدوية إلاَّ بعد استشارة الطبيب، ويأمر لها بغذاء كامل، وأن تكون لها (قابلة) تجرى لها تمرينات مع التدليك. ولابن القَيِّم أيضاً كتاب بعنوان «تحفة المودود فى أحكام المولود» تحدث فيه عن العناية بالجنين. وكثير من علماء الإسلام تناولوا هذا الموضوع وأسهبوا فيما يجب أن يكون عليه الوالدين من الاهتمام بالجنين قبل أن يولد.

وهكذا نجد أن الإسلام وجَّه العناية إلى الطفل قبل أن يخرج إلى الحياة، لأن حياته فى بطن أمه وهو فى طور النموّ ذات أهمية كبيرة، ولذا يوجِّه الإسلام العناية والاهتمام بصحة الحامل، بما يوفر من ضمانات للجنين، حتى نجد أن تعليمات الإسلام تُيَسِّر عليها، فتبيح لها الفطر وهى حامل فى شهر رمضان، وذلك من باب التيسير.

العناية بالمولود:

إننا نفهم فى ضوء تعاليم الإسلام أن على الإنسان الذى يقدم على الزواج أن يكون عنده استعداد نفسى، بحيث يكون سليماً فى جسمه، معافًى فى بدنه، حتى لا يتسبب لشريكته فى الإيذاء، وحتى لا يكون المولود مصاباً بعِلَّة مَرَضية تُنقل إليه

---

(١) سورة الطلاق، الآية ٦.

عن طريق الوراثة التى لها أثر فى نقل الأشياء من الآباء للأبناء، اللهم إلاَّ بعض الأشياء، وقد تختلف القاعدة، وكل ذلك بأمر الله ومشيئته.

إن الزواج ليس مجرد متعة أو تسلية، وإنما هو تَبِعَةٌ ومسئولية، ومن أول ولد ينجبه تبدأ التبعات والواجبات، فعلى الرجل أن ينهض بهذه الواجبات وهى:

١ ـ الأذان فى أُذنه اليمنى بصوت ضعيفٍ، والإقامة للصلاة بصوت ضعيف كذلك فى أُذنه اليسرى.

٢ ـ حُسْن اختيار الاسم، وخير الأسماء ما حُمِّدَ وَعُبِّدَ، ولا داعى لأسماء «الدَّلَع».

٣ ـ العقيقة، وهى ذبح شىء من الضأن يوزِّعه على الفقراء والمساكين، على حسب قدرة الأب المالية، وتوزع على الفقراء، وتقام منها موائد يُدْعَى إليها الأصدقاء فرحاً واستبشاراً.

٤ ـ الرضاعة، بحيث تكون هذه الرضاعة من صَدْرِ الأم، لأنها الرافد الأول لغذاء الطفل. وعلى الوالد أن يقوم بدفع تكاليف المرأة التى تقوم بإرضاع ولده (أى النفقة عليها)، يقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾[1]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾[2].

الرضاعة الطبيعية

إن رضاعة الطفل الصغير من صدر أمه من الأمور بالغة الأهمية، لأن على لبن الأم يتوقف مصير ومستقبل حياته، حيث ينمو نموًا طبيعيًا بالرضاعة الطبيعية، ويتضاعف وزنه، وتتكامل قواه. ومن مزايا لبن الأم:

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣٣.

(٢) سورة الطلاق.

١ ـ أنه سهل الهضم.

٢ ـ يحتوى على سائل الكولستروم وهو السائل الذى يفرزه صدر الأم فى الأيام الأولى بعد الولادة، وهو يُكسب الجسم مناعة، ويعطيه حصانة ضد الأمراض.

٣ ـ أن ثَدْىَ الأم نظيفٌ ومأمون للرضيع، حيث يخرج اللبن مُعَقَّماً للطفل مباشرة، ولا يحتاج إلى تعقيم.

٤ ـ أنَّ كمية لبن الثدى تتكيَّفُ عادة طبقاً لحاجة الطفل، مع ملائمة اللبن للجوّ، فيتَّسم صيفاً بالرطوبة، وشتاءً يكون دافئاً.

إن «الميكروسكوب» بَيَّنَ أن لبنَ الأم يبدأ الإفراز من مرحلة انتقالية حيث تصل من ١٠ ـ ٤٠ يوماً، يُفرز «اللبا» الغنى بالبروتين ١٠٪ وينقل للطفل الوليد الأجسام المناعية، ثم يقلّ «اللبا» تدريجيًا ويحل اللبن الطبيعى الذى يحتوى على قيمة حيوية عالية. وحبيبات الدهن الموجودة فى لبن الأم أسهل هضماً للطفل، كما أن «الكالسيوم» الموجود فى لبن الأم سهل الامتصاص فى الأمعاء. ويحتوى لبن الأم على كمية قليلة من الحديد، وكل ما هو صالح للطفل وسهل الهضم، لهذا جاء التوجيه الإلٰهى إلى الأم أن تقوم بإرضاع ولدها عامين كاملين تأييداً لإتمام المدة، وتحقيق الفائدة التى تعود على الطفل فى بناء جسمه وتقوية أعصابه وبناء أنسجته، وفى ذلك فائدة للأسرة والمجتمع من وجود أفراد أقوياء أصحَّاء، ليكون الولد زينة لحياة أبوية، وقُرَّةَ عين لهما. كما أن الطفل وهو يرضع اللبن من صدر أمه يكون أكثر استقراراً نفسيًا، لأن نموه أفضل، فليس هناك لبن يعادل لبن الأم باتّفاق جميع الآراء.

ويرضع الولد من أمه العطف والحنان والرحمة، لأنه يكتسب من صفاتها الخلقية فى حالة الرضاعة، لهذا فطن علماء التربية والتهذيب إلى ما فى الرضاعة الطبيعية من خير للطفل وللأم، حيث تشعر الأم بأمومتها، وتسعد بما تقدمه لطفلها وبما توفره لوليدها من سعادة نفسية وهدوء حال، فينعكس ذلك عليها وعلى المولود، فيكون الخير للطرفين، لهذا اقتضت الحكمة الإلٰهية أن تكون الرضاعة

لمدة سنتين، ولا يتمّ فطام الطفل إلاّ إذا تَراضَى الزوج والزوجة وتشاوَرا فيما بينهما، لينشأ الرضيعُ نشأة صحيحة فى مناخ سليم.

إن الأم هى المنبت الطبيعى الذى نبت فيه الطفل، والنبت لا يصلح إلاّ فى أرضِهِ، لهذا فإن الأم وهى تقدم صدرها لولدها فهى تغذِّيه بالعواطف الإنسانية النبيلة، وأعظمها الرحمة المتأصلة فيها، وذلك عندما تضمه بيدها إلى صدرها وتحنو عليه، لأنه فلذة كبدها، وقُرَّة عينها، إنْ بكى تتألم لبكائه، بل إنها أحياناً تقوم من على طعامها لتغيِّر له ملابسه بنفس راضية وقلب حنون.

إن المرأة التى تترك رضاعة ولدها لأنها تحاول أن تحافظ على رشاقتها، لأن خبراء الجمال أقنعوها بأنها إذا أرضعت وليدها فإن صدرها يكبر، ويترهل جسدها، أو أن تترك ولدها لخروجها إلى العمل، فإن مَرَدَّ ذلك أن تجف العاطفة فى الأولاد، وأن تموت المشاعر الطيبة فى الأم، وتتبلد الأحاسيس بين الاثنين، وإننا نهيب بكل أُمٍّ أَلاَّ تلجأ إلى البدائل الصناعية من الألبان المُصَنَّعة، لأن ذلك يُقلِّل المناعة عند الأطفال، فتكثر لديهم الأمراض، ويتفشَّى الضعف العام بينهم.

كما أنه ليس أحسن للطفل ولا أدفأ لجسمه من الأم، فقد منحها الله خاصية ليست فى الرجل، فهى التى حملته فى بطنها جنيناً، وهى الأستاذة الأولى له فى الحياة التى تلقِّنه المبادئ الصحيحة والعادات السليمة، فتجعله بطلًا مقداماً، أو باحثاً علّامة، أو صانعاً ماهراً، أو زارعاً ناجحاً، وتعمل على:

١ ـ تنمية القوى والاستعدادات الطبيعية فى الطفل.

٢ ـ العمل على توازن الاستعدادات النفسية فيه.

٣ ـ تثقِّفه عقليًا عندما تناغيه وتلاغيه.

٤ ـ تغرس فيه الثقة بالنفس من خلال التوازن الجسمى والعقلى، لأن العقل السليم فى الجسم السليم.

النهى عن اغتيال الطفل

الأم المرضع عليها أن تعمل على تأخير حَمْلها مدة لا تقل عن ثلاث سنوات، لأنها إذا حملت وهى تُرضع فإنها تكون قد حكمت على الرضيع والجنين

بالهلاك والدمار، فرضيعها يحتاج إلى أن تُهَيِّئ وتُعِدَّ نفسها وصدرها لغذاء ولدها الذى يرضع منها، فإذا حملت فإن جنينها كذلك يطالب بأن تُعِدَّ نفسها أيضاً بقدرٍ ممكن من غذائها ودمها ليستمد الجنين غذاءه من ذلك، فتحار الأم بين إرضاع الرضيع وغذاء الجنين، فلا يكفى جسدها لهذا ولا ذاك، فيُصاب كُلٌّ منهما بالضعف والهزال، وتصاب هى كذلك بنفس الأمر، ويكون ذلك سبباً فى إرهاق نفسها، لذلك قال رسول الله ﷺ: «لا تقتلوا أولادكم سِرًّا، فإن الغيل يدرك الفارِسَ فَيُدَعْثِرَهُ»[1]، ومعنى الحديث: أنه إذا حملت المرأة وهى ترضع فقد اغتالت أحدهما: إمَّا الذى يرضع، أو الجنين، وكانت العرب تكره ذلك وتَتَّقِيهِ، لأنه يترتب عليه إضعاف المولود.

ويقول ابن الأثير: الغَيْلُ: لبن المرأة المرضع إذا حملت، وسُمِّيَ هذا الفعل قتلًا لأنه قد يفضى به إلى القتل، وذلك أنه يضعفه، ويرخى قواه، ويفسد مزاجه، فإذا كبر واحتاج إلى نفسه فى الحرب ومُنازَلَة الأقران عَجَزَ عنهم وضعف، فربما قُتِلَ، إلا أنه لمَّا كان خفيًّا لا يدركه جعله سرًّا.

ويقول الزمخشرى فى أساس البلاغة: من الكلام العربى المأثور: إذا أَرْضَعْتِ ولدَكِ غَيْلًا فكأنما قتلتيه غِيلَة... أى إذا أرضَعْتِيهِ فى أثناء الحمل فقد اغتلتيه غيلًا... وأورد الزمخشرى كلام المرأة العربية عن ابنها وهى تفاخر به.. تقول المرأة عن ولدها: «ما سقيته غَيْلا، ولا حرمته قَيْلا... والقَيْل ـ بفتح وسكون ـ هو شراب القائلة، وهى نصف النهار... تقصد أنها لم تحرمه من رضعه نصف النهار»[2].

إن الله سبحانه وتعالى ـ وهو الخبير الحكيم ـ جعل مدة الرضاعة حولين كاملين، فإذا أضفنا إلى الحولين تسعة أشهر، فكأنَّ المرأة بين الحَمْل والحَمْل لا تقل عن ثلاث سنين، وهذا ما يجب أن ننتبه له ولا نقتل أولادنا سرًّا، لأن المرأة

---

(١) «النهاية فى غريب الحديث» لابن الأثير، ج ٢. والغيلة، بكسر الغين: الاغتيال، والغَيْل: اسم لبن المرضع إذا أُتيت وهى حامل. ويُدعثره: يَهْدِمُه ويُطحطحه إذا صار رجلًا.

(٢) «أساس البلاغة» للزمخشرى.

الحامل يفسد لبنها من سُوء أثره فى بدن الجنين وتكوين عظامه، فيكون ذلك سبباً فى إفساد مزاج الطفل الرضيع وإرخاء قواه، فيصاب بالهزال، وضعف الإبصار، ولين العظام، وهذه من الأشياء التى يجب أن نبتعد عنها، لينشأ الطفل سليماً قويًّا فى بدنه، فالمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

وعلى الأم أن تتبين أمرها والأب يراعى ظروفه ضماناً لصحة المولود، وحفاظاً لحياة الجنين، وبعد الحمل والإرضاع تكون هناك مدة لا تقل عن سنة راحة للأم واستكمالاً لقواها، وتهيئة الجوّ للمولود، لتتمكن من مُداعبته وملاعبته ومن تكيُّف حياته الجديدة فى مناخ اجتماعى سليم. ونوصى الأب والأم معاً أن يكونا قدوة صالحة أمام الطفل فى هذه المرحلة، لأن أعمالهما وحركاتهما وأقوالهما تنعكس على الطفل وتنطبع فى ذهنه، ويلازمه ذلك طيلة حياته ويتأثر به، وكما قيل: «الطبع يغلب التَطَبُّع» لهذا ننصح الآباء والأمهات بهدوء الأعصاب، ولن يتمّ ذلك إلا إذا كانت الأسرة دَخْلها المالى يكفيها، وعيشتها طيبة، ومسكنها ملائم.

تنظيم الأسرة:

إن ما قدَّمناه يدل بصريح التعبير ووضوح الرؤية على أن الإسلام أباح لنا تنظيم الأسرة، بحيث يكون هناك تباعد فى الحَمْل، نظراً لما قدَّمناه من أدلة لا تحتاج إلى تأويل، والإسلام عندما أجاز هذا حتى يكون مجتمع المسلمين معتزًّا بقوّته، ويباهى الأمم بأبنائه الذين ينعمون بهدوء البال واستقرار الحال، ووفرة الإنتاج، مع التربية العلمية والتربية الدينية من الآباء إلى الأبناء، وإلى هذا أشار حديث رسول الله ﷺ: **«مُرُوا أولادَكُم بالصلاة لِسَبْعٍ، واضربوهم عليها لِعَشْرٍ، وفَرِّقُوا بينهم فى المضاجع»**[1].

كذلك على الآباء أن يُدَرِّبُوا أولادهم على الرياضة البدنية، فمن نصائح عمر

---

(١) سنن أبى داود، ج ١.

رضى الله عنه: «عَلِّموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل، ومُرُوهم أن يثبوا عليها وثباً». والنص المأثور عن عمر بن الخطاب: «ورووهم ما يجمل من الشعر». كما أنه لا يجوز شرعاً تكليف الأطفال بالأعمال الشاقة، وإنما يحسن تمرينهم على الأعمال على قَدْر طاقتهم، وبما يتناسب مع أعمارهم وقدراتهم البدنية، وأن نُهَيِّئ لهم بعض الأوقات لِلَّعِب واللهو.

والإسلام عندما أباح التنظيم، نأخذ ذلك مِمَّا صَحَّ عن رسول الله ﷺ، فقد كان الصحابة ـ على عهده ـ يؤَجِّلون الحَمْل، وكان القرآن ينزل، ولم يَرِدْ فيه نَهْيٌ، ففى الحديث عن جابر: «كُنَّا نُعْزِلُ على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل». وعن جابر أيضاً، قال: «كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فلم ينهنا، ولو كان شيئاً ينهى عنه لنهاها عنه القرآن»[١].

وذكر ابن القيم: «أن الأحاديث المصرحة بجواز العزل جاءت منسوبة إلى عشرة من الصحابة الأجلَّاء»[٢]. وذكر الشوكانى: «أنه لا خلافَ بين العلماء فى جواز العَزْل، بشرط أن توافق الزوجة الحرة على ذلك، لأنها شريكة فى المعاشرة الزوجية»[٣].

ويذكر الإمام الغزالى النوايا الباعثة على العزل، ومنها: «استبقاء جمال المرأة لدوام التمتع، واستبقاء حياتها خوفاً من خطر الطَّلْق.. وقد يكون الباعث الخوف من كثرة الأولاد، والاحتراز من الحاجة إلى التعب فى الكسب، ودخول مداخل السوء»[٤].

وقد أفتى الشيخ عبد العزيز بن باز نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة آن ذاك بجواز ذلك، وعلَّله لأسبابٍ، بشرط عدم تحديد النسل[٥]. وللشيخ

---

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) «زاد المعاد».
(٣) كتاب «نيل الأوطار».
(٤) كتاب «إحياء علوم الدين».
(٥) مجلة «الحج»، عدد ١٦ شعبان سنة ١٣٨٤ هـ.

سيد سابق رأيه فى جواز العزل، أو اتخاذ دواء يمنع من الحمل، أو بأى وسيلة أخرى من وسائل المنع[١].

فليس فى التنظيم إذاً ما يخالف الإسلام، ونحن نعلم أن الدخل الحقيقى للفرد يتأثر بالموارد المتاحة، خاصة إذا كان حظ السكان من العلوم والفنون وقُدرتهم على التجديد والابتكار وإنتاج السلع والخدمات ليس متاحاً أمامهم، ولم يستطيعوا التحكم فى الثروة الباطنية والقوة المحركة فى الأرض وليس لديهم المال الثابت، وليس عندهم الفكر المتجدد المُبْتَكَر، وكفاية المشرفين على عملية التخطيط والتنفيذ، فتبقى الموارد الاقتصادية على حالها بدون تَغَيُّرٍ مع زيادة السكان، فإن الشخص يتأثر دَخْلُه، وتظهر الحاجة إلى التنظيم بدقة وأمانة مراعاة لمقتضى الحال، خاصة إذا كان مع ذلك ضيق السكن، بل عدم توفره بما يتناسب مع دَخْل الإنسان.

اعتـــراض

إننا عندما نتحدث عن تنظيم الأسرة عند وجود الظروف التى تتطلب ذلك، ومع أننا نأتى بنصوص من القرآن والسُّنَّة، فإننا نجد من يعترض ويقول: كيف تقولون ذلك؟ والغرض من الزواج إنجاب الذرية، والأولاد زينة الحياة الدنيا، والحديث عن رسول الله ﷺ: «**تناكحوا تناسلوا فإنى مُباهٍ بكُمُ الأُمَمَ يوم القيامة**»[٢]. والحديث يُفهم منه أن الرسول عليه الصلاة والسلام يحثّ أمته على الزواج، ويحثّها على التناسل والتكاثر، ونوضح أن الرسول ﷺ عندما قالَ ذلك كان المسلمون يومئذ قِلَّة، وغير المسلمين كَثْرَةً، فكان المجتمع بحاجة فعلًا إلى النمو والتكاثر، وكانت الأحوال المادية أمامهم مُتاحة، والاتِّساع فى المساكن أمر موفور، والحياة ليست معقَّدة، والاعتماد على الإنسان فى كل شىء (صناعة وزراعة) هو الأساس. لكننا اليوم ـ وفى ظل المناخ الاجتماعى الحديث ـ بدأت

(١) «فقه السُّنَّة».

(٢) ذكره السيوطى فى «الجامع الصغير».

الآلات تؤدى دوراً كبيراً بدل الأفراد، وأن ما ورد من استكثار النسل ليس من باب الوجوب، وإنما هو ترغيب يستجيب له الشخص إذا توافرت له الأسباب فى القدرة والمال، فإذا لم تتوافر فإنه يُخْشَى أن تكون كثرة الأولاد مصيبة على الإنسان، لأن التنظيم جَعَلَ الحَمْلَ فى أوقات متباعدة، مراعاةً للدواعى التى تدعو إلى ذلك، كما أن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يفاخر بالعدد الهزيل، ولا يباهى بالكثرة الضعيفة المريضة الجائعة المتخلِّفة الجاهلة، وإنما يُفاخر الرسول عليه الصلاة والسلام بالقِلَّة القوية، السليمة البدن الصحيحة الجسد، التى تتعلم وتعمل وتجود الإنتاج، ولهذا قال لأصحابه: «**المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**». ونحن نقرأ فى القرآن الكريم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1]. ويقول سبحانه: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾[2]. إن الرسول عليه الصلاة والسلام يفاخر بالكَمِّ والكيف معاً، والكيف فى نظر الرسول عليه الصلاة والسلام أهم من الكَمّ، والحديث الذى يدعو إلى التناسل والكثرة حديث مُرْسَل، وهو ما سقط منه الصحابى، وهو أقل درجة من الحديث المرفوع، فالحديث لا ينهض دليلًا، خاصة بعد ما قدَّمناه من شرح.

كذلك يسوق البعض قول الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ويقف الشخص عند هذا النص، ولو أكمل الآية وقرأها كاملة فسوف يجد: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾[3]. يقول الإمام البيضاوى فى تفسيرها ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: يتزين بها الإنسان فى دنياه، وتَفْنَى عَمَّا قريب، ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: أعمال الخيرات تبقى لها ثمرتها أبدَ الآباد.

ويقول الراغب الأصفهانى: «الزينة الحقيقية ما لا يشين الإنسان فى شىء من أحواله، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، فأما ما يزينه فى حالةٍ دون حالة فهو من وجه شَيْنٍ، والزينة بالقول المجمل ثلاث: زينة نفسية كالعلم والاعتقادات الحسنة،

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٤٩.

(٢) سورة المائدة، الآية ١٠٠.

(٣) سورة الكهف.

وزينة بدنية كالقوة وطول القامة، وزينة خارجية كالمال والجاه»[1]. فليست الزينة إذن محمودة فى كل الأحوال، ومن جهة أخرى نحن جميعاً نتمنى أن يكون الأولاد زينةً للحياة الدنيا فعلًا، وليس ثقلًا فيها ولا حِمْلًا عليها، وبالله عليك، كيف يكون الأولاد زينة للحياة وهم مرضى جهلاء فقراء؟

وهناك من يعترض ويقول: إن الرسول ﷺ قال: «سَوْداءُ وَلُودٌ خَيْرٌ من حَسْناءَ عقيم». ونقول له: إن الرسول ﷺ لم يأمُرْ، بَلْ أرْشَدَ وَوَجَّهَ، ويبقى الأمر فى دائرة الإباحة، ولو أننا أوجبنا على كل رجل ألاَّ يتزوج ولوداً فما هو مصير النساء اللوتى يقلّ أولادهن بسبب تكوينهن الجسمى أو بسبب آخر لا حيلة لهنّ فيه؟

ونختم هذا بقول ابن تيمية عندما ذَكَرَ فى تفسيره أن سلمانَ الفارسيَّ كتب إلى أبى الدرداء يقول: «ليس الخَيْرَ أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك، ويعظم حِلْمُك، وأن تبارى الناس فى عبادة الله عز وجل، فإن أحسنت حمدت الله، وإن أسأت استغفرت الله عز وجل»[2]. ثم إننا نجد من يعترض على التنظيم ويقول: كيف ننظِّم؟ وقد قال الله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾[3]. ويقول هذا الشخص إن الله تعالى قد تكفَّل بأن يوصل إلى كُلِّ حَيٍّ رزقَه فى أى مكان وعلى أى وضع. ونَرُدُّ على هذا القائل ونقول: إن الله تعالى أوجد فى الكون الطاقات والإمكانيات التى تكفى إذا استغلت للأحياء الذين يمشون على الأرض، وذلك عن طريق السعى والعمل، والاكتساب والادِّخار، والمحاولة الجادة لتجنُّب النكبات والنوازل.

جاء فى تفسير المنار عند الكلام على هذه الآية: ليس معناها أن الله قد كفل لكل دابة أن يخلق لها ما تتغذى به ويُوصله إليها بمحض قُدرته، سواء أطلبته بباعث غريزتها أو ما يهديها إليه العلم من أسباب كسبها أم لا، وإنما معناها ما فسرناه به من خلقه تعالى لكل منها الرزق الذى تعيش به، وأنه سَخَّرَهُ

---

(١) كتاب «مفردات القرآن الكريم».

(٢) أخرجه أبو نعيم عن أبى الدرداء.

(٣) سورة هود.

لها وهداها إلى طلبه وتحصيله. كما قال سبحانه: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾[1].

ويتبين لكل ذى عقل أن الذين يعترضون على التنظيم ليس عندهم الأدلة الكافية التى تؤدى ما ذهبوا إليه، لهذا فإننا من باب العلم الذى اتضحت صورته أمام أعيننا، والأدلة الكافية نقول بأن التنظيم يتفق مع الفهم الإسلامى، ونحن نرفض التعقيم الذى بسببه لا تلد المرأة، أو تحديد النسل، وإنما ننادى بالتنظيم بأى وسيلة من الوسائل التى تتفق مع المرأة وتكوينها الجسدى. ويكون لتنظيم الإنجاب ثلاث فترات:

١ ـ فترة التأجيل.

٢ ـ تباعد الحَمْل.

٣ ـ التوقف عن الإنجاب عند عدد معين من الأولاد بتعاطى أدوية، بحيث لو توقفت المرأة عن هذا الدواء تحمل وتلد.

ويتطلب الأمر تعريف النساء بهذه الطرق المتاحة، ونُرشدها إلى المزايا التى نبَّه الإسلام إليها من الرضاعة الطبيعية، والقيام على أمر المولود، والتباعد بين فترات الحمل لتختار هى ما يلائمها مع الاتفاق مع زوجها ليكونا على بيِّنة بهذا التنظيم الذى رَغَّبَنا فيه الإسلام، وتدفعنا إليه الحالة الاقتصادية الضاغطة فى الوقت الحاضر، كذلك السكن الذى أصبح لا يتَّسع للأُسَر ذات العدد الكبير. والإنسان العاقل المتديِّن هو الذى يستجيب لتوجيهات القرآن الكريم والرسول عليه الصلاة والسلام ليعيش سعيداً فى دنياه، راضياً بما أعطاه الله، حتى يتمكن من تربية أولاده تربية يفخر بها فى حياته، وتكون سبباً فى إسعاده فى الدنيا والآخرة، وصدق الله العظيم إذْ يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[2].

---

(١) سورة طه.

(٢) سورة الأحزاب.

الخلاصة

إن الإسلام لا يمانع فى التنظيم بأى وسيلة من الوسائل الطبية التى يقررها الأطباء، لأنهم أهل الاختصاص فى تحديد ما يلائم الجسم، وإن المرأة والرجل عليهما أن يتعاونا معاً فى سبيل التنظيم، حتى نضمن لأولادنا مكاناً فى المدرسة، ومكاناً فى شقة مناسبة، وأن يعيشوا فى الحياة الدنيا يتمتعون بأيام طفولتهم، ولا نزجُّ بهم فى أعمال ترهقهم ونُكلِّفهم ما لا يطيقون.

كما أننا نوصى بالرضاعة الطبيعية، لأنها المنهج السليم والطريق الصحيح لتنمية قدرات الطفل، وبناء جسمه وتحصينه ضد المرض الذى ينشأ عن تلوث أماكن الرضاعة الصناعية، ونأمل أن يكون الخير لأمتنا، التى نرجو لها جيلًا سليماً يحمل أمانة المسئولية بقوة واقتدار، وقد حصَّن نفسه ضد الفقر والجهل والمرض والتشرد والتصدع. وندعو الله سبحانه وتعالى أن يُهَيِّئ لنا من أمرنا رشداً، وأن يأخذ بيدنا إلى طريق الخير، إنه نِعْمَ المولى ونِعْمَ النصير.

تعدُّد الزوجات

تعدد الزوجات فى الإسلام شَغَلَ بال العلماء والمفكرين والمثقفين قديماً وحديثاً، واستغلها أعداء الإسلام من المستشرقين غير المنصفين، والذين تناولوا هذا الموضوع بالبحث، حيث اعتمدوا على جهد شخصى وتفكير ذاتى، ولم يرجعوا إلى النصوص الدينية والتاريخية ليعرفوا أن الله سبحانه ما كان ليقرر أمراً إلاَّ لحكمة يعلمها الدارسون المتخصصون، ومثل هذا الموضوع كان الواجب على غير المنصف أن يقف طويلًا أمام النصوص ليستخرج منها الحقيقة الغائبة عن فَهْم المُغرضين. وتعالوا بنا أولاً فى رحلة تاريخية نعبر فيها الزمان والمكان لنتصفَّح الماضى حتى نُؤَصِّلَ المنهج العلمى، لتكون الأمورُ واضحةً لا لَبْسَ فيها ولا غموض.

الإنسان البدائي

لم يُكْشَف النقاب عن علاقة الرجل بالمرأة خلال الفترة البدائية، وإن كان علماء الاجتماع كشفوا لنا شيئاً من أسرار تلك العلاقة بعد ذلك، حيث أثبتوا أن الشيوعية الجنسية كانت الأساس فى العلاقة بين الذكر والأنثى، لأن الذكر مدفوع بطبيعته إلى الأنثى تحت عامل الغريزة المتسلطة عليه، ولأنه لا يعرف الحياء بعد، ونتيجة تلك العلاقة ثمرة من الأولاد الذين لا يعرفون آباءهم، وقد لا يعرفون أخوتهم، لأنه لم تكن هناك ضوابط أو نُظُم، مِمَّا أدَّى إلى الفوضى والهمجية[1].

إن الناس كانوا على الفطرة، ولم يعرف الإنسان خُلُق الحياء إلا بعد مرور

---

(١) يراجع فى ذلك كتاب محمد حافظ صبرى «مقارنات ومقابلات»، ص ٣١٧ وما بعدها.

سنين طويلة، ثم تعلَّم الإنسان السَّيْر عندما تعلم الفروسية والنزال والغلبة على الأعداء، وكان الغالب يحاول أن يستأثر بما حصل عليه برمحه وسيفه، ومن بين ذلك المرأة التى حصل عليها وضمَّها تحت رعايته، وله أن يستمتع بها أو يبيعها لمن يرغب فيها كما يُباع الصيد وخلافه، وهنا بدأ الإنسان يذود برمحه عن ماله وممتلكاته، ومن بين ذلك النساء. وقد صار سَبْيُ المرأة من الأمور المهمة، لأن القوى الذى أخذها بسيفه يستخدمها فى رعى الإبل وعَمَل المنزل، من طهى للطعام وغسل للثياب وما إلى ذلك.

إن النساء فى بدء الزمن كُنَّ طليقات، ولم يكن لأحد سلطان عليهن، ولم يشعرن بالإثم أو الذنب من جراء ما يفعلن، إلى أن جاء الملك «سويتا كينو» ـ وهو من الصين ـ فقضى على هذه الفوضى، ووضع قاعدة مؤدَّاها: من يريد المرأة فعليه أن يتزوجها. وقد وضع لهذا الزواج قواعدَ. ويرى المؤرخون أن الإنسان البدائى كان لا يختلف عن الحيوان، فهو يهيم على وجهه فى الغابات والأحراش، وكانت النساء ملكاً للجميع، المولود لا يعرف له أباً، وإنما يُنْسَب إلى أُمِّه. وجاء الإمبراطور الصينى «فورهى» فقضى على هذه الشيوعية الجنسية المباحة، وسَنَّ الزواج.

ويقول بعض المؤرخين: إن الملك «ككرويس» اليونانى قضى كذلك على الفوضى الجنسية وجعل الزواج رابطة بين الرجل والمرأة(١). هذا، وقد كان العالم كله ينسج على هذا المنوال، المرأة مباحة ولا تَرُدَّ يَدَ لامِسٍ، والغالب يأخذها بالقوة ويبيعها كما يُباع المتاع، إلى أن نهض المفكرون ووضعوا نظام الزواج لأسباب أهمها:

١ ـ شعور كل واحد إلى الآخر، حيث يتبادلان المساعدة، وهى أكثر فائدة لكل منهما فى ظل التعاون بينهما.

٢ ـ الشعور الطبيعى بأن كل واحد من الذكر والأنثى مُتَمِّمٌ للآخر، وكل واحد فى حاجة إلى الآخر.

---

(١) يراجع فى ذلك كتاب «عادات الزواج وشعائره» لأحمد الشنتناوى.

٣ ـ الحفاظ على الأولاد ورعايتهم، لحاجة كل واحد منهما ـ الرجل والمرأة ـ إلى رعاية الأولاد لهما لمعاونتهما إذا أقعدهما المرض، والولد هو الذى يرعى مصلحتهما عند تقدُّم سِنِّهما، فلا بد من رعايته صغيراً، ومن ثم لا بد أن يتم الارتباط بالمولود تحت رعايتهما.

٤ ـ التخلص من الفوضى الجنسية، حيث بدأت المرأة تشعر بأنها مُهانة، تكون تحت من يريدها حتى ولو لم يكن لها رغبة، فالقوة تُجبرها، فأرادت حماية نفسها برجل تكون له ويكون بينهما الولد، ولا يعلو عليها غيره(١).

التعدد فى دول الشرق

الصين: من أقدم البلاد التى عرفت نظام التعدد، حيث يُباح للزوج أن يشترى فتيات يستمتع بهن، وتكون الزوجة الأولى لها الرئاسة على أى عدد بعدها من الزوجات، وكانوا يفعلون ذلك من أجل تحسين النسل، لأن الرجل يشترى الفتيات من قبائل متعددة ومناطق بعيدة عن موطنه. وكان الزوج يطلب من هذا العدد الذى تحت يده ألاَّ يتزوجن بعده، بل كُنَّ يحرقْنَ أنفسهن إذا مات الزوج تكريماً له، ووفاءً له بالعهد، وحتى يكون الرجل مستريحاً فى أُخراه فلا يعلو غيره زوجته.

الهند: هى الأخرى عرفت نظام التعدد، وكان الرجل يختار واحدة من زوجاته كى تشرف على الزوجات الباقيات، وتضع كل واحدة فى مكانها طبقاً لمناخ أسرتها الاجتماعى قبل الاقتران بها، وتحدد لها عملها. وكان الهنود يعتبرون الزوجة مصدر عار، لأنها تضلل الأحمق، وتغوى الحكيم، وتخضعه لشهوته، وتمسك بزمامه، لذلك كانوا يعتبرون المرأة مصدر شر بصفة عامة، فإذا ارتبط بها الرجل وصارت زوجة له يعاهدها ـ أو يعاهدهن عند التعدد ـ وهو أمر شائع، على أن الزوجة تحرق نفسها بعد مماته حتى لا تتزوج غيره. ومما يذكر أن ملكاً هندياً

---

(١) يراجع فى ذلك ـ غير ما تقدم ـ «المرأة فى مختلف العصور» لأحمد فاكى، و«الأسرة والمجتمع» للدكتور عبد الواحد وافى، و«تعدد الزوجات فى إفريقيا» للدكتور محمود سلَّام الزناتى.

تزوج باثنتى عشرة ألف زوجة ليكُنَّ مقرَّبات له، على شرط أن يحرقن أنفسهن مختارات بعد موتهن، وقد وافقن، واعتبرن أن ذلك شرفاً عظيماً لهن(١).

الفُرْس: كانوا يتصرفون فى المرأة كالسلعة، وأحياناً كانوا يحكمون عليها بالموت(٢). وكان التعدد مباحاً عندهم، فللرجل أن يختار مَنْ يشاء منهن. وقد أقرَّت تعاليم «زرادشت» هذا التعدد. وللرجل أن يتزوج بأى عدد، فالذى له زوجة يُفَضَّلُ على من لا زوجة له، والرجل الذى يعول أسرة يُفَضَّل كثيراً على من لا أسرة له، والذى له أبناء يُفَضَّل كثيراً على من لا أبناء له، وهكذا(٣).

مصر القديمة: مصر حباها الله بالأمن والاستقرار على ضفاف النيل، فغالباً ما كان الرجل يكتفى بواحدة، وإذا تزوج بثانية فإنه كان يتخذ لها بيتاً خاصًا بها ويزورهما بالتناوب، لكن القانون المصرى لم يكن يمنع التعدد، ولم تكن الزوجات متساويات فى الحقوق، ففى بعض النقوش ترى الزوجة الثانية خلف الزوجة الأولى، فى حين ترى الزوجة الأولى جالسة على مقعد مرتفع وفى مكان الصدارة، وقد وضعت يدها على كتف الزوج أو حول وسطه(٤).

وكان الملك والأمير والكاهن يعددون الزوجات، وهؤلاء بلا شك هم القدوة للجماهير. وأحياناً كان يُنَصُّ فى عقد الزواج شَرْطٌ يُحَرِّم على الزوج (الذى هو من بيئة معينة عرف عن أهلها عدم العدل وإلحاق الأذى بالنساء) ألاَّ يتزوج بأخرى، وإن فعل يدفع غرامة مالية للزوجة الأولى لترفع من مستواها المالى. وقد وُجِد فى أوراق البردى المكتوبة باللغة الآرامية التى وُجدت فى الكاب وأسوان عقد زواج ينصّ على تعهُّد الرجل بألاَّ يتزوج من امرأة أخرى غير زوجته، وإنْ فَعَلَ دفع لها غرامة(٥). ومع ذلك فإن الوثائق تؤكد أن الأمير «ميرى - رع» وُجِدَ فى النقوش

---

(١) «قصة الحضارة»، ترجمة د. زكى نجيب محمود.

(٢) «تحرير المرأة» لقاسم أمين.

(٣) «قصة الحضارة»، المرجع السابق.

(٤) «المرأة فى تاريخ مصر القديمة» لوليم نظير.

(٥) «النظم السياسية والاجتماعية» لمحمد جمعة، ص ٧٤.

محاطاً بست زوجات، بينهن «إيس» تحمل لقب الشرف وهى بجواره تضع يدها على كتفه.

ورمسيس كان له زوجتان، ثم تزوج من بنت ملك الحيثيين عندما عقدوا معاهدة معه، وهذه هى الزوجة الثالثة. وتحتمس الرابع، وأمنحتب، وأمنحتب الثالث، عدَّدوا زوجاتهم. وكانت الزوجات تشاركن أزواجهن فى الحكم. وأمينوفيسى الثالث لم يكد يدرك عامه الثالث فى الحكم حتى تزوج بزوجته الكبرى «تى»، وكان قصره غاصًّا بألوان من الزوجات من مختلف بقاع الأرض، ثم تزوج بأخت «أرططاما» صاحب النهرين، ثم عاود وطلب يد ابنته وتزوجها، وزُفَّت إليه وفى ركْبِها ٣١٧ (ثلثمائة وسبع عشرة) جارية من أجمل نساء آسيا، وكان له حَقُّ معاشرتهن.

اليونان: كانوا يتزوجون لإنجاب الذكور، ومن حق الرجل أن يُطَلِّق زوجته إذا كانت عقيماً، ومن حق الزوجة أن تجتمع بالشبان بحرية كاملة، وكانت ترقص مع من تشاء فى المناسبات[١].

لكن الزوج بدأ يُضَيِّق على زوجته، فنهاها عن مغادرة المنزل إلاَّ بإذنه، أمَّا الزوج فله أن يتخذ الخليلات ويعاشرهن. ولهم شعار مُلَخَّصُه: «إننا نتخذ العاهرات لِلَّذَّة، والخليلات لصحة أجسامنا اليومية، والأزواج ليلِدْنَ الأولاد الشرعيين، ويَعْنِينَ ببيوتنا عناية تنطوى على الأمانة والإخلاص، والذكر بطبيعته أصلح من الأنثى للرياسة». كما أن التعدد كان مباحاً عندهم ـ خاصة بعد الحروب ـ وسقراط تزوج باثنتين، وكان أولاد الزوجة الأولى هم الشرعيين، والزوجة الثانية إذا فارقها الجمال أصبحت جارية فى المنزل[٢].

الرومان: كانت المرأة عندهم لا شخصية لها، ولا تتمتع بأية أهلية، والأنثى تُعامَل مثل الصغير والمجنون، لأنها ناقصة الأهلية، وهى تخضع للأب إذا لم تكن

---

(١) يراجع كتاب «عادات الزواج وشعائره» لأحمد الشنتناوى.

(٢) يراجع كتاب «قصة الحضارة»، المرجع السابق.

متزوجة، ولزوجها إذا تزوجت، وينوب عنها الأب أو الزوج فى مباشرة أى تصرف لها، وإذا تصرفت فى أى شىء فقد ارتكبت جُرْماً يحاكمها عليه زوجها، وفى مقدوره أن يحكم عليها بالإعدام إذا خانته أو سرقت مفاتيح خزائن خمره.

وكانت الإباحية منتشرة، ومن السهل أن تَلْقَى أىَّ امرأة عندما تريد، وفى أى مكان، فإنهن لم يَكُنَّ أقل عدداً من نجوم السماء ـ كما يقولون ـ وكان التعدد نظاماً اجتماعيًّا معروفاً وسائداً، غير أن القانون كان يُخضع الزوجة الثانية لنوع من التسرِّى، وأولادها لا يرثون لأنهم ليسوا من أفراد الأسرة، والحق كان للزوجة الأولى وأولادها، ولأنها الأولى فلها الصدارة والرياسة على الثانية وأولادها.

عند أهل الأديان: يقصد بأهل الأديان أهل الكتب السماوية التى نزلت على الأنبياء، والذى يمكن الاعتماد عليه هو ما وَرَدَ فى الشريعة الموسوية وشريعة عيسى ـ عليهما السلام ـ لأن ما قبل ذلك من الأنبياء الذين نؤمن بهم وبكتبهم لم يصل إلى أيدينا شىء منها يمكن الاعتماد عليه. وأصحاب الشريعة الإسلامية يؤمنون بكل الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم، وبالكتب السماوية كلها، فنحن نؤمن بما أُنزل على سيدنا محمد، وبما أُنزل من قبله، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾[1].

وتشير الكتب المقدسة إلى أن آدم تزوج بحوَّاء، وكان الزواج بواحدة، لأن تعادل الإنجاب والعدد بين الذكر والأنثى يكاد يكون متساوياً. والشريعة الموسوية أقرت عادات التعدد، لأن أول من عَدَّدَ الزواج «لامك»، فقد تزوج واحدة تسمى «عادة»، والثانية «صلة»، وتبعه «العيس»، فقد تزوج «عدا» بنت أيلون، وتزوج «أهوليبامه».

وسارت الأسرة العبرية على نظام التعدد، وكان نظاماً عامًّا بين البطارقة وملوك إسرائيل، والتوراة ـ وهى الكتاب المقدس الذى نزل على موسى عليه

---

(١) سورة البقرة.

السلام ـ قد أباحت التعدد[1]. وننقل هنا ما جاء فى كتاب «شعار الخضر» فى الأحكام الشرعية الإسرائيلية ما نصه: «إن اليهود فى القرون الوسطى كانوا يُعدِّدون زوجاتهم تبعاً لحاجاتهم، ثم إنَّ العلَّامة «جرسون» حرَّم التعدد بمادة ٣٩٥ مقارنات. ومادة ٥٤ للعلَّامة «ماى» تمنعه كذلك، وتقضى بتحليف الرجل ألَّا يتزوج على امرأته. ويقول أيضاً: إن تعدد الزوجات جائز بشرط عدم الإضرار بالإقبال على واحدة والإعراض عن الأخرى إحصاناً، بل العدل واجب بينهما، كما يجب فى غيره من نفقة وكسوة». وحدَّد اليهود التعدد بأربعٍ لا أكثر، ولو كانت ميسرة الرجل تسمح بالزيادة.

أمَّا الذى حَدا بالعلَّامة «جرسون» إلى تحريم التعدد فإن مَرَدَّهُ ـ كما فصَّله كتاب شعار الخضر الخاص بالأحكام الشرعية الإسرائيلية ـ كان للأسباب الآتية:

١ ـ ضيق المعيشة، حيث أصبح الأمر بقيام زوجة واحدة غير هَيِّن، بل كان عبئاً ثقيلًا على كاهل الرجل.

٢ ـ تعادل نسبة المواليد من الذكور والإناث، بحيث إذا حدث تعدد فإن هناك من لا يجد زوجة.

٣ ـ أخذ اليهود ينظرون إلى التعدد على أنه مُضِرٌ بالزوجة الأولى، ويُباح فقط إذا كانت الأولى عقيمة، حيث قالوا: إن الرجل إذاعقمت زوجته ومضى عليها عشر سنوات واشتاق للذرية فله أن يُعدِّد الزوجات، واستدلوا على ذلك بسيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، فقد تزوج بهاجَرَ لأن سارة ـ زوجته الأولى ـ كانت عقيماً، وأنجبت السيدة «هاجر» سيدنا إسماعيل عليه السلام. كذلك سيدنا يعقوب، تزوج «يلهاء» وكان قد تزوج قبلها براحيل... إلى غير ذلك[2].

والتعدد عند المسيحيين يكشف عنه ما تمّ عام ٦٥٠ م، حيث أصدر مجلس

---

(١) يراجع فى ذلك «سفر اليكومين ـ إصحاح ٣٦»، وكتاب «النظم السياسية والاجتماعية» لمحمد جمعة، ص ٦٨.

(٢) انظر كتاب «عادات الزواج» لأحمد الشنتناوى.

الفرنكيين قراراً يُجيز للرجل أن يُعَدِّدَ زوجاته، بناء على ما تبيَّن للمجلس من نقصِ عدد الرجال بسبب الحروب.

ولم يتعرض «مارتن لوثر» ـ زعيم حركة الإصلاح المسيحى ـ للتعدد، ولم يرَ فيه ما يدعو إلى التحريم. ويقول «وسترماك»: إن التعدد ـ باعتراف الكنيسة ـ بقى إلى القرن السابع عشر الميلادى. وقد سَنَّ الإمبراطور «فلافيوس فالنتيان» قانوناً يبيح التعدد، وكان ذلك فى منتصف القرن الرابع الميلادى، وجَعَلَ التعدد مباحاً لرعاياه، فلهم أن يتزوجوا بمن شاؤوا ولم تحتجّ الكنيسة[1].

والمتصفِّح لمجموعة الأناجيل ورسائل الرسل لا يعثر على شىء يصح أن يكون سنداً ودليلًا لمن يقول إن الشريعة المسيحية تُحَرِّمُ تعدد الزواج.

إفريقيا: شعوب إفريقيا عرفت التعدد حتى أصبح لا تخلو منه أسرة، وكان البعض عنده أكثر من عشر زوجات، وكانت الزوجات يفرحن عندما يتزوج أزواجهن بأخرى جديدة، لأنها سوف تشاركهن فى العمل، لأنهن كُنَّ يعملن لحساب الزوج، وبوجود أخرى يقل العمل عن الباقيات ويخفّ. والوضع الاقتصادى يدعو إلى أن يكون للرجل زوجات، لأن الرجل يحتاج إلى الذرية لتشد عضده وتكون عوناً له ومُساعِداً على المعيشة، لأن الحصول على لقمة العيش فى هذ البلاد صعب جدًّا، والمعروف عن المرأة الإفريقية قِلَّة الإنجاب، ويلاحظ موت الأطفال بكثرة فى سِنٍّ مبكرة، وذلك لكثرة الأمراض، والحشرات القاتلة، والحيوانات المفترسة التى تقتل الأطفال، فكان الرجل يتزوج النساء ويُكثر منهن.

العرب: عرف العرب فى الجاهلية تعدد الزوجات، وكان الرجل الثرى منهم يحتاج إلى كثرة النساء ليقمن على خدمته، ثم إن الرجل العربى كان فى حاجة إلى الذرية لتشد صلبه، وتكون عوناً له على الشدائد. ثم إن الرجل كان يفتخر بكثرة أولاده، ويتَّخذهم أنصاراً أعواناً يشدُّون أَزْرَهُ. ويتخذ العربى من تعدد الزوجات كثرة المصاهرة، وهى قوة تنفعه عند الحرب. وعبد المطلب جدّ النبى ﷺ تزوج

---

(١) يراجع كتاب «مركز المرأة فى الإسلام» للسيد أمير على هندى، ص ٤٢.

بستٍّ[1]، وسفيان بن حرب تزوج بستٍّ، وصفوان بن أمية كذلك، أمَّا المُغيرة بن شُعْبَة فقد تزوج بسبعين[2].

الخلاصة فى موضوع التعدد

إننا نرى رجلًا كـ «شوبنهور» وقد اشتهر بعدائه للمرأة يقول: «إن حظر التعدد استبداد شنيع». وكذلك فَعَلَ «نوريل»، يعجب ن حظر رجال الكنيسة التعدد ويقول: «إن وحدانية الزوجة التى فرضتها الكنيسة الرومانية فرضاً لا يتفق مع الفطرة». وفى عام ١٩٤٣ م نشرت جريدة «الأهرام» حديثاً للعالم الإنجليزى «مستر جواد»، وقد أجاب فيه على سؤال بخصوص تعدد الزوجات، فقال: «إن النظام البريطانى الجامد الذى يمنع تعدد الزوجات نظام غير مُرْضٍ، فلقد أَضَرَّ بنحو مليونى امرإة ضرراً بليغاً، حيث صَيَرَهُنَّ عوانسَ، وأَدَّى بشبابهن إلى الذبول، وحرمهن من الأولاد، وبالتالى ألجأهن (أو جُلَّهُنَّ) إلى نبذ الفضيلة».

ولقد ثبت أنه بعد الحرب العالمية الثانية أَنْ زاد عدد النساء على الرجال فى إنجلترا بنحو ثلاثة ملايين ونصف، كما ثبت أنه وُجِدَ فى بعض المناطق الألمانية رجل لكل سبع نسوة، بل ثبت أيضاً وجود فائض من النساء فى كل أُمَّة بعد الحروب، حتى علت الأصوات من الفلاسفة والمفكرين بوجوب إباحة التعدد حفظاً لكيان الأسرة، وذَوْداً عن حِمَى الفضيلة، فإن ستين ألف بنت فى مدينة واحدة سُفِكَ دم شرفهن بسبب التضخم النسائى والاقتصار على زوجة واحدة. كما أنه فى سنة ١٩٤٩ م استصرخت النساء الجزائريات اللجنة التشريعية فى الجزائر لانتشالهن من الوهدات التى وقعن فيها بتحتيم تعدد الزوجات، مما جعل الكثيرات من نساء الجزائر فى موقف حرجٍ ومُخْزٍ.

إنه من المعلوم أن التعدد كان له الأثر العظيم فى كثرة النسل إبَّان الفتوح فى صدر الإسلام وموت الكثير من المجاهدين، حتى إنه كان لسعد بن أبى وقاص من

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ١.
(٢) «مجمع الأمثال» للميدانى، ج ١.

أولاده ست وثلاثون، وكان لعبد الرحمٰن بن عوف ثمانٍ وعشرون. يقول الكاتب الفرنسى «هنرى»: لقد وقفنا طويلًا لهؤلاء المسلمين فى كل طريق لنقضى عليهم، ولكننا فشلنا، لأنهم يتناسلون بسبب تعدد الزوجات. وكذلك ثبت من مراجعة الإحصاءات أن عدد النساء عندنا يزيد على عدد الرجال، ولا يتبادر إلى الذهن أن الإسلام عندما أباح التعدد جعله فوضى، بل اشترط العدلَ وحُسْن المعالمة، وأن تكون أحوال الزوج المعيشية يؤمن معها قيامه بحُسْن العشرة، والإنفاق على زوجاته وأولاده، ومن تجب عليه نفقتهم.

النظام الإسلامى والتعدد

أشرقت أنوار سيدنا محمد ﷺ عندما نزلت عليه آيات القرآن ندية جلية تُحْيى موات النفوس، وتنير ظلام القلوب، وتهذب الأخلاق، وتسمو بالإنسان الذى أباح له الإسلام أن يتزوج بأربع عند القدرة، مع شرط العدل بين زوجاته فى المسكن والمأكل، والملبس والمشرب والمبيت... العدل الكامل بين زوجاته حتى يكون أهلًا لكى يَرْقَى فى مدارج الكمال بأحاسيسه وغرائزه، وليحتل فى دنيا الناس مكانَ الطُّهْر والنظافة والعفاف، وفى الآخرة جنات تجرى من تحتها الأنهار. وإذا كنا نسمع من يقول: إن تعدد الزوجات الذى أباحه الإسلام أوجد فوضى فى الأُسَر، وخللًا فى بُنيانها، فإننا نقول لهم: إن الإسلام ليس بدعاً فى ذلك، فلقد رأيتم أن التعدد قديم الأثر، وأن المفكرين من الأمم الغربية يوجِّهون الدعوة إلى الرجوع للتشريع الإسلامى فى إباحة التعدد بعد أن رأوا من الفساد ما رأوا، ثم من فائض النساء ومن اتخاذ الخليلات مع الزوجة، وهو فى الواقع تعدد شاذ، إلا أنه مستتر، يؤدى إلى انهيار المجتمع، وشيوع الفساد، وهو ضررٌ اجتماعى بالمرأة، وتصدُّعٌ للأسرة. إن الإسلام عندما عالج قضية التعدد عالجها بضوابط قوية، وأحاطها بسياج أخلاقى، ليأمن على المجتمع من أى ضرر يصيبه، ويقضى على الفساد الأخلاقى فيه.

إن الإسلام هو دين الإنسانية جمعاء، فهو يعالج المسألة من خلال تقدير

المصلحة العامة، ولذلك نسأل الذى يمنع التعدد ويبيح المُخالَلَة والمعاشرة واتخاذ العشيقات: هل نتغاضى عن هذا الطوفان من الفتيات اللواتى يطلبن زوجاً وينشدن العفَّة؟ أيهما فى منطق الإنسانية أكمل: أن تكون المرأة زوجة مع أخرى أو تحيا مع زوج خائن يُعاشِر غيرها عشر نسوة أو أكثر؟ وهل ترضى أن تحيا فى بيت خائن أو تكون زوجة خَتُوناً؟ هل تبيح سفك دم الفضيلة على عتبات الرذيلة أم ترضى أن تشارك أختها حياة العفَّة والطهارة؟ إن المؤمنين إخوة يحب الواحد منهم لأخيه ما يُحبه لنفسه.

هل نُحَرِّم التعدد ونبيح الفحشاء ونحن نعلم أن هناك زيادة فى النساء وهن يتعرضن لمساوئ الكبت أو رجس الفاحشة؟ إن الفتاة ـ كما نعلم ـ صالحة للزواج من سن السادسة عشرة وما قبلها، ـ حسب النضج الجنسى المبكر عند البعض ـ فإذا قَدَّرْنا سنّ الزواج فى المتوسط بالنسبة لها عشرين عاماً، فماذا تترك السنوات العشر، وهى الفرق بينها وبين الرجل الذى يتزوج فى الثلاثين؟ لا شك أن النسبة العددية فى ذاتها أكثر عند النساء منها عن الرجال، فضلًا عَمَّا يتعرض له الرجال من خطر دائم فى الحروب وغيرها، مِمَّا يقلل عدد الرجال ويزيد فى عدد النساء.

وهل أفلح قوم منعوا التعدد؟ وهل استطاعوا أن يمنعوا تعدد العشيقات والخليلات وإنجاب الأولاد غير الشرعيين واللقطاء؟ وماذا نفعل لو أن الرجل أحب زوجته وأخلص لها ثم تبين أنها عاقر وقد حال ذلك بينها وبين الإنجاب... هل نقول للرجل: طَلِّقْها وتَزَوَّجْ غيرها، وربما تكون قد فقدت كل عائل لها سواه، وفى هذا ما فيه من الجفاء والتنكُّر للعِشْرَة، وهو يريد الولد وهى عاجزة عن تحقيق رغبته بأمْرٍ خارج عن إرادتها، ولن تستطيع، فماذا يفعل الرجل فى مثل هذا الموقف؟

وما هو الحال لو أن المرأة أُصيبت بمرض يمنعها من القيام بأداء عملها كزوجة يُصان بها عفاف الرجل وتتم حصانته، هل نقول له: طلِّقْها وتنكَّر لعشرتها السابقة وتزوَّجْ غيرها، أو ابْتَعِدْ عنها وعَرْبِدْ، وقد تكون كذلك لا عائل لها بعد الله إلا هو، حيث فقدت الأب والأخ والعم والخال؟

إن الإسلام عندما صان المرأة وكَرَّمَها وضع الضوابط التى تلازمها حتى لا يعبث العابثون بشخصية المرأة وينالوا منها ويحطِّموها ويقتلوا إنسانيتها. . . إن قلنا للرَّجُل طَلِّقْ، فقد جافينا فضيلة الوفاء، وأهْدَرْنا التكافل الاجتماعى، وقطعنا حبل المَوَدَّة، وإن قلنا له عَرْبِدْ فقد أبحنا الفسوق وتعدده مع منعنا لتعدد الاستقامة والطهر والعفاف، وإن قلنا له هذا قسمُك فارْضَ به، فقد حَمَّلْناه فوق طاقته، إذن فالحل الوحيد هو إباحة التعدد بزواج يستقيم به سلوك الرجل وتُعْصَمُ به الأنثى من بنات حواء، ويبقى للزوجة الأولى الحب والإكرام بتوجيه زوج كريم يملك زمام الأمور، ويضعها في نصابها، ويقيم العدل بين من فى البيت، ولا يجعل أُمَّ الولد تتسلَّطُ على الأخرى، لأن رجولته تأبى عليه ذلك، وقيم الإسلام وأخلاقه لا تغيب عن النساء والرجال على السواء.

إن الإسلام عندما أباح التعدد فقد رسم خط الوفاء الذى يربط بين الناس برباط الأُخُوَّة والمحبة، ولتحقيق المصلحة بين الناس، وتقدير شئون المجتمع، ورعاية المصلحة العامة للبشرية، لأنه دين الكون كله ـ وإن اختلف الزمان والمكان ـ فإن تشريعاته وُضِعَتْ للإصلاح.

إن الذين يتطاولون على دين الله باسم الحضارة يسوقون قضية التعدد، وهم يخدعون المرأة ويوهمونها بأنهم يعملون لمصلحتها وصيانة كرامتها. وما أكثر ما تخدع المرأة بهذا البريق الزائف! إنهم يضربون لها الأمثلة من الغرب، وأن أختها هناك لا تسمح بالتعدد. . . ونحن نقول لها بهدوء: يا أختاه، هل دَرَسْتِ حالَ المرأة هناك لتحكمى بنفسك: هل تقبلين أن تكونى مِثْلها ملهاةً لكل عابث، ومتاعاً مباحاً، لا تَرُدِّين يَدَ لامسٍ؟ إن هذا يؤدى إلى بوارٍ يَصْلَى معه المجتمع نار الفسوق والفجور، وما حديث «الإيدز» عنكِ ببعيد. إنَّ عليكِ أن تدركى أنك بنت الشرق، لك دِينٌ وعُرْفٌ وتقاليد، وإن قداسة الأسرة وطهارتها تعنى كرامة المرأة وشرفها وعفّتها. إن عدم إباحة التعدد يؤدى إلى إتاحة الفحشاء للرجل، أو تعريض الرجل والمرأة لحياة ليس فيها أَمْنٌ أو راحة ضمير. إن المرأة المُصانة فَجرها فى سماء الشرق الذى يُنبئ بأن نورها سوف يملأ الكون لأنها تؤمن بأن عِفَّتَها فى طُهرها،

وكرامتها بتمسكها بدين الله، وحريتها الصادقة عندما تتمسك بتعاليمه، وهى بذلك سعيدة لأنها هيأت لزوجها أسرة عفيفة، يجد الأبناء فيها دفء العاطفة، وشرف الأب المُصان، وكرامة الخال والأسرة.

إننا نريد لأمهاتنا وبناتنا أن يَعِشْنَ كذلك، وننكر عليهم أن يعشن فى ظلام التقليد وحماقة الإفراط والتفريط. إن التطاول على دين الله باسم المدنية والحضارة ما هو إلا كنقيق الضفادع على شواطئ البحر الطهور وهو يُلْقِى بالزَّبَد ويَضُمّ الجوهر النقى فى أعماقه، ويمد بالخير والنفع كل طاهر الذيل. إن على يد المرأة الطاهرة نشأ أنبياء الله موسى وعيسى ومحمد، وكانوا نماذج صالحة للبشرية، قادُوها إلى حياة الطُّهْر والفضيلة والرقى والتقدم والازدهار. إن الرجال الذين أنجبتهم أمهات الشرق بالأمس هم عِزَّةٌ على جبين الدهر، ووسام الشرف فى تاريخ البشرية. فكونى يا أُمَّ اليوم كأُمِّ الأمس، حفيدةَ شرفٍ وسليلةَ مَجْدٍ. أنت قوام الأسرة، بِكِ ومنكِ تمتدّ حياتها... فلتَصُنِ المرأةُ نفسَها بمواريث أُمَّتنا، لأنها ما عرفت نعمة الحرية الصادقة والكرامة البارَّة، بل إنها ما عرفت معنًى لإنسانيتها إلا يوم أن أشرقت شمس الإسلام، فلأول مرة فى تاريخ الإنسانية يتردد فى أرجاء الكون وَحْيٌ كريم وقرآن عظيم يتلوه محمد ﷺ على سَمْعِ الزمان، ويتكفل الله بحفظه، يضع المرأة فى المكانة الإنسانية الفاضلة، ويتيح لها من الحرية والكرامة والحقوق ما تظفر به بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

إن المرأة سُلبت نفسها ورأيها، وحُرمت نصيبها من الوجود، وَوُسِمَتْ بوسام الذل والهوان، لا تكون ارمأةً طاهرة، ولا تتكشَّف عن أُمَّة فاضلة، ذلك لأن المرأة إذا استشعرت المهانة من ذويها هانت عليها نفسها، ومن هانت عليه نفسه لا يمتنع عن دَنِيَّةٍ، ولا يعتصم عن نقيصة، فهى لا تصلح لأسرة، وبالتالى يضيع المجتمعت، لأن الأسرة هى اللبنة الأولى فى كيان المجتمع وبنيانه، ولا قيام للمجتمع إذا ضُيِّعَ الفردُ فيه، وامْتُهِنَتْ كرامته فى أرجائه، ودِيسَتْ حريته على أرضه، لذلك حَثَّ الإسلام ونَبَّهَ على التمسك بالفضيلة، وأغلق الأبواب أمام أى ريح تهزّ شخصية المرأة المسلمة، أو تنال منها حتى بالكلمة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ

﴿الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[1].

اختلاف التكوين الجسمانى للرجل والمرأة

تختلف طبيعة الرجل عن المرأة من الناحية «السيكولوجية» النفسية، فالرجل أكثر طلباً للأنثى، ولذلك كان التعدُّد لتحصين الرجل أمراً مطلوباً، لأن الرغبة الجنسية قد تتغلب على الإنسان فتغلبه، فه فوق طاقته، والذى خلقها أعلم بما يُصلحهاة، فجعل لها متنفساً، فإذا تحكَّمَتْ بالشخص ولم يجد لها متنفساً انقلب إلى حيوان مسعور يفتك بكل ما تصل يده إليه، وأغلب حوادث القتل والمشاجرة سببها التفكير فى الأمور الجنسية التى لم يجد الشخص لها متنفساً، فإذا ما تخلص من شهوته يعود إلى إنسانيته هادئاً، نادماً على ما صَدَرَ منه على غير إرادته. ثم إن الرجل عنده القدرة على الإنجاب طوال حياته، حتى ولو قارب المائة من عمره، وهناك حالات تشهد بذلك، لهذا كان التعدد له، أمَّا المرأة فمن لطف الله بها أن جعل لها من كل جسدها متنفساً لغريزتها، فقد يكون المتنفس لها عند لَمْس أى جزء من جسدها، أو إدامة نظرها، وحتى فى إرضاع طفلها عندما يمص ثديها، فقد جعل الله لها من كل ذلك متنفساً لغرائزها.

والمرأة وإن كانت تتفق مع الرجل فى الحكمة من التقائهما لحفظ النسل، فإنها تكون مستعدة للحمل حتى سن الخمسين، بعدها ينقطع دم الدورة الشهرية، وتنعدم البويضات الخاصة بالتناسل، وهنا تقل رغبتها فى اللقاء الجنسى، والعِلَّة فى عدم الاستعداد من المرأة لإنجاب النسل بعد الخمسين أن قوتها تتناقص، ويزداد ضعفها لما ألمَّ بها من الحمل والولادة والرضاع[2]، لذلك جعل الله من تعدد الزوجات للرجل علاجاً لما أسلفناه.

إنه لا ينبغى لنا أن نُقلَّ من الناحية الجنسية ونحاول إلاَّ نعطى أهمية للعلاقة بين الرجل والمرأة، بل الحقيقة والواقع يؤكدان أن حياة الرجل منصرفة إلى المرأة،

---

(١) سورة النور، الآية ١٩.
(٢) انظر: «تفسير المنار» لرشيد رضا، ج ٤.

وفى سبيلها يضحى بكل ما يملك، فعامَّة اكتساب الرجال وإنفاقهم لما يملكون إنما هو مصروف على النساء، وعلى الأسباب المتعلقة بهن.

والمرأة فى سبيل جَذْب الرجل إليها تتخذ من الوسائل ما يجعلها تسيطر على قلبه، وتملك منه زمام نفسه، وتشده إليها، وتلفت نظره بالزينة الظاهرية، لأن الطبيعة هيأتها لذلك. ولها أساليب، منها: التنميص ؛نتف شعر الحاجب)، والتطيُّب (مَسّ الطِّيب)، والتطويس (التزيُّن على الخدين والشفتين)، والتعريس (التحبُّب برقة الصوت)، والتخضيب (وضع الحناء فى اليدين والقدمين)، والصبغ، والحلى، والكساء المزركش، وكل ذلك يكفى لجذب الرجل الذى يبدى كل الاهتمام بحفظها وحراستها، وخوف العار من خيانتها والجناية عليها، وكل ذلك يكلف الرجل المُؤْنَة[1] العظيمة والمشقة الشديدة، وهو بذلك راضٍ، وهذا كله ناتج عن الرغبة التى طُبع عليها الرجل، لأنه هو الذى يطلبها دائماً، لذلك حرص الإسلام على تهذيب هذه الرغبة حتى يكون المجتمع نظيفاً متعاوناً، يصعد إلى العُلا بعمل أبنائه وجدّهم واجتهادهم، ولا يظل الرجل يفكر طول يومه فى الرغبة الجنسية التى قد لا تكفيها ولا تكسر وحدتها المرأة الواحدة لِعِلَّةٍ من العلل، أو لسبب من الأسباب، سواء منها ما ظَهَرَ ـ كالمرض أو عدم الإنجاب ـ وما خفى ـ كالمانع الشرعى والعذر الشهري ـ وهو عندئذ يحتاج إلى زوجة ثانية، وسوف يكون مراعياً الشروط التى شرطها العباد، وهو أعلم بهم، فإن ذلك أنفع لنفسه وأُمّته.

التعدد وتقوية الروابط

إن تعدد الزوجات قد يكون وراءه منافع اجتماعية، كأن تتعرض البلاد لموجة من الأمراض، أو يكون هناك حرب، والرجال هم الذين يتقدمون الصفوف ويخوضون المعارك ويتعرضون للموت، ويترتب على ذلك أن يَقِلَّ عدد الرجال ويكثر عدد النساء، وهن بحاجة إلى ما يتعايشن به ومن يسعى عليهن ويذود عنهن

---

(١) المُؤْنة: القُوت والمَئُونة.

ويحمى الدار والعِرْض، فيسمح للرجل أن يعول أكثر من زوجة، لأنه إذا لم يتم ذلك فإن النهاية معروفة، حيث ينقلب المجتمع إلى فوضى أخلاقية ووباء وبلاء.

وقد يكون الرجلُ كثيرَ الأسفار، ويضطره عمله إلى الإقامة فى البلد الآخر مدة طويلة، وهو أدرى بنفسه، فإن كان لديه قدرة على التعدد فلا مانع، حتى لا يتعرض لشىء لا يتفق مع القِيَم والدِّين.

وقد يكون التعدد من ناحية صِلَة الرحم، لأن قريبةً له مات زوجها أو طُلِّقت وليس لها عائل إلا هو، وبحكم القرابة سيتردد عليها إنْ كان لها بيت، أو يأخذها لتقيم معه، لأنه القريب الوحيد لها، هنا يتطلب الأمر أن يعقد عليها ويتردد عليها مكرماً، حتى لا تلوك الألسنة سيرتها، وتعيش هى مع أهل البيت مُعَزَّزَةً مكرَّمة، وذلك رعاية لظروفها وبحكم صلة القرابة.

وقد يكون من أسباب التعدد ربط الصلات بعائلات أو شخصيات يحتاج إليهم فى حياته، وهذا من باب تقوية العلاقات وتدعيم روابط التعاون والتآزر بين الناس للقضاء على خلافات أو منازعات بسبب حروب أو مشاحنات، ولتقوية الصلة تتم المصاهرة بعد المصالحة من أجل الوفاق وفضّ المنازعات.

إن قاعدة اليُسْر فى الأمور ورفع الحرج لهى من القواعد الأساسية لبناء الإسلام، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[1]، وقال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾[2].

ولا يصح أن يُبْنى على هذه القاعدة تحريمُ أَمْرٍ تُلْجِئ إليه الضرورة أو تدعو إليه المصلحة العامة أو الخاصة، وهو ما يشق امتصاله دفعة واحدة، لا سيما على مَنِ اعتادوا المبالغة فيه، كتعدد الزوجات، كذلك لا يصح السكوت عنه وترك الناس وشأنهم فيه على ما فيه من المفاسد، فلم يبقَ إلا أن يقلل العدد، ويُقَيَّد بقيد ثقيل، وهو اشتراط انتفاء الخوف من عدم العدل بين الزوجات، وهو شرط يعز

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

(٢) سورة المائدة، الآية ٦.

تحققه، ومَنْ فَقِهَهُ واختبر حال الذين يتزوجون بأكثر من واحدة يتجلى له أن أكثرهم لم يلتزم الشرط، ومن لم يتلزمه فزواجه غير إسلامى.

وجملة القول فى هذه المسألة أن القرآن أَتَى فيها بالكمال الذى لا بد أن يعترف به جماهير الأوربيين ولو بعد حين، يعترف به بعض فُضلائهم وفُضْلَيَاتِهم الآن، وأمَّا المسلمون فلم يلتزموا هدايته، فصاروا حُجَّةً على دينهم، ونحن أحوج إلى الرَّدِّ عليهم والعناية بإرجاعهم إلى الحق مِنَّا إلى إقناع غير المسلمين بفضل الإسلام، مع بقاء أهله على هذه المخازى والآثام، إذ لو رجعوا إليه لما كان لأحد أن يعترض عليه.

أقوال فى تعدد الزوجات

يقول الشيخ محمد رشيد رضا فى كتابه «نداء للجنس اللطيف» ما نصه: «. . . أمَّا ما أشرنا إليه من اقتراح بعض كاتبات الإفرنج من تعدد الزوجات فهو ما أودعناه مقالة عنوانها «النساء والرجال» نُشرت فى (ص ٨١، م ٤) من المنار، وهاك المقصود منها: لما تنبَّه أهل أوربا إلى إصلاح شئونهم الاجتماعية وترقية معيشتهم المدنية اعتنوا بتربية النساء وتعليمهن، فكان لذلك أثر عظيم فى ترقيتهم وتقدمهم، ولكن المرأة لا تبلغ كمالها إلا بالتربية الإسلامية، وأعنى بالإسلامية ما جاء به الإسلام لا ما عليه المسلمون اليوم ولا قبل اليوم بقرون، فقد قلت آنفاً: إنهم ما رعوا تعاليم دينهم حق رعاياتها، ولهذا وجدت مع التربية الأوربية للنساء جراثيم الفساد، ونمت هذه الجراثيم فتولدت منها الأمراض الاجتماعية والأمراض المدنية، وقد ظهرت آثارها بشدة فى الدولة السابقة إليها، وهى فرنسا، فضعف نسلها، وقلَّت مواليدها قِلَّة تهدِّدها بالانقراض، والذنب فى ذلك على الرجال. حَذَّرَ من مغبة هذه الأمراض العقلاء، وحَذَّر من عواقبها الكُتَّاب الأذكياء، وصرَّح من يعرف شيئاً من الديانة الإسلامية بتمنى الرجوع إلى تعاليمها المرضية، وفضائلها الحقيقية، وصرَّحوا بأن الرجل هو الذى أَضَلَّ المرأة وأفسدَ تربيتها، وأن بعض فضليات نساء الإفرنج صَرَّحْنَ بتمنى تعدد الزوجات للرجل الواحد، ليكون لكل امرأة قيِّمٌ وكفيلٌ من الرجال» أ. هـ.

أرأيت كيف اهتم الإسلام بهذا الموضوع؟ وكيف وضع الضمانات حين أباح التعدد الذى قصد به صَوْن المرأة وصيانة الرجل؛ إذن ليس من المعقول أن نغلق أبواب الحل، وأن نوصد نوافذ الطُّهْر أمام المرأة ونضع القيد فى يديها ورجليها ثم نلومُ عليها لأنها لا تتحرك، فيكون مثلها كمن قيل فيه:

أَلْقاهُ فى اليمِّ مكتوفاً وقالَ له   إِيَّـاكَ إِيَّـاكَ أَنْ تَبْتَـلَّ بـالمـاء

إن الإسلام وضع القواعد للمرأة كى تعيش حرية الطهر والشرف المصان، ويبعدها ويبعد عنها حرية الانطلاق البهيمى الذى يترتب عليه جرح شرفها وإهدار كرامتها. . . إن الإسلام ينشد لها حرية الإنسان فى أكرم معانى الإنسانية، لا حرية الحيوان فى أحطّ غرائزه. إن انحراف الأخلاق لا تصلح معه عدالة حُكْم أو نزاهة تقدير، فالأخلاق المنحرفة كثيراً ما تتحايل على الأحكام وتتستر وراء القوانين. إن المدار على الأخلاق التى تجعل الإنسان يزن الأمور بميزان العدل، ويتأملها بعين الصدق، ويتقبل ما يتقبل فى حُدود «الكرامة والاعتدال».

هل يُجدى إذن أن نحسم الأمر بالتحريم بعد ما سُقناه من أدلة واضحة؟ ليس تحريم التعدد مع قيام دوافعه وضروراته إلاَّ حُلَّة فى صورة منكرة، وفاحشة مستترة لكى تصبح المرأة وتمسى وهى ذليلة مُهانة، تتقلب فى العبودية وتعيش فى القيود، لذلك فنحن نطالب بالتربية ـ تربية البنين ـ على تعشق الفضيلة وحُسْن مراقبة الله عزَّ وجلَّ، وغرس القيم الأخلاقية فى نفوسهم.

إن مع كل ما يثار حول التعدد ليس مشكلة، لأن حالات التعدد عندنا من الضآلة بحيث لا تذكر أبداً بجانب البوار أو طالبات الزواج. إن علينا أن نبحث عن حَلٍّ لنهيِّئ الفرصة للمحجمين عن الزواج لكى يتزوجوا ليصونوا فتيات اليوم وأمهات المستقبل، لأن الأسرة تعنى طهارة المرأة وصَوْن شرفها. والإسلام قد أعطى المرأة حق القُبول أو الرفض فى الزواج، ولا يمكن لأى رجل أن يجبر فتاة على الزواج من شخص لا ترغبه أو أن تكون شريكة لامرأة أخرى، بل الرضا والقبول هما الأساس الأصيل للزواج السعيد.

وشهد شاهد منهن

نشرت جريدة الأهرام[1] تحت عنوان «مزاولةُ المرأة لأعمال الرجل خَطَأٌ، وتعدد الزوجات تكريماً لها ولأولادها» للكاتبة اليابانية «مريم يونس»، حول التشويه الغربى لموقف الإسلام من المرأة، كتبت تقول: «إن الغرب يثير نقطة إباحة زواج الرجل من أربع نساء... ونقول: إن الرجل لا يفعل ذلك مرة واحدة، ولكن على التوالى، ووجود المرأة مع زوجها بعد زواجه من امرأة أخرى أكرمُ لها ولأولادها، بالإضافة إلى أن تعدد الزوجات مشروع بالعدل كما أوضح القرآن الكريم». وأضافت: «إن القرآن ذكر ذلك العدد منذ ١٤٠٠ سنة، ولم يزد هذا العدد وإنما هو ثابت. وتعدد الزوجات أكرم للمرأة من وجود عشيقات للرجل، فقد كان لأحد النبلاء فى اليابان ١٨ ثمانى عشرة امرأة عشيقة، بخلاف زوجته». وتتساءل مرة أخرى: «أليس الزواجُ المعترف به يُعَدُّ تكريماً للمرأة وصيانة لها؟ نعم إنه ليس إهانة لها، وإنما إهانتها والإساءة إليها أن تكون عشيقة بلا بيت ولا أسرة ولا أولاد. إلا يُعَدُّ هذا العمل التشريعى المُقَنَّن من حسنات الإسلام؟» أ.هـ.

هذا رأى أنثى، وهى ببنات جنسها أَعْرَفُ، ومع ذلك هذا كلامها قررته ليكون فيه الرد على كل متشدِّق لا يفهم الإسلام ولا يعرف الحقيقة التى دعا إليها، فهل آن الأوان أن نعرف الحقيقة، ونعلن بأمانة بأن الذى خَلَقَ الخلق أعرفُ بما يُصلح شأنهم ويحقق السعادة لهم والسلام لأمتهم والأمن لمجتمعهم؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[2]؟ أ.هـ.

ونشرت الكاتبة الشهيرة «مس إترود» مقالة مفيدة فى جريدة (الإسترن ميل)[3] نقتطف منها ما يلى:

«لأن يشتغل بناتنا فى البيوت خوادِمَ وكالخوادِمِ خَيْرٌ وأخفُّ بلاءً من اشتغالهن فى المعامل، حيث تصبح البنت ملوّثة بأدران تذهب برونق حياتها إلى الأبد. ألا

---

(١) الصادرة بتاريخ ٦ فبراير ٩٧.

(٢) سورة المُلك.

(٣) فى عددها الصادر فى العاشر من مايو سنة ١٩٠١ م.

ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفاف والطهارة. فالخادمة والرقيق: يتنعَّمان بأرغد عيش، ويُعامَلان كما يُعامَل أولاد البيت، ولا تُمَسُّ الأعراض بسوء... نعم إنه لَعارٌ على بلاد الإنكليز أن تجعل بناتها مثلًا للرذائل بكثرة مخالطة الرجال، فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل على ما يوافق فطرتها الطبيعية، من القيام فى البيت وترك أعمال الرجال للرجال سلامةً لشرفها؟».

وقالت الكاتبة الشهيرة «اللادى كوك» بجريدة (ألايكو) ما ترجمته: «إن الاختلاط يألفه الرجال، ولهذا طمعت المرأة بما يخالف فطرتها، وعلى قَدْر كثرة الاختلاط تكون كثرة أولاد الزِّنَى، وهنا البلاء العظيم على المرأة، فالرجل الذى علقت منه يتركها وشأنها، تتقلب على مضجع الفاقة والعناء، وتذوق مرارة الذل والمهانة والاضطهاد، بل الموت أيضاً، أمَّا الفاقة فلأن الحمل وثقله والوحم ودواره من موانع الكسب الذى تحصل به على قُوتها، وأمَّا العناء فهو أن تصبح شريرةً حائرة، لا تدرى ماذا تصنع بنفسها؟ وأمَّا الذل والعار فأى عار بعد، وأما الموت فكثيراً ما تبخع[1] المرأة نفسها بالانتحار وغيره، هذا الرجل لا يلمّ به شىء من ذلك، وفوق هذا كله تكون المرأة هى المسئولة وعليها التبعة، مع أن عوامل الاختلاط كانت من الرجل».

وتستأنف كلامها قائلة: «أما آن لنا أن نبحث عَمَّا يخفف هذه الآلام؟ أو عَمَّا يزيل هذه المصائب العائدة بالعار على المدنية الغربية؟ أَمَا آن لنا أن نتَّخذ طُرُقاً تمنع قتل الآلاف من الأطفال الذين لا ذنب لهم، بل الذنب على الرجل الذى أغرى المرأة المجبولة[2] على رِقَّة القلب المقتضى تصديق ما يوسوس به الرجل من الوعود، ويُمَنِّى به من الأمانى، حتى إذا قَضَى منها وطراً تركها وشأنها تقاسى العذاب الأليم».

«يا أيها الوالدان لا يغرنَّكما بعض دُرَيْهمات تكسبها بناتكما باشتغالهن فى المعامل ونحوها ومصيرهن إلى ما ذكرنا... عَلِّمُوهُنَّ الابتعاد عن الرجال،

---

(١) تبخع: تهلك.

(٢) المجبولة: المخلوقة والمفطورة.

أَخْبِرُوهُنَّ بعاقبة الكيد الكامن لهن بالمرصاد. لقد دلَّنا الإحصاء على أن البلاء الناتج من حمل الزِّنى يعظم ويتفاقم حيث يكثر اختلاط النساء بالرجال. . . ألم تروا أن أكثر أمهات أولاد الزِّنى من المشتغلات فى المعامل، والخادمات فى البيوت، وكثير من السيدات المعرَّضات للأنظار؟ ولولا الأطباء الذين يعطون الأدوية للإسقاط لرأينا أضعاف ما نرى الآن. لقد أدَّت بنا هذه الحال إلى حَدٍّ من الدناءة لم يكن تصورها فى الإمكان، حتى أصبح رجالُ مقاطعاتٍ من بلادنا لا يقبلن البنت زوجة ما لم تكن مجرَّبة! أى عندها أولاد من الزِّنى ينتفع بشغلهم!! وهذه غاية الهبوط بالمدنية. . . فكم قاست هذه المرأة من مرارة هذه الحياة حتى قدرت على كفالتهم، والذى علقت منه لا ينظر إلى أولئك الأطفال ولا يتعهدهم بشىء. ويلاه من هذه الحالة التعسة! تُرى من كان معيناً لها فى الوحم ودواره، والحمل وأثقاله، والوضع وآلامه، والفصال ومرارته؟!».

ذلك ما قُلناه فى وجه الحاجة تارة، والضرورة إلى تعدد الزوجات تارة أخرى، ويُزاد عليه ما عُلم منه ضِمْناً من كثرة النسل المطلوب شرعاً وطبعاً، فإذا كان منه التعدد ـ ولا سيما فى أعقاب الحروب وكثرة النساء ـ يفضى إلى كثرة الزِّنى، وهو ما يقلِّل النسل، كان ما يليق بالشريعة الاجتماعية المرغِّبة فى كثرة النسل والمشدِّدة فى منع الزِّنى أن تبيح «التعدد» عند الحاجة إليه لأجل ذلك، مع التشديد فى منع مُضرَّاته. وقد صرَّح بعض علماء أوربا بأن تعدد الزوجات من جملة أسباب انتشار الإسلام فى إفريقيا وغيرها، وكَثْرة المسلمين. ومهما يكن من ضرر تعدد الزوجات فهو لا يبلغ ضرر قلَّة النسل الذى مُنيت به فرنسا بانتشار الزِّنى وقلَّة الزواج، وستتبعها إنكلترا وغيرها من الأمم التى على شاكلتها فى التساهل فى الفسق.

الإسلام يدعو للفضيلة

إذا رأيت الرجل يَغْشَى مواطن السوء، فَأَشْفِقْ على زوجته أن يُصيبها بعض ما يلمّ به هارج بيتها، لأنه ما يقول القائل: «دَقَّة بدقة ولو زدنا لزاد السَّقا»، ذلك لأن سيرة الرجل فى نفسه هى الجزء الأكبر من عرضه، ومن فَرَّط فى النصيب الأوفر أوشك أن يتنازل عن الأقل، ومن لا أَمانَة له فى نفسه لا أمانة به فيما سواه، وإنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ ما يقول الرجل: إن الله اصطفاه وفَضَّله على المرأة، فالرجال قَوَّامون على النساء، وله من رياضة النفس وسيطرة الهوى ما يجعله يفعل ما يشاء! وهو يذلك يخطئ الرأى، لأنه يجرى وراء الهوى الكذوب، وأصبح لا عاصمَ له من عقل أو دين، فإذا نال مأربه وحقق ما يريد طاش لُبُّه، وانخلع قلبه، ولبس قناع العار على وجهه، فأساء إلى نفسه وأهله، حيث تنكّب الطريق السوىّ، فَسَرَتْ جراثيم الانحلال فى جسده، ووصلت إلى أُسرته، ووهنت إرادته، فعمَّت النكبة، وتوالت المصائب على رأسه، لأنه كما يقول القائل: «بَشِّرِ الزَّانى بالخراب ولو بَعْدَ حين». وكما يقول القائل: «مَنْ يَزْنِ يُزْنَ به، ولو بجدار بيته»، إن كنت يا هذا لبيباً فافهم.

إنَّ الرجل الذى يتعقب النساء فى مسارهن، ويجعل هَمَّه ابتغاء المهينات منهن، رَجُلٌ ساقط الهِمَّة، مضمور العرض، لا نصيبَ له من المروءة، جبان الشخصية، لا مروءة له، ولا حياء عنده، نجس الإزار.

إن المسلم تأمره تعاليم دينه بالعفَّة، وغضّ الطَّرْف عن المحرَّمات، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾[1].

---

(١) سورة النور، الآية ٣٠.

ويقول الرجل الشريف:

وَأَغُضُّ طَرْفِى إنْ بَدَتْ لِىَ جارَتى حَتَّى يُوارِى جارتى مَأْواها

ويقول الآخر:

أَعْمَى إذا ما جارَتِى خَرَجَتْ حَتَّى يُوارِى جارَتِى الخِدْرُ
ما ضَرَّ جارِى إذْ يُجاورنى أنْ لا يكونَ لبيتِهِ سِتْرُ

ومن أمثال العرب: «كل شىء مَهَهٌ ما خَلَا النساء وذِكْرهن» أى: إنَّ كل شىء يَسِيرٌ يحتمله الحرُّ، إلا أن تُذْكَر النساء وتُحكى القصص عنهن، وتذاع أخبارهن.

إزاء كل ذلك نقول للرجل ـ كما نقول للمرأة ـ حَصِّنْ نفسَكَ بالعِفَّة، وزَيِّنْ نفسَك بالطهارة، وتَحَلَّ بالخُلُق الكريم، وعليك إنْ وَجَدْتَ عندكَ غريزة تصرخ فى جسدك فَذَكِّرْ نفسَك بقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝ ﴾[1].

وعلاجك يا أخى حَدَّدَهُ رسولُ الله ﷺ فيما رواه البخارى عن عبد الرحمٰن بن يزيد، قال: دخلتُ مع علقمة والأسود على عبد اللّه، فقال عبد اللّه: «كنا مع النبى ﷺ شباباً، لا نجد شيئاً، فقال لنا: **«يا مَعْشَرَ الشباب، من استطاع الباءَةَ فليتزوَّجْ، فإنه أَغَضُّ للبصر، وأَحْصَنُ للفَرْج، ومن لم يستطع فعليه بالصَّوْم، فإنه له وِجاءٌ»**[2]. إن الإنسان قد تفوَّق على غيره فى تَحَرُّره من الغرائز إلى حدٍّ كبير، ذلك لأن الرغبة الجنسية عند الإنسان تُبْنَى على أساس عضوى مرتبط بالهرمون الذكرى الذى يزيد هذه الرغبة عند الرجال وعند النساء على السواء، وإن كانت النساء تحتاج إلى مقدار العُشْر مما يحتاج إليه الرجال من الهرمون الذكرى لهذا الغرض، ويرتبط ذلك بالنشاط العصبى فى المخ، هنا يأتى الصوم لمن لا يقدر على الزواج ليكون وقاية للفرد من الوقوع فى الجريمة الخُلُقية، علماً بأن الصوم لا يُضعف الرغبة الجنسية من خلال إضعاف الجسد عموماً بالتجويع والعطش، فالصوم وِجاءٌ

---

(١) سورة المؤمنون.

(٢) المراد بالوِجاء: دَفْع الشهوة.

حتى ولو تسحَّر الصائمُ سحوراً طيباً بحيث لا يَنْتَقِصُ من غذائه شيئاً، والصوم وِجاءٌ حتى ولو أفطر الصائم متعجِّلًا على أشهى الطعام وأفضله من حيث القيمة الغذائية.

إنَّ الصوم لا يقتل الرغبة الجنسية فى الإنسان، وقد كان الجماع محرَّماً فى شهر الصوم، حتى فى الليل، فوقع كثير من الصحابة فى المخالفة لعدم قُدرتهم على منع أنفسهم، فقال الله لهم: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[1]. إن الوجاء الذى يُحدثه الصوم فى الشخص هو يقظة الضمير، وصحوة الإرادة، وإرهاف الحسّ، ويكون ذلك سبباً لطرد الوسوسة الشيطانية من ذِهْن الفرد، والصائم أقدر على أن يركِّز فى الطاعة لله واللجوء إليه، فهو يغضُّ بصره، وينمِّى معارفه بقراءة القرآن والذكر لله، وبهذا يعيش الشخص على مائدة الطُّهْر والعِفَّة، مع ضبط النفس وإلزامها الأدب مع الله. إن غير الصائم يلعب الشيطان به فيُزيِّن له المرأة ليتَّجِهَ إليها يتابع خطاها، وضميره لم يستيقظ، فينشغل بالنظر، فتتحرك غرائزه، وتُثار عواطفه، وربما أدى ذلك إلى ما لا تُحْمَد عُقباه. ففى الحديث الذى رواه ابن ماجه: **«كُتِبَ على ابن آدم نصيبه من الزِّنَى، فهو مُدْرِكٌ ذلكَ لا مَحالة: فالعينان زِناهما النظر، والأُذنان زِناهما الاستماع، واللسان زِناه الكلام، واليد زِناها البطشد والرِّجْل زِناها الخُطَى، والقلب يَهْوَى ويتمنَّى، ويُصَدِّقُ ذلك الفرجُ أو يُكذِّبه»**[2]. إن الصائم تكون نفسه اللوَّامة نَشِطَة، فيحيا معها فى سعادة وهناء، لشعوره بالأمن النفسى والاستقرار العاطفى، وهذا هو العلاج. ومنه أيضاً الانصراف إلى ممارسة الرياضة البدنية بأى نشاط، وكذلك القراءة فى الكتب العامة ووسائل الإعلام المختلفة، بحيث يشاهد فى التليفزيون نشرات الأخبار والتحليلات السياسية أو الاقتصادية، أو متابعة البرامج الدينية أو الرياضية، أو حضور الاجتماعات والندوات فى الأندية، أو المساهمة بالعمل

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٧.

(٢) «الترغيب والترهيب» للمنذرى، ج ٣، ص ٢٧.

التطوعى فى الجمعيات، إلى غير ذلك مما يقطع به الشخص الوقت فى عملٍ مفيد، لأن الإنسان إنْ لم يشغله الحق شغله الباطل.

هناك علاج آخر حدَّده ربُّنا جَلَّ جلاله وعَظُم سلطانه، إنه غضّ البصر، لأن الرجل لو نظر إلى امرأة جميلة بالنظر إدْراكٌ، فإذا استقر إعجابه لها فإن ذلك وجدان، فإذا استشعر فى وجدانه ذلك فَغَضَّ بصره واستعاذ بالله وطلب منه ـ سبحانه ـ أن يُعينه على مجاهدة النفس وغلبة الشيطان فإنه سيتحقق له ذلك. إنه عندما يغضّ بصره وهو يستشعر أنه لا طاقة به إلاَّ بعون من الله الذى أمره بذلك، وقد فعل امتثالاً لأمره، فالحق سبحانه يُعينه على اجتياز هذه اللحظة، ورحمة الله تحيط به، لذلك قال رسول الله ﷺ لعلي: «يا عليُّ، لا تُتْبِعِ النظرةَ النظرة، فإن لَكَ الأولى وليس لكَ الآخرة»[1]. وفى الحديث القدسى عن رب العزة: «النظرةُ سَهْمٌ من سهام إبليس، مَنْ تركَها من مخافتى إبدلتُه إيماناً يجد حلاوتَهُ فى قلبه»[2].

إنَّ المؤمن وَقَّاف عند حدود الله، ورَجَّاع إلى الحق، والرجوع إلى الحق فضيلة، والإنسان يصرف طاقته إلى الخير، إمَّا عملًا أو تفكيراً، وهو يؤمن بأنه ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) ﴾[3]. ودائماً يستعيذ بالله الذى يعتمد عليه، ويطلب منه الهداية: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾[4].

ولهذا حدَّد الله سبحانه وتعالى علاجاً ناجحاً لغَلْق باب الشر من أوله، وحتى لا يُصاب الإنسان بالتمزق النفسى والفكر المنحرف، فكانت القاعدة هى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) ﴾[5].

---

(١) أخرجه أبو داود، وانظر: «الترغيب والترهيب»، ج ٣، ص ٢٦، طبعة وزارة الأوقاف.
(٢) أخرجه الحاكم والطبرانى، وانظر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥.
(٣) سورة النساء.
(٤) سورة فصلت.
(٥) سورة النور.

إن معظم النار من مستصغر الشرر، ولعلنا ندرك أن النظرة شيء بسيط جدًّا ويسير، لكنها تُشعل نار القلوب، وتؤجِّج العاطفة المسعورة، وتدفع بالغريزة أن تفصح عن نفسها، لهذا يقول القائل: «نظرة، فابتسامة، فموعدٌ، فلقاء». فقد بدأ الأمر بنظرة وانتهى باللقاء... ألم أَقُلْ: إنَّ مُعظم النار من مُسْتَصْغَر الشَّرر؟

إننا نقدم هذه النصيحة لشبابنا ونقول لكل شابٍّ: اصرف نظرك عندما ترى أى فتاة، ولا تجعلها تحتل منك بؤرة التفكير، واصرفْ فكرك بعد نظرك، وفَكِّرْ فى أى عمل أو أى شيء بعيداً عن الجنس الآخر... إنَّ مَنِ استعان بالله أعانه، ومن توكَّل عليه كفاه، ومَنْ يُؤمِنْ بالله يَهْدِ قَلْبَه... لو أن الشخص فَكَّرَ فى يوم القيامة وتصور جهنم بما فيها والمصير الذى يَئُول إليه كل خائن أَفَّاك لَمَا فكَّر الإنسان أبداً فى أى أنثى إلاَّ فى حلالٍ، أمَّا الحرام فهيهات أن يَقْرَبه، فالمَمات دُونَه.

الزواج عصمة وفضيلة

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾[١].

إن الزواج قيد من قيود الاجتماع أَوْثَقَهُ الله بين الرجال والنساء لتنكسر به حدَّة الشهوة الطائشة، ومن ثَمَّ فهو عصمة وفضيلة للإنسان، فإذا تعمَّ فى العَلَن، وبَيْنَ الشهود وحضور الولىّ، ورضا الزوجة سَمَتِ الرُّوح، وصَفَتِ النفس، وانتصرت الفضيلة، وسار الناس إلى الكمال فى نهج واضح، لذلك تجد المجتمع الفاضل هو الذى يدفع بأبنائه إلى الزواج وتأسيس الأسرة، تجد هذا المجتمع قويًا متماسكاً، تنشأ فيه المرأة ومعها نصيبها من عِزَّة الجانب، وحرية الرأى، فينزلها الرجل أَسْمَى المواطن من نفسه ورأيه ومشورتهن، وبالتالى فهى تتمتع بالحسّ الدقيق، ورسوخ قدمها فى المَكْرُمات، وعلمها مرفوع ينبئ عن عُلُوٍّ قدرها، وعفَّة نفسها، وطهارة جسدها، وهى لديها قوة فى حياء، ورِقَّة فى مُضاء، وذكاء فى صفاء، وذمّة ووفاء، وحدب على الأزواج ورعاية للأبناء، لأن الله سبحانه ما أسبغ على امرئ نعمة أعظم أثراً ولا أسنى خطراً ولا أجمع لشتات النِّعَم ولا أجلب لنعيم الحياة من المرأة الصالحة، فهى عند زوجها عِدَّة فى الشدة وزينة فى الرخاء، وهى منار أمل الرجل، فهو يستمد منها عزيمته، وإليها يعود للمشاورة، تلك هى المرأة الصالحة التى يفزع الرجل إليها إذا أَلَمَّ به خَطْبٌ، وقبل ذلك يسأل الله أن يوفِّقه للوصول إليها، وقد عَلَّمَنا ربُّنا ذلك، حيث قال على لسان الصالحين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (٢٠١)﴾[٢].

---

(١) سورة الروم.

(٢) سورة البقرة.

فَحَسَنَةُ الدنيا هى الزوجة الصالحة، التى إذا أَمَرْتَها أطاعتكَ، وإنْ نظرتَ إليها سَرَّتكَ، وإن أَقْسَمْتَ عليها أَبَرَّتْكَ، وإنْ غِبْتَ عنها حَفِظَتْكَ فى نفسك ومالك. لذلك أمر الإسلام المسلم بأن يحسن الاختيار لزوجة المستقبل، وحَثَّهُ أن يختارها من الصالحات المتديِّنات، وحَذَّرَهُ من «خضراء الدِّمِنَ» وهى المرأة الحسنة فى المنبت السوء.

إنَّ الفتاة التى تنشأ من أُمٍّ كريمة متديِّنة وأبٍ جواد كريم متديِّن، تُزَوِّدُها أُمُّها بزادٍ من الأدب والفضائل، والقيم الدينية الرفيعة، ويحلّها الأب موطن الرعاية والإكرام، ومن ثم تصبح زهرة طيِّبة الغَرْس، كريمة المنبت والمُجْتَنَى... مثل هذه الفتاة تكون خير سندٍ لزوجها، وتصبر معه على نَبْوَة[1] الخَلْق وريَب الزمان... كما أن مِثْل هذه الزوجة لا يتَّجه زوجها إلى اتِّخاذ زوجة أخرى معها، لأنه ما كان له أن يَدَعَ زوجةً عفيفة، راعية لبيتها، أمينة على أسرار زوجها، مربية لأولادها، لأنها كما فعلَتْ أُسْرَتُها معها ـ من حُسْن تربيتها وإمدادها بالأدب الرفيع والقيم النبيلة السامية ـ تفعل هى مع زوجها وأولادها.

يقول تعالى على لسان الصالحين من عباده: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)﴾[2].

إنَّ الرجل الذى ينشد المرأة الصالحة يخطب فيها شرف النَّسَب، وسناء الذِّكْر، وأصل العشيرة. وهو حين يطلبها لا يبالى بامتلاء يدها أو فراغها، فالشرف عنده هو الغاية التى يسعى إليها، ففراغ يدها تملؤه القناعة، لأن الغِنَى غِنَى النفس، ولأن الثراء أو المؤهل أوالعمل قد يُحْدِثُ عند الفتاة نوعاً من الصلف والكبرياء، وهذا ما لا يرضاه الرجل، لأنه يخطب فى المرأة سعة الحيلة، ومضاء الذكاء، ليكون ذلك تراثاً لبنيها، فإن ملكت كل ذلك كان خيراً عظيماً.

---

(١) النَّبْوة: الجَفْوَة.

(٢) سورة الفرقان.

اختيار المرأة للزوج

كما أن على المرأة أن تختار لنفسها زوجاً من بيئتها، يتمتع بالاستقامة، وحُسْن السمعة، وصفاء الخُلُق، والأمانة، وغير ذلك من الصفات النبيلة المُسْتَحَبَّة. ولنا في السيدة خديجة بنت خويلد قُدوة وأسوة حسنة في هذا المقام وهي من هي بين قومها شرفاً ونسباً ومالاً ومركزاً اجتماعياً، وتقدم لها أكابر القوم يخطبون وِدَّها ويطلبون يدها، فأبت، لكن عندما وُصِفَ لها محمد بن عبد اللَّه، وهو من هو، خُلُقٌ عظيم، وأدب جمّ، وطهارة سيرة، وعلاوة على نضج عقله، وصفاء ذهنه، وحُسن تصرفه، مالت نفسها إليه، فأرسلت إليه مَنْ ذَكَرَتْ له خديجة، فخطبها لنفسه، وكانت أكرم زوجاته عليه - رغم فارق السن - وأبقاهُنَّ أثراً عنده، وأسناهن ذِكْراً في حياته. إن شرف الهِمَّة وحُسْن السمعة لا بد أن يتوافر بين الطرفين، ولقد قلنا بأن الغِنَى غنى النفس، فالشاعر يقول:

ليسَ الجَمالُ بأثوابٍ تُزَيِّنُنا إنَّ الجمالَ جمالُ النَّفْسِ والخُلُقِ

ويقول الآخر:

صُنِ النَّفْسَ واحملها على ما يَزِينُها تَعِشْ سالماً والقَوْلُ فيكَ جميلُ

إن الحق سبحانه عندما وجَّه الشخص ليتزوج نَبَّهَهُ إلى حُسْن الاختيار، وبَيَّنَ له أن الزواج إن تمّ في ظل الدين وَوِفْقَ منهجه فإن الفقير سوف يُغنيه الله سبحانه وتعالى، وجاءت الآيات صريحة بذلك، يقول الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾[١].

أما الذين لا يجدون النفقة ويخافون أن يُضَيِّعُوا بنات الناس فالله يقول لهم: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٢]. والأَيِّم هي من مات زوجها أو طُلِّقت بسببٍ خارجٍ عن إرادتها، وليس هناك ما يعيبها[٣].

---

(١) سورة النور.

(٢) سورة النور، الآية ٣٣.

(٣) ويقول ابن السكيت: الأَيِّم مَنْ لم يكن لها زوجٌ، بِكْراً كانت أو ثَيِّباً [المصباح المنير - مادة: أيم].

فساد وتفريط فى حقوق المرأة

كان العرب حتى آخر العهد الأموى يخلف المطلقة زوجٌ بعد زوج فلا ينقص ذلك مَنْ قدرها، فهى تُخْطَبُ لسناء شرفها، وأصالة أسرتها، وعلوّ بيتها، ونبل خلالها، لكن الناس شغلوا بلذاذات الشباب، واستمرءوا مَرْعَى الجوارى فانصرف بعض الناس عن الأبكار، وبالتالى عن الأرامل والمطلَّقات، لأنهن وَجَدْنَ المرتع الخصب بين الجوارى والخَدَم والساقطات وما شاكل ذلك، وهذا خطر كان يهدد المجتمع وينذر بالويل والتعاسة لأفراده، ومن يسير على هذا المنوال.

وانظر إلى المجاهرة بالغَدْرِ، والمجابهة بمكنون النفس، يقول القائل:

يا رُبَّ مثلكِ فى النساءِ كثيرةٌ   بيضاء قد مَتَّعَها بطلاقِ

لم تَدْرِ ما تحتَ الضلوع وغرَّها   منِّى تجمُّل شيمتى وخلاقى

ويقول الآخر:

إذا لم تكن طُرُق الهَوَى لى ذليلة   تنكَّبُها وانحزتُ للجانِبِ السَّهْلِ[1]

وما لِىَ أرْضَى منه بالجَوْرِ فى الهَوَى   ولى مثله إلْفٌ وليسَ له مِثْلِى[2]

ويقول الآخر:

اذهبى قد قضيتُ مِنْكِ قضائى   وإذا شِئْتِ أن تَبِينِى فَبِينِى

ثم أعقب ذلك كاسدٌ وتفريط فى حقوق المرأة، فمن ذا الذى يضنّ بالرخيص المبذول، أو يصون البغيض المملول؟ خاصة بعد أن طُرحت فى مطارح الإهمال، فلا هى تزوَّدت بعلمٍ، ولا تجمَّلَتْ بأدب، ولا نشأت على دينٍ، وليس عندها خُلُق، لذلك قالوا عنها آنَ ذاك: إن الذى يعلم المرأة كمنت يصقل السيف ليقتل به. وقالوا: لا تَسْقِ السَّهْمَ سُمًّا فترميك به يوماً. وقالوا: إذا وُصفت المرأة بالعقل فهى غير بعيدة عن الجهل. وقالوا: لا تَدَعِ المرأةَ تضرب صبيًّا، فهو أعقل منها.

ولقد فشا هذا فى المجتمع آنَ ذاك وأرسلوه فى نوادرهم، وأذاعوه فى أشعارهم، ثم تبع ذلك أنهم أباحوا زواج المتعة أو الزواج الموقوت.

---

(١) تنكبتُها: تركتُها وعدلتُ عنها.

(٢) الجور: الظُّلم. والإلف: الحبيب.

زواج المتعة

إذا رفضت المرأة وهانت على نفسها فإن الرجل يجعلها مَلْهاةً لنفسه، يقضى معها نزوته تحت أى مُسمَّى، وكان من ذلك زواج المتعة، وهو عقد بين الرجل والمرأة، يقول الرجل للمرأة: أتمتع بك أو أستمتع بك فترةً، فتجيبه المرأة بالقبول، ويتم ذلك دون شهود، ويسمى بالزواج الموقوت، أو المؤقت، وهذا الزواج سِرِىٌّ، ومحدد بزمن معين. وقد كان هذا الأمر مباحاً فى أول الإسلام. فعن ابن عباس رضى الله عنه، قال: «إنما كانت المتعة فى أول الإسلام، كان الرجل يقدمُ لبَلْدَةٍ ليس له بها معرفة، فيتزوج المرأة بِقَدْرِ ما يرى أنه مقيمٌ، فتحفظ له متاعه، وتصلح شأنه، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝﴾[1]، فكل فَرْجٍ سواها حرام.

هذا، وقد حَرَّمَ النبىُّ ﷺ هذا الزواج - زواج المتعة - فى حجة الوداع، فعن سيرة الجُهَنِىِّ، أنه كان مع النبى ﷺ، فقال: «**يا أيها الناس، إنِّى كنتُ قد أَذِنْتُ لكم فى الاستمتاع من النساء، وإنَّ الله قد حَرَّمَ ذلك إلى يوم اليامة، فَمَنْ كان عنده منهن شىء فَلْيُخْلِ سبيله، ولا تأخذوا مِمَّا آتيتموهن شيئاً**»[2].

واشتد عمر بن الخطاب فى ولايته على مَنْ يحلّ ذلك، واعتبره زِنًى، و ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝﴾[3]، ولذلك فهو حرام، لأنه اتسَّم بالسرية، ولا شهود، ولا ولى.. إن الزواج سكن للنفس ومودَّة بين الأهل، وإعلانٌ للناسِ حفاظاً على شرف المرأة وكرامتها وسمعة أبيها، وصيانة لماء وج خالها وعمها، يقول الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾[4]. ويقول سبحانه: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[5]. ويقول سبحانه: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ

---

(١) تبينى: تُفارِقِى.

(٢) سورة المؤمنون.

(٣) رواه أحمد ومسلم.

(٤) سورة النور، الآية ٣.

(٥) سورة النساء، الآية ٢٥.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾[1].

أرأيت يا أخى هذ التوجيه الإلٰهى للزواج الصحيح (المهر، الإعلان، الشهود)؟ إنَّ كُلَّ هذا دعامات أساسية فى الزواج لتحقيق السكن والمودَّة، فإذا انتفى شىء من ذلك فالزواج باطل، وتكون نتيجته إنجاب أولاد عاقِّين يضربون الأب، وقد يقتلونه، ويهينون الأم، وقد يطردونا، لأن ما بُنى على باطل فهو باطل، وكل جسدٍ نبَتَ من سُحْتٍ أنتج فساداً.

قيل فى المرأة

إن سكرة النعيم وكثرة الأموال دفعت بالمرأة أن تسير خلف الرجل، تقذفها يده إلى الهاوية فتتردَّى فى أعماقها بدون رحمة، وهو يُمَوِّه عليها، فإذا الضلالُ هُدًى، وإذا الشَّطَطُ قَصْدٌ مبين، وأَرْخَى لها العنان، وإذا ضَلَّ راح يلتمس لنفسه المعاذير، لهذا راح يعزو ما تورطت فيه المرأة إلى سوء فِطْرتها، ولؤم غريزتها، وقبح دخيلتها، وأنها أشر الشرر، وأسوأ السوء، وَزَوَّرَ لها أحاديث نسبها إلى رسول الله ﷺ، وبَيَّنَ لها أن المرأة هى قرار اللؤم ومنبت الشرر ونبعته. كما نسبوا إلى فلاسفة اليونان والهند تشبيههم المرأة بالحية الرقطاء، وقالوا: سلاح إبليس النساء. وهن حبائل الشيطان. ولا تُشاوِر النساءَ فإن رأيهن إلى أَفَن، وعزمهن إلى وَهَن. ونسبوا إلى الإمام علىٍّ كرَّم الله وجهه أنه قال: «لا تطيعوا النساء على أى حال، ولا تأمنوهن على مال، ولا تذروهن يدبرن العيال، فإنْ تُرِكْنَ وما يُرِدْنَ أَوْرَدْنَ الرجلَ المهالك، وأزلن الممالك. يتهافتن فى البهتان عند لذَّاتهن، ولا عقل لهن عند شهواتهن، ينسبن الخير ويحفظن الشر، يتهافتن فى البهتان ويتمادَيْن فى الطغيان، وَيَتَصَيَّدْنَ للشيطان».

وورد أيضاً: «النساء عىّ وعَوْرَة، فداووا العَىَّ بالسكوت، والعورة بالبيوت». ونَسبوا إلى سقراط قوله ـ وقد رأى امرأة تحمل ناراً فقال: «نارٌ تحمل ناراً، والحامل شَرٌّ من المحمول». ثم رددوا قول القائل:

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣٥.

تَمَتَّعْ بها ما ساعَفَتْكَ ولا تَكُنْ جَزُوعاً إذا بانَتْ فسوف تَبِينُ[1]
وإنْ هى أعطتكَ اللَّيان فإنها لغيـرك مـن خُـلَّانهـا سَتَلِيـنُ[2]
وخُنْها وإن كانت تَفِى لك إنها على مَدَدِ الأيام سوف تَخُونُ
وإنْ حلفَتْ لا يَنْقُضُ النَّأىُ عَهْدَها فليـس لمخضـوبِ البَنـانِ يَمِيـنُ

تلك فترة من التاريخ، قيل عن المرأة ما قيل، وسمعت المرأة هجر الكلام ومُرَّه، حتى جاء أبو العلاء المعَرِّى، فاتَّهم المرأة فى ذمتها وأمانتها، ودينها وخُلقها، ولم يَدَعْ لها لَمْحةً من الخير، ولا حجب عنها لَفْحَة من الشر، ثم أعقبتَ هذا فترة أرْخَى الرَّجُل على المرأة الحُجب، وأسْدَلَ دونها الأستار، وأبعدها عن العيون ومحا كل أثر ينبئ عنها أنو يشعر بوجودها، وراح يتأوَّل لذلك ما يراه يحقق الهدف من رؤية المرأة، فقيل: تُمْنَع عن كشف وجهها، وصوتها عورة، حتى فى قراءة القرآن، أو إذا رَدَّتْ على طارق بابها. ولا يجوز أن يُذْكَر اسم المرأة بين الرجال، لأن اسمها عورة يُعاب ذكره، وتتلمس وجوه الكتابة عنه، ولهذا قال قائلهم:

صـلاةُ الله خـالقنـا حَنُـوطٌ على الوَجْهِ المكفن بالجمال[3]
على المدفون قبل الموت صَوْناً وبعد الموت فى شرف الخِلال

لقد فرضوا النقاب عليها ـ حتى على البنات الصغيرات ـ وحكموا على أن تظل فيه حتى تموت.

وحين عَلِمَ الخليفة المستنصر ـ وهو من خلفاء بنى العباس ـ بولاية شجرة الدر أَمْرَ مصر وأن الشعبَ رَضِىَ بحكمها واطمأن إلى حُسْن تدبيرها، كتبَ فى أول الأمر إلى أحد المماليك يقول:

«أعْلِمُونا إنْ كان ما بَقِىَ عندكم فى مصر من الرجال مَنْ لا يصلح للسلْطَنَة فنحن نرسل لكم من يصلح لها... أَمَّا سمعتم أن الحديث عن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) سورة الطلاق، الآية ٢.
(٢) الجزوع: الذى لم يصبر على ما نزل به.
(٣) الخُلّان: جمع خليل، وهو الصديق المقرَّب.

«لا أَفْلَحَ قومٌ وَلَّوْا أَمْرَهُم امرأة»؟ ثم ختم رسالته بإنكار شديد ووعيد وتهديد ثم قال:

النساء ناقصاتُ عقلٍ ودين ما رأينا لَهُنَّ رأياً سَنِيَّا
ولأَجْل الكمالِ لم يَجْعَلِ الله تعالى من النساءِ نَبِيَّا

الإغراء بالفساد

إن كل ما كان حول المرأة يدفع إلى الإثم ويغرى بالفساد، فقد أصبحت هى ميداناً فسيحاً تغمره اللَّذَّات، وتدفعه المحرمات، فعن يمينها الرجال يستحدثون كل يوم أسلوباً من اللهو، ويستجدون ضروباً من الشهوات، ساروا خفافاً تدفعهم المآرب والأوطار وتَحْدُوهم الكُئوس والأوتار، وأصبح القوم وأَلْسِنة بعضهم يغرون الرجال بالحرائر، ويُشكِّكون فى عِفَّة العفيفات، بل إن بَشَّارَ بن بُرْد اتَّهم الحرة فى صيانتها وعفَّتها، وأطمع الرجال فيها، وذلك حيث يقول:

لا يُؤيسنك مِنح مُخَدَّرة قول تغلظه وإنْ جَرَحا
عُسْر النساءِ إلى مُباسَرةٍ والشىء يسهلُ بعدما جَمَحا

ثم استتبعه أبو نواس حيث يقول:

كان الشباب مَطِيَّة الجَهْل ومُحَسّن الضَّحكاتِ والهزلِ
والباعِثِى والناس قد رقدُوا حتى أَزُورَ حليلةَ البعلِ

إذا قرأت هذا فاشفق على قلبك أن يذوب أَسًى، وابعد عن نفسك أن تذهب حسرات، يا ويحَ هؤلاء الناس! أبلغَ الفساد ورِقَّة الدِّين أن امرأة تعتب على زوجها انشغاله بالخَدَم والإماء وانصرافه عنها، فيجيبها فى غير خجل:

لا تَذْكُرى لوعة إثرى ولا جزعا ولا تُقاسِينَ بعدى الهَمَّ والجَزَعا
بل ائْتَسِى تجدى إنِ ائْتَسَيْتِ أَسًى بمثلِ ما قد فُجعت اليوم قد فجعا
ما تصنعين بعينٍ عنكِ قد طمحت إلى سِواكِ وقلب عنكِ قد نزعا؟
إنْ قُلْت قد كنت فى خَفْضٍ وتكرُمَةٍ فقد صَدَقْت ولكن ذاك قد نزعا
وأى شىء من الدنيا سمعت به إلا إذا صار فى غاياته انقطعا

ومَنْ يطيق خليعاً عند صَبْوَتِه   أَمْ مَنْ يقوم لمستورٍ إذا خَلَعا

فهذا الشاعر يصارح امرأته الحُرَّة بانصرافه عنها إلى غيرها من الخدم والجوارى، ويأمرها بالصبر عَمَّا أصابها من جَفْوَة وهجران وهوان، ثم يقول لها: إن المستور إذا خرج إلى الفجور سار طَلْقَ العَنان، ترده قوة ولا يُثْنيه بيان.

وإن تعجب فعجب ما حدث فى دولة القرامطة، وهم من أهل فارس، أرادوا أن يوهنوا العرب فى دينهم بعد أن أوهنوهم فى قوميتهم، وهم لم يهاجموا الإسلام طعناً وتجريحاً، بل أظهروا للمسلمين أنهم لا يعدلون عن الإسلام، لكنهم تأولوا كل حقيقة من حقائق الإسلام، وكانوا يَتَّصلون بالناس يُخاطبونهم على حسب هواهم، فلأهل السُّنَّة كلامٌ، والمُعتزلة كلام، وللمتصوفة حديث غير العوام. وكانوا يبيحون للغُواة كل الملذَّات، وجعلوا المرأة مشاعاً، حتى أباحوا للرجل أن يتزوج بابنته أو أخته. ومن كلامهم: «العجب من الرجل يكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة فى حُسْنها فيحرمها على نفسه وينكحها من أجنبى، ولو عقل لَعَلِمَ أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبى»[1]. وهذا شَرٌّ وخُبث ودهاء، والأَمَرُّ منه أنهم أباحوا للمرأة أن تتزوج بالكثير من الرجال، أُسْوة بالرجل، فالرجل يتزوج بأربع أو أكثر بعد أن يُطلق الزائدة إذا أراد، والمرأة كذلك لها عندهم هذا الحق، وقد ذكر الطبرى فى تاريخه الكثير من هذا الفساد والفجور.

فالقرامطة كانوا يجذبون قلوب الفتيان والفتيات إليهن بما يُزينونه لهم من ضروب الملذَّات ومُقارفة المآثِم. ولعلنا نذكر سَطْوَتهم على البيت الحرام ومَنْ يلوذُون به، فقد أحرقوا أستار الكعبة، وكسروا الحجر الأسود، ونقلوه إلى بلادهم، ومَلَئُوا زمزم بأجسام القتلى، وذبحوا من الحُجَّاج من لا يحصيهم إلا الله، فليس بعد الكفر ذنب.

أليس فى ذلك ما يُوجب الأسى؟ وإذا كان المسلمون قد أبادوا هذه الفرقة إلا أن بصمتها على جبين الزمن باقية فى ذاكرة التاريخ، خاصة ما ألحقوه من إهانة

---

(١) الحنوط: كل ما يُخْلَطُ من الطيب لأكفان الموتى وأجسادهم.

للمرأة عندما جعلوها حِلًّا مُشاعاً لمن أراد، حتى ولو كانت بنت الرجل أو أخته.
إننا نُذَكِّرُ الناسَ والذِّكْرَى تنفع المؤمنين، والذكرى جرس يرنّ فى عالم النسيان، فإننا نرى بوادرَ ضَعْفٍ يقترب من ساحة المجتمعات الإسلامية، حيث المال، واستخدام فئة من غير المسلمين لا عفَّة لها ولا حصانة، وإنما همّها المال السهل المبذول، واستتبع ذلك نسيان اللغة العربية وتَعَلُّم لغة هؤلاء الغرباء الوافدين للعمل وغيره من تلك البلاد حتى صارت المتاجر والمصانع والمزارع تعلن عن نفسها بلغة هؤلاء فى البلاد العربية، وأصبح العربى يشعر بغربته بين بنى قومه، والمرأة هى الأصل... فهل نتنبه أم يجرفنا الانحلال تحت زعم التقدم وفى الحقيقة أنه هو الانهيار بينه... أو كما يقولون: «الصعود إلى الهاوية».

جهاد المرأة المسلمة

النور يبدد الظلام

يقول الله تعالى لبنى البشر جميعاً: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(1) صدق الله العظيم.

لا تجد قوماً أبعد مدًى فى الضلال ولا أقصر يداً عن الحقيقة من أُناس أجازوا لأنفسهم الحكم على الإنسان وليسوا منه فى قليل ولا كثير، وأباحوا لأنفسهم أن يكتبوا عن النساء فى الإسلام فزعمو أنهن قعائد بيوتٍ، لا رَأْىَ بُبدينه، ولا نصيب من الحرية يعتززن بها، وتلك نزعات أهوائهم تنكشف كل يوم عن ذلك الإيقاع المبتذل والأسلوب المرذول، وهم يعرفون الإنسان الإسلام ما شَرَعَ للمرأة أن تكون رهينة بيت أو سجينته، بل هى رَبَّتُه، والقائمة بأمره، والمسئولة عنه، يعاونها الرجل فيه وتعاونه هى فيما سواه. إنها عماد البيت ودعامته، كما أنها لم تَدَعْ موطناً عظيماً ولا مشهداً حافلاً ولا عملاً خالداً إلا وكانت عماد أمره، فهى سَعِدَتْ بالإسلام الذى حرَّر عقلها، وطَهَّرَ نفسها، وصان شرفها، لذلك سارعت إلى رسول الله ﷺ وجلست بين يديه متعلِّمة، ورافقت جيشه مُداوِيَة، وجالت بين يديه مُقاتِلَةً مستبسلة، وهاجرت بدينها إلى الحبشة والمدينة المنورة مع السابقين الأولين من المهاجرين، فأَجْزَلَ الله فى كل ذلك مَثُوبَتَها، وأحسن النبى مآبها، وأكبر المسلمون مواقفها.

---

(1) سورة المائدة.

هذا، وقد دَعَتْ وثبة الإسلام إلى أن يكون للمرأة دَوْرٌ فى طلب العمل، واشتراكٌ فى حضور الصلوات وحضور مناسك الحج، كما أنها لم تتأخر عن الخروج للجهاد. لقد هيَّأ الإسلام المرأة بما نزل فى القرآن الكريم من آيات تُوَجِّه إلى مكارم الأخلاق، وكانت هى سبَّاقة للأخذ بها، لأنها نزعت إلى خُلُق فاضل، وبه كان وجودها، وبه أفاضت على القوم روح الحَمِيَّة، وحب التضحية، ووحى القبول، لذلك احتملت من العبء أثقله، ونالك من النصيب أقلَّه، وربما تناولتها المصائب من كل جانب فلا تجد من حُسْن العزاء ما يطمئن قلبها بمثل ما فعل الإسلام، الذى رفعها إلى أبعد مما يطمح فيه خيالها، ويصبو إليه أملها، وساق لها من آى الذِّكْر الحكيم ما بَهَرَ سناه بصرها، وملكت بحجته نفسها، واستفاد من بلاغته وحُسن بيانه قلبها، وأنصتت لما وصف به الله رحمته وعزته، وجنته وناره، وما أعد للصابرات والمحسنات من جزيل الأجر، فأثارَ ذلك عاطفتها، وأفاض وجدانها، وأنار بصيرتها، وكان لكل ذلك أثره فى نفسها كأنثى تأثرت بالإسلام، وخير دليل على ذلك أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، التى هيَّأ الله لها من جلال الحِكْمة وبُعْد الرأى، إلى زكاء الحسب وذكاء القلب، ما عَزَّ على الأكثرين من الرجال، فلم تأخذ الدين مُشايعة ولم تتلقاه مجاملة، بل أخذته عن تأثُّر به، وظمأ إليه، لهذا كانت مبعثَ غبطة للنبى الأمين. وقد أشعرته بالسكينة عند تدافُع المِحَن، واشتداد الخطوب عليه، ثم اتَّبعها جمهور من النساء تأثرن بهذا الدين تأثراً هان دونه كل شىء، وكان أول مَنْ سبق إليه فريق الضِّعاف اللواتى فَقَدْنَ النَّصَفَة، وعثر بِجَدِّهن[1] الزمان، فابتدرن ورده، وتفيأن ظله، واستهنَّ بما أصابهن فى سبيل من ظلم وعذاب، وتحملن الآلام بنفس راضية، وما حديث «سُمَيَّة» أُمّ عَمَّار بن ياسر بغائب عنَّا، كان عُتاةُ الكفَّار يخرجون بها إذا اشتدت الظهيرة والتهبت الرمضاء ويُلبسونها درعاً من حديد ويهيلون عليها الرمال المتَّقدة ويرضخونها بالحجارة، وكان زوجها «ياسر» وابنها «عمَّار» معها، فلما اشتد عليهما العذاب تفاداه «عمّار»

(١) الجَدُّ: الحَظّ والغِنَى. والنصفة: الإنصاف.

بظاهر ما يُرضى الكفار، وفيه نزل قول الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[1]، أمَّا «سُمَيَّة» فاعتصمت بالصبر ورضيت بالعذاب وأبت أن تُعطى القوم ما طلبوا[2]، فاشتد عليها العذاب حتى لقيت ربَّها شهيدة مؤمنة صابرة[3].

وكان عمر بن الخطاب يتولى تعذيب امرأة مسلمة لبنى المؤمل[4]، وكان يضربها بالسياط ويتعب، ويترك عذابها ويقول لها: إنى ما تركتُك إلاَّ تعباً، فترد عليه بقولها: «كذلك فعل الله بك»[5].

لم يقف النساء حيال ذلك العذاب موقف الواهن الضعيف، بل لقد اسعذَبْنَهُ واستهنَّ به وهنَّ يتعرضن له وينزعن إليه، لأنهن وجَدْنَ فيه الخلاص، فعذاب الجسد يهون، أمَّا عذاب النفس فوانٌ ومرارة ودمار وموت بطيء، لذلك ـ وبرغم ما نَزَلَ بهن ـ كُنَّ يَنْبَثِثْنَ فى البيوت لدعوة مَنْ بها إلى الإسلام، إعلاءً لكلمة الله.

ورُبَّ قائلٍ يقول: أولئك الإماء والعبيد والخدم، فنقول له: لا، لأن ذوات الشرف والحَسَب والمكانة لم يُقَصِّرْنَ فى اللحاق بهؤلاء، وبعضهن قد آمَنَّ مع من آمَنَ من ذويهن وأزواجهن، ومنهن من آمنت وحدها واحتملت آلام الهجرة، ومن هؤلاء: أُم كلثوم بنت عقبة، ولم يسلم أحد من بيتها، وفارقت خِدْرَها ومستقر أمنها ودعَتَها، وهاجرت تحت جُنح الليل فريدةً شريدةً، تطوى قدماها ثنايا الجبال. ثم أسلمت أمها وهاجرت مثلها وتركت شباب أهل بيتها وكهولهم وهم فى ضلال يعمهون[6].

---

(١) سورة النحل، الآية ١٠٦.

(٢) طلب منها الكفار أن تكفر بمحمد وتذكر إلٰهه بسوء، وتؤمن بآلهتهم وتذكرهم بخير، فأبت ذلك، وصمدت للعذاب، حتى طعنها أبو جهل لعنه الله بحربة، سقطت بعدها شهيدة صابرة، ولقى زوجها «ياسر» نفس المصير على أيدى الكفار، وكان الرسول ﷺ يمرُّ عليهم وهم يُعَذَّبُون ـ فى بداية الإسلام ـ ويقول لهم: «صبراً آلَ ياسر، فإن موعدكم الجنة»، وكانت «سُمية» أول شهيدة فى الإسلام، رضى الله عنها وعن زوجها وسائر شهداء المسلمين.

(٣) «إنسان العيون»، ج ١.

(٤) كان ذلك قبل أن يشرح الله صدره للإسلام.

(٥) سيرة ابن هشام، ج ١.

(٦) «الإصابة فى أعلام الصحابة»، ج ٨.

وما كان ثبات المرأة وقوة نفسها ورسوخ يقينها واستهانتها بالموت فى سبيل دينها ف فترة معينة من تاريخ الإسلام إلاّ الدليل القوى على الدور الخطير الذى قامت به فى سبيل الحق، وثباتها على المبدأ، بل قد صحبها ذلك فى أطوار التاريخ، وخامَرَ لحمها ودمها فى كل مراحل حياتها، فلقد تميزت المرأة بالثبات على رأيها ما دام ذلك فى الحق، وما حديث أسماء بنت أبى بكر بغائب عنَّا، فلقد سخَّرها الله يوماً لتكون آية لُطْفِه الخفى، ووحى إرادته البالغة فى أعظم حوادث الإسلام خطراً وأبقاها أثراً، عندما كان النبى ﷺ ومعه صاحبه فى الغار، وكانت أسماء هذ تُمسيهما كل ليلة بالزاد والماء، ثلاثة أميال تقطعها الصبية الناشئة فى جوف الليل ووحشة الطريق، بين أَسِنَّة الصخر، ومساحات الرمل، ماشية حافية، متخفية حذرة، ومثلها من الولدان يغدون إلى ملاعبهن، ويأوون إلى صُدور أُمهاتهم، وكانت هى حيث يعجز أشَدُّ الرجال وأبطالهم. . . أى قلب ذاك الذى أودعه الله بين ضلوعها؟ وأيةُ عَزْمَة تكل التى خفقت فى نفسها؟ لقد كانت نموذجاً من النماذج التى استخلصها الله لدينه، واصطنعها لدعوته، ونفث فيها من روحهن، فكانت مستقر الكمال، ومجتمع أشتات الفضائل. ويمضى التاريخ يذكر من مواقفها الرائعة طوالَ حياتها، وفى ختام أيامها عندما خرج ولدها[1] على الحاكِم الظالم وشَقَّ عصا الطاعة ثم خَذَلَهُ الناس، فدخل عليها وهو مُتْعَبٌ ليأخذ رأيها، فقالت: إن كُنْتَ على حَقٍّ فامْضِ فى طريقك. فقال لها: أخافُ إنْ قُتِلْتُ أن يُمَثِّلَ بى بنو أمية! فقالت قولتها المشهورة: يا بُنَىَّ، إنَّ الشَّاة لا يضرّها سَلْخُها بعد ذَبْحِها.

ولك أن تتأمل فى قَرْنٍ وبعض قرن كيف وثب المسلمون وثبة أذهلت العالم، وكيف مَلأوا الأرض قوة وبأساً، وحكمة وعلماً، فراضوا الأمم، وركزوا أَلْوِيَتَهُم فى قلب آسيا وهامات إفريقيا وأطراف أوربا، وتركوا دينهم وشرعهم ولغتهم وعلمهم وأدبهم تدين لها القلوب، والعرب قبل الإسلام كانوا فرائقَ بدداً، لا نظامَ، ولا قوامة، ولا عِلْمَ، ولا شريعة، ففى أى المدارس تخرَّج هؤلاء؟. . . لقد قطع العرب تلك الفترة ـ التى وجم لروعتها التاريخ ـ وليس عندهم معهد ولا كلية،

---

(١) هو: عبد الله بن الزبير بن العوام.

وإنما كانت خيامهم ودورهم معاهد وجامعات، ولى أمر ذلك أُمّهاتُ صِدْقٍ أقامهن الله على رعاية النَّشْء، واستخلفهن على صنائعه من الأشبال الذين أصبحوا بعد ذلك قادة الأُمَّة. لقد كُنَّ نِعْمَ الأمهات، قُمْنَ بالواجب، وثَبَتْنَ على العهد، ونَهَضْنَ بالفادح الشديد، فَحَمَلْنَ الأمانة بجدارة.

إن الأُمَّ بمثابة القلب، فهى غذاءِ أرواح أبنائها، ومَبْعَثُ عواطِفهم، لذلك دفع الإسلام عن المرأة الظلم الاجتماعى، وأنصفها، ورفع شأنَها، وهى بالتالى تمسكت بدينها، وثَبَتَ يقينها، وتحصَّنت بالعفة، وَائتزرتْ بالطهارة، وتفرَّدت بتكوين الرجال والتأثير فيهم بما لها من قوة وشدة عزيمة على المضى فى عملها والبلوغ بواجبها، مِمَّا أوجبَ لها الحُبَّ والاحترام، وقد أصبح ذلك فى الإسلام فرضاً محتوماً، لأن لها المقام الأَوْفَى، والمنزلة التى ليس فوقها إلا الله ورسوله. وقد كان الرجل لا يجاوز رأىَ أُمِّه، ولا يستشعر الغناء عن مشورتها ونهج سبيلها، مهما تطاوَلَ به العمر وأمعنت برأيه التجارب، وأكبر دليل على ذلك عبد اللّٰه بن الزبير مع أمه أسماء بنت أبى بكر الصدِّيق الذى مَرَّ بك حديثها قريباً، وهاك هو بكامله: فعبد اللّٰه هذا لبث على إِمْرَة المؤمنين ثمانى سنوات، ودانت له العراق والحجاز واليمن، ثم أخذ عبد الملك بن مروان يُقارعه، فانتقص منه العراق، ثم رماح بالحجاج بن يوسف الثقفى الذى أخذ طوى البلاد التى دانت له، حتى انتهى إلى مكة فطوَّقها، ونصب المجانيق على الكعبة وأهوى بالحجارة عليها، ودخل عبد اللّٰه بن الزبير على إِثْرِ ذلك على أُمِّه أسماء، فقال لها: يا أُمَه، لقد خذلنى الناس، حتى أهلى وولدى، ولم يبقَ معى إلا اليسير، وقد أعطانى القومُ ما أَرَدْتُ من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت له: الله، الله، يا بنى، إنْ كنتَ تعلم أنك على حق تدعو إليه فامضِ عليه، ولا تُمَكِّنْ من رقبتك غلمانَ بنى أمية فيلعبوا لك، وإن كنت أَرَدْتَ الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكتَ نفسَك ومن معك، وإنْ قُلْتَ إنى كنت على حقٍّ فلما وَهَنَ أصحابى ضَعُفَتْ نيَّتى فليس هذا فعل الأحرار، ولا مَنْ فيه خير، كَمْ خُلودك فى الدنيا؟ القتل أحسن ما يقع بك يا ابن الزبير، والله لَضَرْبَةٌ بالسيف فى عِزٍّ أَحَبُّ إلىَّ من ضربة بالسَّوْط فى ذُلّ. فقال: يا أُماه، أخاف إنْ قتلنى أهل الشام أن يُمَثِّلُوا بى ويصلبوني! قالت: إن الشاة لا يضرُّها السَّلخ بعد الذبح، فامْضِ على بصيرتك واستَعِنْ بالله، فَقَبَّلَ رأسها وقال: هذا والله رأيى، والذى قمتُ به داعياً

إلى الله، والله ما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تُهْتَكَ محارِمُه، ولكنى أحببتُ أَنْ أَطَّلِعَ على رأيكِ فيزدنى قوة وبصيرة مع قوتى وبصيرتى. والله ما تعمدتُ إتيانَ مُنكَرٍ ولا عملًا بفاحشة، ولم أُجُرْ فى حُكْمٍ[1] ولم أَغْدِرْ فى أمان، ولم يبلغنى عن عُمَّالى حيف فرضيت به، بل أنكرتُ ذلك، وما أقول ذلك تزكيةً لنفسى، ولكنى أقوله تعزية لأمى لتسلُوَ عَنِّى. فقالت: والله إنى لأَرْجُو أن يكون عزائى فيك جميلًا إنْ تَقَدَّمْتَنِى احتسبتُكَ، وإنْ ظفرتَ شُرِرْتُ بظفرك، أُخْرُجْ حتى أنظر إلامَ يصير أمرك. ثم قالت: اللَّهم ارحمْ طُول ذلك القيام بالليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ فى هواجِرِ مكة والمدينة، وبِرّه بأُمِّه. اللهم إنى قد أسلمتُ فيه لأمرك، ورضيتُ فيه بقضائك، فَأَثِبْنِى فى عبد اللَّه ثوابَ الشاكرين. قال: يا أما لا تَدَعى الدُّعاءَ لى قَبْلَ قتلى وبعده. فقالت: لن أَدَعَهُ، فَمَنْ قُتِلَ على باطِلٍ فقد قُتِلْتَها على حق. فتناول يدها ليقبِّلها، فقالت: هذا وَداعٌ فلا تبعد. فقال لها: جئتُ مُوَدِّعاً لأنى أرى هذا آخر أيامى من الدنيا. قالت: امْضِ على بصيرتك وَادْنُ مِنِّى حتى أودِّعك. فدنا منها فعانقته وقَبَّلَتْهُ، فوقعت يدها على الدرع[2] فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد؟ فقال: والله ما لبستها إلا لأَشُدَّ مَتْنَكِ. قالت: إنها لا تشد متنى. فنزعها ثم درج لِمَّته[3] وشد قميصه وجُبَّته، وقال لأصحابه: احملوا على بركة الله، وليشغل لك منكم رجلًا، ولا يلهينكم السؤال عنى، فإنى على الرعيل الأول. ثم جمل عليهم حتى بلغ بهم «الحَجُون»[4] وهنالك رماه رجل شامى بحجر فأصاب وجهه، فأخذته منه رعدة، فدخل شِعْباً من شعاب مكة يستدمي[5]، فبصرت به مولاته فقالت: وا أمير المؤمنين! فتكاثر عليه أعداؤه عند ذلك فقتلوه، وصَلَبه الحجاج على الجذع عاماً كاملًا، حتى إذا أَمَر عبد الملك بإنزاله أخذته أُمُّه فغسَّلَتْهُ بعد أن ذهبوا برأسه، وذَهَبَ البِلَى بأوْصاله ثم كَفَّنَتْهُ وصَلَّتْ عليه، ودفنته[6]. ذلك أمر ابن الزبير ومُقامه من أمه، ونزوله على رأيها والأخذ بمشورتها

---

(١) جارَ فى حُكمه: ظَلَمَ.

(٢) الدِّرْع: قميص من حلقات الحديد متشابكة يُلْبَسُ وقايةً من السلام (يُذَكَّر ويؤنَّث).

(٣) اللِّمَّة: شعر الرأس المجاور شحمة الأذن.

(٤) الحَجُون: جبل بمكة.

(٥) أى: يداوى جرحه الذى يسيل.

(٦) «بلاغات النساء»، ص ١٣٠.

حتى آخر ساعة من حياته... فهل رأيت امرأة عانت ولدها على التضحية فى نُصْرةِ الحق وبَذْلِ النَّفْس فى حَوْمَة الشرف بمثل ما أعانت به أسماء ولدها؟!

إن المرأة المسلمة اجتمع لها من وسائل التربية ومجالات العمل ما لم يجتمع لأخرى، حيث أقر الإسلام بحَقِّها مع الإمعان فى احترامها، لأنها تمتعت برجاحة العقل، وسماحة الرأى، وتمكُّنٍ من الفضيلة حتى بلغت الغاية القصوى من خلال الدِّين وفرط اليقين، مما جعلها أعرف خلق الله بتكوين الرجال والتأثير فيهم، والنفاذ إلى قلوبهم، وتثبيت دعائم الخُلُق العظيم بين جوانحهم وفى مسارب دمائهم... إنهم الأُمَّهات اللواتى انبلج عنهن فجر الإسلام، وسَمَتْ بهن عظمته، وصدعت بقُوَّتِهن قوته، وعنهن وحدهن ذاعت مكارمه، ورسخت قوائمه. وإذا كان اليوم يُعَيَّرُ الرجل بأن يقال عنه: إنه «تربية أُمِّه»، فذلك لأن الأم تخلفت عن رسالتها، وفقدت معالم دينها، ونضبَ الخُلُق الكريم فى نفسها، فنشأ ابنها ضعيف اليقين، واهى العقيدة، ليس عنده مروءة ولا شهامة، يفزع لأتفه الأشياء، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، لكن فى الماضى كان الرجل يفتخر بأُمِّه، لأنها رُوح السُّمُو فى ذات نفس ولدها الذى أشرفت على تربيته، وكانت تفتدى بالصالحين... أما اليوم فأين القدوة؟ هل نبحث عنها فى امرأة تقضى نصف النهار عند «الكوافير»؟ أو تبحث عن رقصة جديدة تتعلمها؟ أم تبحث فى مجلات الأزياء لتعرف آخر صيحة فى عالم الملابس والموضة؟ أو أين تقضى الصيف هذا العام، وعلى أى شاطئ، وآخر صيحة فى عالم «المايوهات»؟ أو تبحث عن مُغَنٍّ قادم من الخارج فتخرج مع النساء لعمل مظاهرة لاستقباله فى المطار، وتقديم «الأوتوجراف» للتوقيع عليه، ومس يده، وسؤاله عن آخر أفلامه، وأحسن رقصاته، وأى «موضة» فى الملابس يفضِّل، وأحسن تسريحة للشعر؟ يا لله!! إن العين لَتَدْمَعُ، والقلب يحزن ونحن نرى القدوة العكسية التى بسببها قَتَلَ الولد أباه وضرب أُمَّه، حتى فى يوم عيدها يذهب إليها بهدية فى أول اليوم ويأخذها منها آخر النهار بعد أن يسقيها المُرَّ أشكالاً وألواناً، لأنها لم تعرف كيف تُرَبِّى، ومَنْ فعلَ ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[1].

* * *

(١) سورة النحل.

مزيد مما في ذاكرة التاريخ

تلك جولة تجوَّلنا خلالها فى ذاكرة التاريخ، حيث تبيَّنلنا أن المرأة لم تتخلَّف عن مسايرة الأمر الواقع، وأنها تتبوأ مكانتها فى المجتمع كإنسان له الحق فى أن يدافع عن مكانته، وفى أن يفكر كالرجل تماماً، وليس من أحد ينكر دور السيدة عائشة رضى الله عنها وسَعَة علمها، خاصة فيما يتصل بشئون الدين، حتى رُوِىَ فى الأثر: «خُذُوا نصفَ دينِكم عن هذه الحُمَيْراء». ولن ينسى التاريخ دور السيدة سكينة رضى الله عنها، وهى بنت الإمام الحسين، حيث كان بيتها كعبة الشعراء والأدباء، وقد أثنى الكل عليها ووصفوها بالخُلُق الكريم، والأدب الجمّ، والحياء. وأسماء بنت أبى بكر الصدِّيق وموقفها الرائع أيام الغار الذى نَزَل فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر عند الهجرة من مكة للمدينة، كما يرجع إليها الفضل فى شجاعة أبناء الزبير بن العوام، لأنها بثَّت فيهم روح الشجاعة والجهاد فى سبيل تثبيت العقيدة والدفاع عنها. وهل أتاك نبأ أم عبد اللّه بن عباس؟ حيث نَشَّأته على تعشق المجد مع التقوى. وأُم الشافعى التى أثرت فيه تأثيراً بليغاً، لأنها غَذَّتْ عقلَه، وقَوَّت روحَه، وكانت حريصة على إلاَّ يغلب على نسبه الهاشمى.

ويكفى أن تعرف أنه كان بالربض الشرقى فى «قرطبة» بالأندلس مائة وسبعون امرأة يكتبن كلهن المصاحف بخطوط آية فى الجمال. يقول الأستاذ «أولفر» ـ أستاذ بجامعة شيكاغو: «فى الوقت الذى كان سكان بغداد ومصر والبلاد الإسلامية تحتل المرأة المركز المرموق اللائق بها، ثم لا تُكَلَّف إلا تربية الأولاد وتدبير المنزل، كانت نساء الرومان يزرعن الأرض، ويَرْعَيْن الماشية مع العبيد».

إن الإسلام الذى نؤمن به وندعو إليه كَرَّم المرأة وأعلى شأنها وأجاز لها أن تدافع عن نفسها إذا أراد أحد أن ينتقص حقوقها أو يسىء إليها، وها هى امرأة

تترافع عن نفسها أمام رسول الله ﷺ، حيث طلَّقها زوجها وأراد أن يأخذ ولده منها، فقالت: يا رسول الله، إن ابنى هذا كان بطنى له وعاء، وثَدْيى له سقاء، وحجرى له حواء، وإن أباه طلَّقنى ويريد نَزْعَه منى. فحكم لها رسول الله ﷺ وقال لها: «**أنتِ أحق به ما لم تتزوجى**».

وتخاصم أبو الأسود الدؤلى مع زوجته على ولد بينهما، فقالت المرأة: أنا أحق به لأننى حملتُه تسعة أشهر، ثم وضعته، ثم أرضعته، إلى أن ترعرع بين أحضانى كما تراه مراهقاً. فقال أبو الأسود: أيها القاضى لقد حَمَلْتُهُ قبل أن تحمله، ووضعتُه قبل أن تضعه. فقالت المرأة: إنه حمله خفًّا وحملته ثقلًا، ووضَعَهُ شهوة ووضعتُه كرهاً. فقضى القاضى لها بالولد. وهذه القصة تعطينا الدليل على أن المرأة يجوز لها أن تعمل بالمحاماة، بحيث تتولى الدفاع عن بنات جنسها، ويا حبذا لو كان القاضى امرأة كذلك، لأن عمل المحاماة مهنة شاقة تحتاج إلى مجهود، ولأن المرافعات تحتاج إلى جهد، لذلك أرى أنه بعد تَشَعُّبِ المشاكل وكثرتها، وأصبحت المرأة تمثل فيها جانباً كبيراً، فإنه لا مانع من أن تتولى المرأة عمل المحاماة أمام القاضى الذى يكون امرأة، حيث أباح الإسلام لها أن تتولى الإفتاء والقضاء، إلا فى مسائل الدماء، لأنها عاطفية.

وقيم الدين تحرص على كيان المرأة وشخصيتها من الهزات العصبية والنفسية، لذلك يجب إعداد المرأة لهذا الدور الذى أصبح المجتمع فى حاجة ماسة إلى مشاركة النساء فى القضايا التى تتعلق بالأنثى ومن خصوصياتها، كمسألة البكارة والولادة، والاعتداء الجنسى، وما شاكل ذلك من المشاكل التى تفرض نفسها على الساحة الدولية فى هذه الأيام.

فى عام ١٩٤٤ قامت ضجة فى مجلس النواب المصرى، والموضوع كان حرمان المرأة من عمل المحاماة لما تتعرض مَنْ تمارس ذلك إلى مشاكل عديدة، وانتهت المناقشة على أَخْذ الرأى على الاقتراح بحرمانها من ممارسة هذا العمل، فلم يوافق المجلس. وفى مجلس الشيوخ المصرى قدم أحمد رمزى بك طلباً بقصر المحاماة على الرجال، وعلل ذلك بالمصاعب والمتاعب، وقد تكون هناك خلوة والشرع يرفضها، لكن لم يسفر ذلك عن نتيجة أيضاً. لهذا نقول بأنه لا مانعَ من عملها فيما يتعلق بشئون بنات جنسها وما يدور فى فلك ذلك.

لقد زارت السيدة «أليزابيث فراى» الإنجليزية سجن (نيوجيت) ورأت النساء شبه مجنونات مِمَّا يُقاسِين من متاعب، ووجدت أبناءَهن فى حالة مفجعة، فوجهت النداء للنساء أن ينزلن إلى ميادين الخدمة العامة. ونحن نوجه النداء لكل مَنْ تجد فى نفسها القدرة على العطاء ووقتها يسمح لها بتقديم المساعدة لبنات جنسها أن تبادر إلى ذلك، فمن الخير أن تدخل المرأة هذا الميدان وأن يكون لها دور فى معيات تحسين الصحة، وكفالة اليتيم، والهلال الأحمر، ودُور الحضانة، ومحاكم الأحداث، والنيابة الحسبية، ومؤسسات الرعاية الاجتماعية وحق الحياة، وبيوت الضريرات والأطفال التائهين، إلى غير ذلك مما له صلة بالأمومة، لأن هذا يتفق مع كيانها وشخصيتها وتكوين نفسيتها.

ممارسة الأعمال التجارية والوطنية

أباح الإسلام للمرأة أن تمارس التجارة بيعاً وشراءً، وكاتبة ومحاسبة، وعاملة ووسيطة إذا أعدَّت نفسها لذلك بالممارسة والتعليم، ولها أن تستأجر الرجال لينوبوا عنها فى عملها، أمَّا دخولها البورصة والمضاربة بالأسهم فمجازفة منها، لأن خبرتها فى هذا المجال محدودة، وعند الخسارة الرهيبة قد تفقد أعصابها وتنهار، لكنها فى التجارة تؤمن بالمكسب والخسارة البسيطة، لهذا نقول لها: اعملى فى المكان الذى أثْبَتِّ فيه شخصيتك، وظهر فيه نبوغك، وتفوَّقْتِ فيه، ودَعِى عنك كُلَّ ما يكون سبباً فى هزّ عاطفتك أو إعاقتك عن العمل، وميدان الجهاد فى سبيل نشر العقيدة والذود عن الوطن وحماية العِرْض، فكم فى تاريخ الإسلام والعروبة من نساء خُضْنَ غمرات الحرب، ورفعن رايات الجهاد، وبذلن صنوف التضحية فى سبيل ذلك.

والإسلام لم يمنع المرأة من ذلك قَطُّ، فهذه السيدة الفاضلة «خديجة بنت خويلد» أُم المؤمنين الأولى فى حياة النبى ﷺ، كانت أشبه بوزير داخلية فى بدء الدعوة الإسلامية، كانت تنشر الأمنَ حول الرسول ﷺ، وتهدئ من روعه، وتشير عليه بالذهاب إلى «وَرَقَة بن نوفل»، وتشجعه على تبليغ الدعوة، وتعمل على أن تبلغ مداها المنتظر. وعندما قَدِمَ أهلُ يثرب لمبايعة النبى ﷺ «بيعة العقبة» كان فى

الوفد نساء، وكان لهن دور عظيم. وأم سلمة التى أشارت على النبى ﷺ أن يَحْلِقَ ويتحلَّل وينحر الهَدْى، وكان ذلك فى صُلح الحُدَيْبِيَّة، عندما كتب النبى ﷺ «عهد الصلح» مع أهل مكة، وكان يمثلهم «سهيل بن عمرو»، وظن المسلمون أن شروطها مُجْحِفَة، لذلك ظهر فريق معارض يتقدمهم «عمر بن الخطاب» رضى الله عنه، وتباطأ الناس فى تنفيذ توجيهات النبى ﷺ، فأشارت عليه «أُمُّ سلمة»، فنزل على رأيها الذى كان خيراً وبركة. وقد أجاز النبى ﷺ للمرأة أن تُجِيرَ مَنْ تجير من أهل قريش أو الأعداء، حتى قال لأم هانئ: «قد أَجَرْنا مَنْ أَجَرْتِ يا أُمَّ هانئٍ».

وفى عهد «عمر» رضى الله عنه وقفت امرأة منه موقف المعارضة، وكان فى مجتمع عام، فنزل على رأيها، وعتَمِلَ بمشورتها. وعائشة رضى الله عنها خرجت على أمير المؤمنين علي بن أبى طالب وانضمَّت لصفوف محاربيه، لأنه ـ من وجهة نظرها ـ تهاون مع قَتَلَةِ عثمان رضى الله عنه جميعاً. والزرقاء بنت عَدِىٍّ الهمدانية المشهورة «بذات الهودج»، خرجت مُجاهِدَةً مع على فى هود قاتم اللون، تثير العواطف، وتستحثّ القلوب وتدافع عن أهل البيت النبوى، وتنادى فى الرجال: «ألا إن خضاب النساء الحِنَّاء، وخُضاب الرجال الدماء»، وكادت الدائرة تدور على صفوف «معاوية» لولا ما لجأ إليه من حيلة التحكيم. ولما انتهت الفتنة وقُتِلَ الإمام علىٌّ كرَّم الله وجهه، رجعت الزرقاء وقلبها حزين جدًّا لما نزل بآل البيت النبوى، وكان «معاوية» يحقد عليها، إذ لا يزال أمام عينيه خيال «ذات الهودج» وصوتها يرنُّ فى أُذنه... ولقد استنكف معاوية عن أن يقتلها، وبعد فترة أرسل إلى والِيهِ بالعراق أن يحملها إليه، فنصب الوالى هودجاً على ظهر جمل تذكيراً لها وسخرية منها، فلما مثلت بين يديه نظر معاوية إلى هودجها وأشار إليه وقال: أهكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو!! فقال معاوية: الآن ظَهَرَ الحق. قالت: إن الله يفعل ما يشاء. قال لها معاوية: أفتذكرين شيئاً من قولكِ وأنتِ مع علىٍّ؟ فصمتت. قال: يا زرقاء، أَلَسْتِ القائلة: «أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون»؟ فمن كُنْتِ تريدين بالمؤمنين والفاسقين؟ قالت وقد اندفعت بعزَّة الإيمان والثقة فى الله: نعم أنا القائلةُ وأنتَ أعلم بمن كُنْتُ أعنى! قال: إذن قد شارَكْتِ عليًّا فى كل ذلم

سفكه. قالت: بَشَّرَكَ الله بالخير يا أمير المؤمنين. قال لها: أَوَسَرَّكِ هذا؟ قالت: نعم، ومثلك من يبشر بخير. قال: أفلا تخشين أنْ أُلْحِقَكِ به؟ (أى أسفك دمك). قالت وقد اشتمَّت ريح الإيمان بالقضاء والقدر: أرجو أن يُشَرِّفنى الله باللحاق به. قال لها: إنهم أشاروا علىَّ بقتلك. قالت والعزَّة ملء إهابها، وقوة الحق على لسانها: لُؤْمٌ منهم، ولو فَعَلْتَ لشاركتهم. فأطرق معاوية وقد أُخِذَ من كل جوانبه بروحانية الإيمان الذى ظهر عليها، ورباطة جأشها، وما تفجَّر على لسانها. وهنا رفع معاوية رأسه وقال للزرقاء: قد عَفَوْتُ عنكِ. قالت: لم أَجْنِ ذَنْباً تعفو عنه، خَفِّفْ عن نفسك. فلما لم يجد مخرجاً من هذا الحَرَج قال لها: اذكرى حاجتك. قالت: والله لقد آليتُ على نفسى ألاَّ أسأل أحداً حاجة بعد علىّ. فزاد حرج معاوية وزاد إكباره لها لأنها ترى الموت يلعب على شفتيه فتهزأ به وبكل ما يملك من صولة ودولة، وهى فقيرة وحيدة، وما عرف الكذب ولا الضعف إليها سبيلًا. ثم قال لها معاوية: إنَّ وفاءَكِ لعلىّ بعد موته لأَشَدُّ من إخلاصك به فى حياته. ثم أمر بإكرام وفادتها.

إن العالم لو عرف هذه الأمور لتبين له سماحة الإسلام، لذلك تسابقت المرأة إلى فعل الخير الذى حثَّ عليه الإسلام، لأنه هو الذى صان كرامتها، ومنحها الحرية، وأعطاها أكثر ما كانت تتمنى، فهذه «الخيزران» زوجة المهدى كانت تلبى حاجة كل مَنْ يقصدها، وكذلك «زبيدة» زوجة هارون الرشيد، لن ينسى التاريخ لها ما قدَّمته من جلائل الأعمال، ومثلها «بوران» زوجة المأمون، كانت لزوجها خير معين ونِعْم المُساعِدة فى التعمير ورقى المجتمع، وهذه «قطر الندى» زوج المعتضد عُرفت بالحزن وسعة العلم، وعدلها فى القضاء إذا احتكم إليها أحد.

والأمر لا يسير هكذا نجاح مستمر، بل هناك خلخلة حدثت بسبب تدخُّل النساء، فنحن نذكر أن «مصطفى أتاتورك» رئيس الجمهورية التركية طَلَّقَ زوجته «لطيفة هانم» عندما أحس بتدخُّلها فى الشئون السياسية درءاً لما يجرُّه هذا التدخل من فساد، لأنه قرأ تاريخ بنى العباس فى بغداد وعرف ما آل إليه الأمر عندما تدخلت النساء فى إدارة دفَّة البلاد، وكذلك حال آل عثمان بالقسطنطينية، فالأمور ساءت، والأحوال اضطربت، وتصدعت الأمور. ولعل أبلغ شىء هو الذى حدث

فى «بلغاريا» عندما تدخلت الأميرة «بودكسيا» شقيقة الملك «بوريس» فى تسيير دفَّة أمور البلاد، فالدولة انهارت، لأنها كانت تُسقط الوزراء وتُعَيِّنهم. ولن ينسى التاريخ أبداً ما كان من «شجرة الدر» زوجة الملك الصالح أيوب، لولا أن «عز الدين أيبك» تداركَ الأمر ونهض بالدولة بعد كبوتها. ولا يغيب عن البال أن هزيمة فرنسا أوائل الحرب العالمية كان على يد «الكونتس دى برت»، فهى التى سعت فى تأليف اللجنة الفرنسية الألمانية، وضم «فيجان» و«بول بودن» إليها لغايات نازية محضة، ثم هى التى سعت إلى إسقاط وزارة «دلاديه» المعاون لإنجلترا وتولية «بول رينو» المعاون لأولمانيا، ثم هى التى أخذت تخدِّر أعصاب الساسة والقوَّاد وتُدخل الرعب فى قلوبهم من ألمانيا وقوّتها، حتى ألقوا عُدَدَ الدفاع المعنوية قبل أن يلقوها حقيقة، فأُصيبوا بالهزيمة التى انتهت بضياع فرنسا.

ونحن نذكر السيدة عائشة رضى الله عنها ـ إحدى أمهات المؤمنين ـ لمَّا ركبت الجمل مُطالِبَة بدم عثمان رضى الله عنه، أنكرت عليها السيدة أُمُّ سَلَمة ـ إحدى أمهات المؤمنين ـ وكتبت إليها تقول: «إن عَمُودَ الدين لا يثبت بالنساء إذا مالَ» فتقبّلت منها قولها بقبول حَسَن، وكتبت إليها تقول: «ما أقبلنى لوعظك، وأسمعنى لنصحك، وليس مسيرى على ما تظنين، ونعم المَطلع مطلع فرَّقتُ فيه بين فئتين متناجزتين، فإن أقدر ففى غير حَرَج، وإن أُحرج فلا غنى بى عن الازدياد من نصحك والسلام». ويقف المغيرة بن شعبة فى طريق الرَّكْب الذى مع عائشة، ويقول: «ارجعوا بأُمّكم خير لكم». ويقول سعد بن أبى وقَّاص لمَّا بلغه خبر خروجها: «عفا الله عنها، لقد فَعَلَتْ ما كان غيره[1] أولى».

إلى غير ذلك مما يجدر بنا أن نعلمه، لأن الأمور تحتاج إلى فراسة وكياسة وحُسْن تصرف، ومن يتعلم ويأخذ عبرة التاريخ فالخير له، سواء كان رجلًا أو امرأة.

هذا، وبالله التوفيق.

منصور الرفاعي عبيد
وكيل وزارة الأوقاف
للمساجد وشؤون القرآن

(١) غيره: أى غير هذا الفعل.

الفهرس